التغيرات

في الأمة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

التغيرات
في الأمة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٦/١٠٩١٧م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-158-2

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E-mail: alamia_misr@hotmail.com

التغيرات

في الأمة الإسلامية

في ضوء السنن الإلهية
بين الماضي والحاضر

تأليف
د. أحمد خضر حسنين الحسن

الدار العالمية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين وسيد العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

إن القرآن الكريم ذاخر بالعلوم والإشارات والتوجيهات التي خاطب بها البشر في شتى مجالات حياتهم، تحدث عن الإنسان باعتبار خلقته ومكانته في الكون، وتحدث عنه باعتباره في أمسِّ الحاجة إلى التوجيه والإرشاد في مجال عبادة الله، وإقامة شرعه في الأرض، وتحدَّث عنه باعتباره كائن له مواصفاته الخاصة،النفسية والفكرية والعقلية، كما تحدث عن الكون وما فيه من أسرار كامنة وصفات ثابتة ومنافع جمَّة بل وما فيه من جمال ماتع يُسِّري عن النفس البشرية حينما تحتاج إلى ذلك، فضلًا عما ذكره القرآن من تسخير هذا الكون للإنسان.

ومما لفت القرآن النظر إليه السنن الكونية والسنن الاجتماعية التي جاءت كلها لتبين للإنسان أنه لا يوجد شيء في هذا الكون خُلق سدىً، أو ترك هملًا، كلا بل كل ما في هذا الكون له أهداف من أجلها خُلِقَ، وله قوانين على وفْقِها يسير لا يخرج عنها قيد أنملة، يستوي في ذلك الإنسان بغيره من الكائنات.

وبناءً عليه كان النظر في ملكوت السموات والأرض يهدينا إلى معرفة السنن الكونية ـ سنن التسخير ـ والنظر في تاريخ الأمم وتقلباتها عبر التاريخ يهدينا إلى معرفة السنن الاجتماعية، وكلاهما ـ تبعًا لمنهج القرآن ـ ذو أهمية خاصة في الحياة العملية للإنسان.

فالظواهر الطبيعية أمور تحدث تلقائيًّا وفق سنن التسخير الربانية، دون أن يكون للإنسان شأن فيها كطلوع الشمس وغروبها وسير الكواكب في أفلاكها وهو ما يُعرفُ بالسنن الإلهية الكونية.

وأما الفعل البشري وتصرف الناس في مجتمعاتهم والتي لا بد أن يكون لها مقدمات تترتب عليها نتائج، وبذلك تتشكل حركة التاريخ، وتتبدل الأمم تبعًا لتصرفاتهم، هذا كله ليس اعتباطًا وإنما يسير وفق سنن إلهية مطردة شاملة، وقواعد ثابتة، قد بينها القرآن الكريم، وضرب لها الأمثلة عبر تاريخ البشرية الطويل، وذلك ما يطلق عليه السنن الإلهية الاجتماعية.

ومَنْ تدبر القرآن الكريم وجد أن موضوعه هو الإنسان، وما عليه مدار نجاحه وخسرانه، ودعوته إلى المنهج السليم، والأخذ بيده إلى الصراط المستقيم، ليتم له صلاح أمره وسعادة دنياه وآخرته ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩]. وبعدها بآيتين فقط: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء:١٢]. فالأولى لإرشاده للحياة الاجتماعية التي بها يُحفظ من كل ما ينغِّص عليه حياته، والثانية لإرشاده إلى النظر في آيات الله الكونية ليسخرها لحياته الدنيوية، وما أشارت إليه هاتان الآيتان إنما هما نموذجان من آيات كثيرة في هاتين السنتين الكونية والاجتماعية.

ولقد علم المسلمون الأوائل ـ من خلال تدبرهم لكلام الله تعالى ـ طبائع الأمم وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ فكان التعامل مع هذه السنن بشكل تلقائي، ومن هذا المعنى قول سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلقًا على إحدى المعارك: «إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم وخذلتم بتفرقكم على حقكم».

«ولقد بقي الأمر على هذا الحال ـ من الفهم للسنن والتطبيق العملي لها ـ إلى أن غابت من المجتمع الإسلامي سنن التبصُّر بالعواقب وحل محلها الغفلة عن سنن الله في الأنفس والآفاق؛ فدارت الدائرة على دولة الإسلام وذاقت مجتمعاته وبال أمرها سقوطًا حضاريًّا، ودمارًا عمرانيًّا، وفسادًا أخلاقيًّا، وانكبابًا على الشهوات لما تركت سنن التحصن وأسباب الصيانة التي تحرس موروث سنن البناء والتمكين، حتى قيض الله لهذه الأمة في العصر الحديث من تنبَّه إلى الثروة السننية التي يذخر بها القرآن الكريم،وإلى غفلة المسلمين عنها مع شدة حاجتهم إليها»[1].

وبالنظر إلى واقع الأمة الإسلامية مقارنة لها بما يرشد إليه العلم بالسنن الإلهية، بنوعيها الكونية والاجتماعية نجد أنها في أمس الحاجة إلى العمل الجاد المستمر لتأصيل هذا العلم وتوضيحه ونشره بين المسلمين عمومًا، وبين أصحاب القرار وعلما الاقتصاد والطبقات العليا على وجه الخصوص، ثم العمل الجاد والمستمر على تحويله إلى واقع عملي يؤثر تأثيرًا ظاهرًا بينًا على كل خطوة تخطوها الأمة في سبيل الإصلاح والتقدم الحضاري المنشود لتأخذ مكانتها اللائقة بها بين الأمم.

فإن لم يتم هذا أو أكثره فسوف تزداد حالة الأمة سوءًا وتراجعًا بين أمم أهل الأرض، وخوفًا من حصول ذلك بدأ أهل العلم في العصر الحديث إحياء هذا العلم من علوم القرآن، ألا وهو علم السنن الإلهية، وممَّنْ أهتم به من أهل التفسير السيد محمد رشيد رضا وتلميذه الإمام محمد عبده وبعدهما المفسر والمفكر الإسلامي سيد قطب، ومن المفسرين أيضًا سماحة الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ المراغي، وهؤلاء كتابتهم حول السنن الإلهية إنما جاءت من خلال تفسيرهم للقرآن الكريم ولم تكن لهم مؤلفات خاصة بهذا العلم.

---

(١) موقع منتدى التوحيد ـ مقال بعنوان السنن الاجتماعية في القرآن الكريم ـ للدكتور محمد السيسي ـ كلية الآداب مكناس.

ثم جاء من بعدهم من العلماء والباحثين في عصرنا من أفرد هذا العلم بالتأليف أو أعطاه جزءًا من اهتمامه في بعض كتبه[١].

وكون أنَّ العلماء والباحثين يتوجهون إلى التأليف في هذا العلم وإبراز دوره في الأمة فتلك خطوة جديرة بالاهتمام لأنها تعتبر بداية الطريق لإنقاذ الأمة مما هي فيه من الانهزام النفسي والحضاري، لدى بعضها، ومن قلة المبالاة وعدم الاهتمام بالشأن الإسلامي لدى البعض الآخر.

ولئلا أطيل على القاري في التقديم أقول لقد كتبت هذا الكتاب بهدف تقريب هذا العلم لكل داعية إلى الحق يحمل هم أمتنا المباركة ولكل مثقف جرد قلمه وثقافته لنفع الأمة وتوخيت فيه السنن التي نحن في أمس الحاجة إليها في عصرنا وهو جهد المقل وأسميته: التغيُّرات في الأمة الإسلامية في ضوء السنن الإلهية (بين الماضي والحاضر) وهذا العنوان في إشارة إلى طرفين هامين في قضية معرفة السنن الإلهية.

أما الطرف الأول: فهو البحث في معرفة السنن الإلهية كعلم قائم مستند إلى الكتاب والسنة وضرورة انتشاره في الأمة.

وأما الطرف الثاني: فهو إعطاء الحلول العملية للازدهار الحضاري للأمة الإسلامية وذلك لأن الخضوع للسنن الجارية والقوانين الاجتماعية وعوامل السقوط والنهوض والقيام بعمليات التقويم واكتشاف مواطن الفشل وأسباب التقصير وبناء العقل الناقد واعتماد الاستطاعة كان دائمًا هو وسيلة التصويب وإمكانية التسخير بالسنن ومغالبة قدر بقدره فالشعار كان دائمًا للحركة الإنسانية للسقوط والنجاح: ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران:١٦٥]، ﴿ **حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد:١١].

---

(١) من أولئك مالك بن نبي ومحمد الطاهر ابن عاشور ود. يوسف القرضاوي والشيخ محمد الغزالي والأستاذ عمر عبيد حسنه وغيرهم كثير.

حتى لو وجد في المجتمع بعض الأفراد الممتازين الموهوبين لكنهم عزلوا أنفسهم وعجزوا عن التفاعل والانقياد مع الأمة فلن يستطيعوا التغيير[١].

لأهمية الموضوع وللازدياد من العلم كتبت هذا البحث واتبعت في كتابته المنهج الآتي:

أولًا: اختيار السنن الإلهية اجتماعية كانت أو كونية ذات الصلة ببناء الإنسان أولًا ثم ما يعين على البناء الحضاري ثانيًا مع محاولة اختصار الشرح والتوضيح لتلك السنة حتى نصل إلى أكبر قدر ممكن منها.

ثانيًا: اعتمدت في تفسير الآيات ذات الصلة بالموضوع أو التي استشهدت بها في بعض المواضيع على الثقات من المفسرين، كما اعتمدت على الاستشهاد بالأحاديث والآثار الصحيحة لأن هذا الباب مما لا يحتمل الأثر الضعيف، وان وُجد فهو إما سهوا وإما معه ما يعضده من الأحاديث الصحيحة أو السنة.

ثالثًا: صور من التطبيق العملي للسنن الاجتماعية مما حصل عبر تاريخ البشر واقتراح الناحية العملية التطبيقية مما نحن في حاجة إليه في هذا العصر.

رابعًا: أغفلت تراجم العلماء ـ من قدامى ومحدثين ولقلة نادرة من الغربيين للحاجة إلى ذلك ـ لسببين أحدهما: فتجنبًا لإشغال البحث بالحواشي، وثانيهما: لقد أصبح من السهولة بمكان الوصول إلى تراجم العلماء بشتى الوسائل كالشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، أو كتب التراجم المتنوعة المنتشرة في المكتبات.

خامسًا: قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: وقد مضى أكثرها.

---

(١) من مقدمة للأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب المشروع الحضاري لإنقاذ القدس ـ للأستاذ محمد عبدالفتاح حليفاوي ـ(ص٤-٥) باختصار. سلسلة كتاب الأمة العدد (١٣٠).

تمهيد: في التعريف بالسنن الإلهية وعلاقتها بالتكليف الشرعي للإنسان واستخلافه في الأرض، ويشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: معنى السنة في اللغة والاصطلاح الشرعي.

المحور الثاني: مفهوم السنن الإلهية في القرآن الكريم.

المحور الثالث: علاقة السنن الإلهية بالتكليف الشرعي وإعمار الكون.

الفصل الأول: دور القرآن في بناء الوعي بالسنن الإلهية وفيه مباحث:

المبحث الأول: تقصير المسلمين في تدوين علم السنن الإلهية.

المبحث الثاني: دور القرآن في التوعية بالسنن الاجتماعية.

المبحث الثالث: دور القرآن في التوعية بالسنن الكونية.

الفصل الثاني: بيان بعض المفاهيم التي غابت أو انحرفت في حياة الأمة بسبب غياب الوعي بالسنن الإلهية وفيه:

المبحث الأول: مفهوم حرية الرأي والتعبير عنه وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الثاني: مفهوم حرية العقيدة وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الثالث: مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالسنن بالإلهية.

المبحث الرابع: بين التدين الحقيقي والتدين المغشوش وعلاقته بالسنن الإلهية.

الفصل الثالث: السنن الإلهية في الأنفس:

المبحث الأول: سنة الله تعالى في الابتلاء.

المبحث الثاني: سنة الله تعالى في الجزاء من جنس العمل.

المبحث الثالث: سنة الله تعالى في التغيير الاجتماعي.

المبحث الرابع: السنن الإلهية الفاعلة في تغيير الأمة الإسلامية.

الفصل الرابع: بين السنن الإلهية الكونية والكشوف العلمية والتكاليف الشرعية، وفيه مباحث:

المبحث الأول: خصائص السنن الإلهية.

المبحث الثاني: نماذج من السنن الإلهية الكونية ومنافعها الدينية والدنيوية.

المبحث الثالث: الكشف العلمي مفهومه ومقوماته ونماذج منه في العصر الحديث.

المبحث الرابع: علاقة الكشوف العلمية بالتكاليف الشرعية.

الفصل الخامس: بين الحضارة الإسلامية والسنن الإلهية وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية وأسسها.

المبحث الثاني: مظاهر الحضارة الإسلامية في التاريخ.

المبحث الثالث: أسباب التخلف الحضاري للأمة في عصرنا ومحاولة تلافيها.

الفصل السادس: تسخير السنن الإلهية في البناء الحضاري:

المبحث الأول: ضرورة توعية الأمة بالسنن الإلهية.

المبحث الثاني: خلق الله الكون وسخره للإنسان.

المبحث الثالث: النظرة الإسلامية كتسخير الكون للإنسان.

المبحث الرابع: دور السنن الإلهية الاجتماعية والكونية في بناء الحضارة المعاصرة.

الخاتمة.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

وفي ختام هذا البحث أسال الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم نافعًا للمسلمين وأن يكتب لي فيه الأجر والثواب، فيما كان فيه من صواب، وأن يعفو عني ويغفر ما كان فيه من خطأ أو زلل، وأستغفر الله العظيم من كل ذنب.

كتبه

د. أحمد خضر حسين الحسن

الدوحة

هاتف ٤٦٠٥٨٦٧

جوال ٣٠٢٧٨٨٦

إيميل: khader.ahmad@yaho.com

تمهيد

في مفهوم السنن الإلهية وعلاقتها بالتكليف الشرعي للإنسان واستخلافه في الأرض

وفيه ثلاث محاور:

المحور الأول: معنى السنة في اللغة والاصطلاح الشرعي.

المحور الثاني: مفهوم السنن الإلهية في القرآن الكريم.

المحور الثالث: علاقة السنن الإلهية بالتكليف الشرعي وإعمار الكون.

المحور الأول

معنى السنة في اللغة والاصطلاح الشرعي

أولًا: معنى السنة في اللغة: سنة مفرد وجمعها سنن وهي مشتقة من مادة «س ن» ـ وقد استعملت العرب هذه المادة في معاني كثيرة سنقتصر على ذكر ما له صلة بموضوعنا وهما معنيان:

الأول: السنة تأتي بمعنى التوالي والتتابع والاطراد: وهذا المعنى اتفق عليه أكثر أئمة اللغة[١]، فقد جاء في معجم مقاييس اللغة في مادة «سنّ» السين والنون أصل واحد مطرد وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي أسنّه سنًا إذا أرسلته إرسالا[٢].

الثاني: السنة تأتي بمعنى الطريقة والسيرة: وقد أجمع علماء اللغة على هذا المعنى بل ذهب أكثرهم إلى أن السنة تطلق على السيرة محمودة كانت أو مذمومة، حتى جعل ابن منظور هذا المعنى هو الأصل وما سواه تبع له حيث قال: «السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، قال خالد بن زهير الهذلي:

فلا تجزعن عن سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها»[٣]

ويؤيد هذا الكلام ما ورد في الحديث النبوي الشريف حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنقُص من**

---

(١) القاموس المحيط – لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي – توزيع مكتبة النوري دمشق «مادة سنة»، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – لاسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – (٥/ ٢١٤١) ولسان العرب – ابن منظور – دار المعارف – مصر – مادة سن والأساسي في البلاغة لابن القاسم جاد الله محمود ين عمر الزمخشري – دار المعارف – بيروت (٢١).

(٢) معجم مقاييس اللغة – لابن فارس – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجبل – مادة سن.

(٣) لسان العرب – لابن منظور مادة «سن».

أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقُص من أوزارهم شيء»[١].

ثانيًا: معنى السنة في الاصطلاح الشرعي:

والمراد اصطلاح علماء الشريعة، ومعلوم أن علوم الشريعة كثيرة ومتنوعة كالفقه، وأصوله والحديث وأصوله، والعقيدة، والتفسير، وغيرها، وليس من المناسب أن نبحث مفهوم السنة في جميع هذه العلوم لأننا بذلك سنخرج عن موضوع البحث، ولهذا رأيت أن أنسب علم من هذه العلوم للبحث فيه عن معنى السنة هو علم التفسير، وذلك لوجود كلمة ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:٢٣]، في القرآن الكريم وموضوع بحثنا هو السنن الإلهية:

المتأمل في أقوال المفسرين يجد أنهم لم يخرجوا عن المعنى اللغوي بصورة مجملة وإليك بعض أقوالهم من قدامى ومعاصرين:

قال شيخ المفسرين الطبري: «السنة: المثال المتبع والإمام المؤتم به»[٢]، وقال في موضع آخر: «السنة: المثلات سير بها فيهم- أي الكفار - وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم»[٣].

وقال القرطبي: «السنة هي الطريق المستقيم، وهي الإمام المتبع، وهي الأُمَّة واستشهد لكل هذه المعاني بأبيات من الشعر»[٤].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزكاة لأبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري - بيت الأفكار - الدولية السعودية ط١ حديث رقم (١١٠٧)، وأحمد في المسند حديث رقم (١٩١٩٧).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن - لابن جرير الطبري- دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٧ (٣/ ٤٤٤).

(٣) المرجع السابق (٤/ ٩٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٧ -(٤/ ٢١٦) بتصرف يسير.

وقال الفخر الرازي: «السنة هي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع»[١].

تلك هي أقوال قدامى المفسرين لم تخرج عن نسق واحد ابتدأه ابن جرير وسار عليه مَنْ جاء بعده.

أما أقوال المعاصرين من المفسرين فهي لم تخرج عن السابقين وإليك بعضها:

قال الشوكاني: «المراد بالسنة ما سنه الله في الأمم والوقائع»[٢].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «السنة: هي الطريقة المتعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع»[٣]، ولا يخفى تأثره بمن سبقه، وتابعه في هذا التعريف كل من المراغي[٤] والزحيلي[٥].

وبناء عليه نقول نحن لم نصل إلى تعريف خاص بالسنن الإلهية باعتباره علم مستنبط من القرآن، وذلك لأن هذه الأقوال لم تخرج عن المعنى اللغوي، وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسين شرفه: «وبعد استقراء النتائج تبين لي أن معظم المفسرين تعاملوا مع كلمة «سنة» بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي فلم يزيدوا على تفسيرها بلفظة مرادفة لها مثل طريقة أو طرائق التي تكررت لديهم ٤٤ مرة وفسروها بمعنى العادة أكثر من ٢٤ مرة، وبمنهاج أو منهج ١٢ مرة وبوقائع ٩مرات، وبمعنى السيرة ٨مرات، وبمعنى المثال أو الأمثال ٨ مرات كذلك ثم تأتي بعد ذلك معانٍ أخرى بنسبة أقل مثل: شرائح، قواعد، سُبل، حكم الله، أمر الله، وغيرها، وقد فسر السنة بالقانون مفسران معاصران

---

(١) التفسير الكبير – للفخر الرازي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة (٩/ ١١).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير –لمحمد بن على الشوكاني – دار إحياء التراث العربي – بيروت – (١/ ٨٣).

(٣) تفسير المنار – لمحمد رشيد رضا – الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة (٤/ ١٥).

(٤) تفسير المراغي – لأحمد مصطفي المراغي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٧٤ – (٤/ ٧٥).

(٥) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – د/ وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر – بيروت (٤/ ٩٦).

هما: أبو بكر الجزائري، ووهبة الزحيلي، أما تفسير السنة بالناموس فيستعملها سيد قطب كثيرًا[١].

ولهـذا سيأتي تـعريف السنن الإلهية باعتبـاره علم جديد مستنبط من القرآن الكريم في المحور الآتي:

(١) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة – رسالة دكتوراة –د/ حسين شرفة – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠٨ – (ص٤٧).

المحور الثاني

مفهوم السنة الإلهية في القرآن الكريم

يمكننا توضيح هذا المفهوم من خلال النقاط الآتية:

أولًا: المواضع التي وردت فيها كلمة سنة في القرآن الكريم:

لكي يكون مفهوم السنن الإلهية في القرآن واضحًا وجليًّا وفي نفس الوقت شاملًا، كان لا بد من معرفة المواضع التي وردت فيها مادة «س ن ن» في القرآن الكريم وهي كالنحو الآتي:

وردت هذه المادة في القرآن الكريم ١٨ مرة ضمن ١١ آية في ١٠ سور[١].

وقد جاءت بصيغتين: صيغة الجمع « سنن» وصيغة المفرد «سنة» ولست في حاجة إلى سرد تلك الآيات كلها وإنما سأذكر بعضها للتمثيل.

جاءت مجموعة مضافة كما في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٦]، وجاءت مجموعة مطلقة كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وليس لهما ثالث، وجاءت مفردة مضافة ولم ترد غير مضافة قط.

كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر:١٣].

وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [الإسراء:٧٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيًا: تعريف السنن الإلهية باعتباره علم مستنبط من القرآن الكريم[٢]:

ذكرنا قبل قليل أن تعريف كلمة «سنة» عند أهل التفسير لم نستفيد منه شيئًا جديدًا على المعنى اللغوي، وإنما كان مقصودنا الوصول إلى تعريف اصطلاحي بعلم جديد

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – وضعه محمد فؤاد عبد الباقي مادة سنة.

(٢) لما كان العلم بالسنة الإلهية مرجعه الأساسي هو القرآن الكريم جعلت البحث عن مفهومه ضمن هذا المحور.

بدأت معالمه تتضح وأبوابه تظهر وفصوله تبرز ومسائله تشرح في العصر الحديث مِنْ قِبَل بعض الباحثين، إذ ظهرت عدد من المؤلفات التي تخصصت في بيان السنن الإلهية وفي غالبها رسائل علمية ماجستير أو دكتوراه[١] وبعضها بحوث في مجلات تابعة لبعض الكليات[٢].

ومن الضروري الإشارة إلى أن قلة من أهل العلم السابقين قد لمحوا إلى جزء من مفهوم السنن الإلهية ومن أولئك القلة شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: «السنة: العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله بالاعتبار فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أنَّ حكمه مثل حكمه»[٣].

وأما المعاصرون فقد تفاوتت تعريفاتهم واختلفت عباراتهم في توضيح مفهوم السنن الإلهية وهي كثيرة جدًّا ولهذا قسمها الدكتور حسين شرفه[٤] إلى ثلاثة أقسام وقد أحسن وأجاد وقد ذكرت هذه الأقسام مع نوع اختلاف في الترتيب وشيء من الاختصار، وذلك كما يلي:

القسم الأول: تعريفات خاصة بالسنن الاجتماعية: وهذه نالت الحظ الأوفر من الكُتَّاب والباحثين، وممن سار على هذا النهج، الدكتور عبد الكريم زيدان حيث

(١) من أمثلة رسائل الدكتوراة: رسالة بعنوان «سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة»، للدكتور حسن شرفه، ورسالة أخرى بعنوان: «السنن الإلهية في الحياة الإنسانية» للدكتور شريف الشيخ صالح احمد وتقع في مجلدين وأما رسائل الماجستير فمن أمثلتها: سنة التدافع وحقيقة العلاقة بين الحق والباطل للباحث خالد بن موسى الحسني الزهراني.

(٢) ومن الأمثلة على ذلك بحث بعنوان مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن للدكتور صديق عبد العظيم أبو الحسن – نشر في مجلة الشريعة للدارسات الإسلامية – جامعة الكويت، العدد (٣١-١٩٧٧).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – مكتبة المعارف- الرباط، (١٣/ ٢٠).

(٤) سنن الله في إحياء الأمم (ص٥٣-٥٥).

قال: «سنة الله هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى البشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[١].

وقريب منه قول الدكتور صديق عبد العظيم: «سنن الله الاجتماعية: هي وقائع الله التي جرت عادته بإنزالها بعباده على وفق أعمالهم الاختيارية التي استمرأوها ولم يتحولوا عنها، ثوابًا لمن وافق منهج الله أو عقابًا لمن كفروا وشاقوا الله ودعاته أو ابتلاء للمؤمنين أو استدراجًا وإملاء للطغاة[٢].

وإلى هذا المعنى أيضًا أشار الدكتور يوسف القرضاوي بقوله: «استعملت كلمة سنة للدلالة في الغالب على القوانين التي أقام الله عليها نظام الخلق عامة وهي عقاب الطغاة والمكذبين»[٣]، وعبارته أخصر من سابقيه.

والقسم الثاني: تعريفات خاصة بالسنن الإلهية الكونية: وممن سار على هذا المنهج سيد قطب حيث يقول: «السنن هي القوانين الكونية التي أودعها الله في هذا الكون ليسير على وفقها ويتحرك بموجبها ويعمل بمقتضاها»[٤].

وقريب منه تعريف الدكتور أحمد محمد كنعان حيث يقول: «السنن مجموعة من القوانين التي سنها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعًا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[٥].

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والإفراد في الشريعة الإسلامية / للدكتور / عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة –بيروت – ط٢ / ١٩٩٣ (ص١٣).

(٢) سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم– للدكتور صديق عبد العظيم ـ مجلة الشريعة للدراسات الإسلامية ـ الكويت ـ العدد (٣١) (ص٦٦).

(٣) مدخل لدراسة السنة النبوية ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة، القاهرة ـ ط٣ـ١٩٩٢ (ص٨).

(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشرق – القاهرة ـ ط ١١ـ سنة ١٩٨٢ (١/ ٢٧٢).

(٥) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق للدكتور أحمد محمد كنعان – إصدارات المحاكم الشرعية سلسلة كتاب الأمة العدد (٢٦) ـ دولة قطر ـ ١٤١١ (ص٥٢).

القسم الثالث: تعريفات دمجت بين السنن الاجتماعية والسنن الكونية:

وممن سار على هذا النهج عمر عبيد حسنة بقوله: «السنن هي القوانين المطردة الثابتة التي تحكم حركة الحياة والأحياء وتحكم حركة التاريخ وتتحكم بالدورات الحضارية»(١).

وأيضًا قول الدكتور شريف الشيخ الخطيب: «السنة الإلهية: منهج الله في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله»(٢).

وبعد أخي القارئ لعلك تقف محتارًا وتسأل: ما هو الصواب في تعريف السنن الإلهية من بين تلك التعريفات، أجيبك قائلًا: لاشك أن أقربها للصواب هو واحد من تلك التي جمعت بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية.

ولكن بقى لنا أن نبحث عما هو أدق عبارة وأوضح في المعنى وأبعد عن حشو الكلام وفي الحقيقة احترت بين تعريفين أحدهما سبق ذكره وهو تعريف لعمر عبيد حسنه والآخر تعريف للدكتور حسين شرفه وسأختم به هذا المحور، فوجدت أن في التعريف الأول شيئًا من الاختصار وهذا الاختصار أدى إلى إغفال معنى هامًا لا بد من وجوده في التعريف وهو أن السنن الإلهية إنما كانت وفق مقتضى حكمة الله وعدله، ولهذا أقول التعريف الذي اختاره هو ما قاله الدكتور حسين شرفه ونصه:

---

(١) مراجعات في الفكر والدعوة ـ لعمر عبيد حسنة ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ الجزائر (ص١١).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية ـ رسالة دكتوراه ـ للدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤ (١/ ٢٧).

السنن الإلهية: «مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطردة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات سلبًا وإيجابًا بالنتائج بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله»[1].

ولعلك تلاحظ أخي القارئ أن هذا التعريف مأخوذ في معظمه من تعريف عمر عبيد حسنه أثاب الله الرجلين على ما قدما. والله أعلم.

(١) سنن الله في إحياء الأمم ـ للدكتور حسين شرفه (ص٥٧).

المحور الثالث

علاقة السنن الإلهية بالتكاليف الشرعية وإعمار الكون

لعل الناظر لهذا العنوان يظن أن هناك فرقًا بين علاقة السنن الإلهية بالتكاليف الشرعية وعلاقتها بإعمار الكون وفي الحقيقة ليس الأمر كذلك لأن مَنْ فَقِه السنن الإلهية وعلم أنه مكلف شرعًا بمعرفتها وتطبيقها وصل إلى نتيجة حتمية وهي أنه لا بد من إعمار الكون والقيام بمهمة الخلافة التي خلق من أجلها، ولهذا جاز لنا أن نجمع بين علاقة السنن الإلهية بالتكاليف الشرعية وعلاقتها بإعمار الكون في محور واحد، وإليك الآن بيان هاتين العلاقتين كل على حدة:

أولًا: علاقة السنن الإلهية بالتكاليف الشرعية:

لقد أوضح العلماء أن حكم معرفة السنن الإلهية هو الوجوب شرعًا واستدلوا لذلك بأدلة من القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

أما من القرآن فقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

قال الألوسي في تفسيرها: «والمراد من قوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يتعلق بأمور الدين أي بيانًا بليغا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم»[(١)].

ومعلوم لدى كل مسلم أن الآيات التي جاءت في بيان أحوال الأمم مع أنبيائهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إنما بينت سنة الله في إهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين المصدقين، وقد قال الدكتور عبد الكريم زيدان معلقًا على كلام الألوسي: «فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ للإمام شهاب الدين محمود الألوسي دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ ـ (١٤/ ٢١٤).

من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين وأن هذه المعرفة ضرورية من الواجبات الدينية التي تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة»[١].

وأشار إلى هذا المعنى أيضًا الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «إن روح القصص القرآني هو في احتوائه على جملة من سنن الله الكونية في قيام الأمم وفنائها وتعلم هذه القوانين الاجتماعية الخالدة يشبه دراسة علوم الكون المختلفة ومعرفة الضوابط التي تحكم علاقة المادة بعضها البعض»[٢].

وقد صرح الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن هذا العلم دراسته واجبة وجوبًا كفائيًّا على الأمة بقوله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقة سننًا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن عِلْمًا من العلوم لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيِّنون لها سنن الله في خلقة، كما فعلوا في غيرها من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن»[٣].

وهذا الكلام من هذا الإمام يحمِّل الأمة الإسلامية اليوم عناء البحث عن سنن الله في الكائنات وفي المجتمعات والا وقعت في الإثم والحرج، لأن الواجب الكفائي إن لم يقم به البعض أثم الجميع كما هو معلوم لدى كل مسلم.

ولئن كان الذين نقلت أقوالهم في بيان وجوب معرفة السنن الإلهية كلهم من المعاصرين؛ فلقد أشار حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى هذا العلم وأنه من أشرف ما يتعلمه الإنسان ويتقرب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا حيث يقول: «وأما القسم المحمود -من العلوم- إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسننه

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد - للدكتور عبد الكريم زيدان (ص١٦-١٧).
(٢) نظرات في القرآن ـ للشيخ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ط ٥ (ص١٦٦).
(٣) تفسير المنار (٤/ ١١٤).

في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة وبذل المقدور فيه إلى أقصى جهد»[١]، وواضح من قوله: «وسننه في خلقه»، أنه يريد بذلك السنن الإلهية التي نتحدث عنها، وهو بذلك يكون قد جعل معرفة هذا العلم من صميم الإيمان بالله والازدياد في معرفته جَلَّوَعَلَا.

وأما ما يدل على أهمية معرفة السنن الإلهية من السنة النبوية الشريفة فهناك آثار كثيرة ولكنني سأكتفي بحديث واحد وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن خباب ابن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا الله لنا؟

قال: «**كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[٢].

ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرشدنا إلى العمل بسنة من سنن الله ألا وهي سنته في الابتلاء والتمكين أي لا تمكين دون ابتلاء ولو جاء التمكين قبل الابتلاء لما عُرِفَ قدرُه ولا حافظ عليه أهله.

ونخلص من هذا الكلام إلى أن السنن الإلهية علاقتها وطيدة بالأحكام التكليفية إذ هي ـ بناءً على ما سبق – واجب شرعي على سبيل الكفاية في تحصيل العلم وواجب عيني على كل فرد من الأمة عند التطبيق العملي والله أعلم.

---

(١) إحياء علوم الدين ـ لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المكتبة التجارية – مكة المكرمة ـ الطبعة الثانية ـ ١٤١٣ (١/ ٥٤).

(٢) صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – بيت الأفكار الدولية ط١ (٢٠٠٨) كتاب المناقب حديث رقم (٣٦١٢).

ثانيًا: علاقة السنن الإلهية بإعمار الكون:

إن علاقة السنن الإلهية بإعمار الكون في نظري أشد وضوحًا من علاقتها بالتكاليف الشرعية، وذلك لأن إعمار الكون يعتبر هو الجانب العملي للأخذ بالسنن الإلهية وهذا الأخذ يستوي فيه المسلم والكافر؛ لأن الله تعالى إنما خلق الكون من أجل الإنسان، بغض النظر عن إسلامه أو كفره، ويدل على ذلك دلالة واضحة آيات في كتاب الله تحدثت عن السير في الأرض والنظر في المخلوقات بقصد الكشف عن حقائقها وكيفية الإفادة منها وتسخيرها لصالح الإنسان، وهذا هو عين ما يرمى بالإنسان إلى اكتشاف سنن الله في مخلوقاته عامة وفي الإنسان خاصة.

وقد قسم الدكتور أحمد محمد كنعان الآيات القرآنية الدالة على ذلك إلى ثلاثة أقسام(١):

الأول: آيات تلفت الانتباه إلى الحكمة من خلق الإنسان: كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وغيرهما من الآيات.

الثاني: آيات تبين تسخير الكون للإنسان: وهي كثيرة جدًّا، ومن الأمثلة عليها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

الثالث: آيات تدعو الإنسان إلى النظر والتفكير والبحث فيما حوله من الكائنات: وهذه أكثر من القسم السابق، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (ص٨٤) بتصرف وزيادات.

وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦].

ومما يدل على أن البحث في الكون لاكتشاف السنن الإلهية ليس قاصرًا على المسلم بل يعم جميع البشر كقولة تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠].

قال المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «فإن عطاءه -سبحانه- ليس بالممنوع من أحد مِنْ خلقه مؤمنًا كان أو كافراً فكلهم مخلوق في دار العمل، فوجب العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم - يعني البشر جميعًا - على القدر الذي يقتضيه صلاحهم»[1]، ومعنى قوله فوجب العذر أي إقامة الحجة عليهم بحيث لا يبقى لهم عذر، ورفع العلة أي الحجة التي من الممكن أن يحتجوا بها على عدم توحيدهم وطاعتهم لله تعالى. والله أعلم.

(١) تفسير المراغي (١٥/ ٢٨).

! +

دور القرآن في بناء الوعي بالسنن الإلهية

المبحث الأول: تقصير المسلمين في تدوين علم السنن الإلهية.

المبحث الثاني: دور القرآن في التوعية بالسنن الاجتماعية.

المبحث الثالث: دور القرآن في التوعية بالسنن الإلهية الكونية.

المبحث الأول

تقصير المسلمين في تدوين علم السنن الإلهية

من الضروري بمكان قبل بيان دور القرآن الكريم في بناء الوعي بالسنن الإلهية أن نشير إلى تقصير المسلمين في فهم هذا العلم وتدوينه وتنقيحه وبيان مسائله؛ كما حصل ذلك مع سائر العلوم الإسلامية التي نشأت منذ القرون الأولى للإسلام ولا تزال المؤلفات تكتب فيها إلى اليوم كالفقه وأصوله والحديث وأصوله وشروحه والتفسير وغيرها.

وقبل إثبات هذا التقصير الذي وقع فيه المسلمون لا بد من بيان أن التقصير إنما حصل بعد عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «ولا يمكن أن ننحِّي بالملائمة عليهم بأنهم لم ينقلوا إلينا هذا العلم ولم يدونوه، لأنهم لم يدونوا علما من العلوم - باستثناء جمعهم للقرآن - وقد شغلهم عن تدوين العلوم شواغل كانت أهم، يأتي في مقدمتها الجهاد في سبيل الله لتبليغ رسالة الإسلام»[(١)].

وسوف أنقل في هذا المجال عبارات بعض العلماء والباحثين الذين أثبتوا تقصير المسلمين في حق العلم بالسنن الإلهية.

يقول محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله في الأمم، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينهم ودنياهم»[(٢)].

قلت: أفادنا محمد رشيد رضاء بهذا الكلام فائدتان:

الأولى: أن التقصير في البحث في علم السنن الإلهية حصل من جميع المؤلفين المتقدمين والمتأخرين.

---

(١) سنن الله في إحياء الأمم ـ للدكتور حسين شرفه (ص٦٠).

(٢) تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا (٧/ ٤٩٩) باختصار.

الثانية: وهي الأهم أن علم السنن الإلهية يستفاد منه في الدين والدنيا جميعا وليس قاصرًا على الفائدة الدينية.

وقد أكد عمر عبيد حسنة ما أشار إليه محمد رشيد رضا وزادة وضوحًا بقوله: «معظم العلماء والمفكرين المسلمين صرفوا جهودهم كلها في استنباط الحكم التشريعي من الآيات دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة الأخرى التي جاءت بعض الآيات من أجلها، كالآيات التي بينت السنن والقوانين والشروط التي قد تكون أكثر أهمية وأولى بالنظر من حيث البناء الحضاري وشروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني فلم يعيروها أدني اهتمام أو الاهتمام الكافي على الأقل»[١].

ويقول في كتاب آخر له: «قد يكون المطلوب اليوم في أكثر من أي وقت مضى في مجال الدراسات الإنسانية، التي بلغت عند غيرنا شأوًا بعيدًا، أن نتوجه صوب فقه القصص القرآني لنكشف فقهًا حضاريًا في إطار القوانين الاجتماعية التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نحسد عليها»[٢].

ويشير عويس إلى هذا التقصير بعد أن ذكر العلوم التي اهتم بها العلماء على مر العصور «ولم يلتفتوا إلى علم الحضارة في القرآن بل إن اهتمامهم بقصص القرآن جاء عرضًا، وعندما اهتموا بها تناولوها بالطريقة التاريخية السردية دون محاولة استخلاص ما وراءها من قوانين وسنن كونية واجتماعية»[٣].

ويشير الدكتور شرفه إلى نتيجة إهمال هذا العلم بقوله: «لقد كان من النتائج الحتمية لإهمال التأمل في آيات السنن الإلهية في القرآن الكريم وتطبيقها في الواقع تلك النكبات

(١) كيف نتعامل مع القرآن ـ للشيخ محمد الغزالي مدارسة أجراها معه عمر عبيد حسنة (ص٦٣) نقلًا عن: سنن الله في إحياء الأمم (ص٣٦)، باختصار.

(٢) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة ـ عمر عبيد حسنة (ص٢١) باختصار.

(٣) تفسير التاريخ علم إسلامي ـ للدكتور عبد الحليم عويس ـ دار الصحوة ـ القاهرة (ص١٠٤) باختصار.

التي أصابت المسلمين عبر قرون من الزمن فقذفت بهم إلى ذيل الركب الحضاري بعد أن كانوا رواده وقواده»[١].

ولو ذهبنا نستقصي النقولات عمن أشاروا إلى هذا العلم الهام الذي قصر المسلمون في حقه لطال بنا المقام وعليه نستطيع القول بأن العلماء والباحثين المعاصرين قد أجمعوا[٢] على هذا القصور الواضح والذي لا يزال في نظري مستمرًا، وإن كانت هناك بعض الجهود المبذولة[٣] ممن انتبه إلى ضرورة معرفة هذا العلم ـ السنن الإلهية ـ ونشره في الأمة ودفعها للأخذ به والعمل على تطبيقه وتكاتف الجهود للوصول إلى هذه الغاية، ولعل القائمين على مسابقة الشيخ على بن عبد الله آل ثان فطنوا إلى هذا الأمر فاختاروا هذا العنوان للبحث في «فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري» فجزاهم الله خيرًا على حسن الاختيار وجعل عملهم متقبلًا.

وأختم هذا المطلب بما قال الدكتور شرفه: «ومهما يكن فإن علم السنن أخذ طريقه في الانتشار في أوساط المثقفين من هذا الجيل، خاصة أنه أضحى علم العصر، يرفع أقواما ويخفض آخرين، ومن أخذ به تمكن ومن أعرض عن تنكب الطريق»[٤].

(١) سنن الله في إحياء الأمم ـ للدكتور حسين شرفه (ص٦٣).

(٢) سنن الله في إحياء الأمم (ص٦)، والسنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد محمد عاشور ـ رسالة دكتوراة ـ دار السلام، القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٦ (ص١١٥، ١١٦)، وفقه التاريخ ـ للدكتور عبد الحليم عويس ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ (ص١١) وغيرها.

(٣) ومن الجهود المبذولة في هذا الجانب جميع المراجع التي رجعت اليها في هذا البحث مما يتعلق بعلم السنن الإلهية وقد مضى بعضها، لكن أود أن اثبت هنا أن من أوائل من بذل جهودًا مشكورة وصاح في الناس للرجوع إلى هذا العلم هو المفكر مالك بن بني في كثير من كتبه كالظاهر ة القرآنية، وشروط النهضة ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي والمسألة الحضارية.

(٤) سنن الله في إحياء الأمم (ص٦٤).

المبحث الثاني

دور القرآن في التوعية بالسنن الاجتماعية

قبل أن نقف على بعض آي القرآن التي كان لها الدور الأساس في تبصير المسلمين بسنن الله الاجتماعية من خلال ما قصه من قصص عبر التاريخ، يجدر بنا أن نبين نقطة أساسية كمقدمة لهذا الموضوع ألا وهي «أنَّ الوظيفة التي يحُمِّلها القرآن للإنسان إنما هي عمارة الأرض بمعناها الشامل العام وهي تشمل فيما تشمل: إقامة مجتمع إنساني سليم، وإنشاء حضارة إنسانية شاملة ليكون الإنسان بذلك مظهرا لعدالة الله وحكمه في الأرض لا بالقسر والإجبار بل بالتعليم والاختيار»[(١)].

ومن الآيات الدالة على هذه المهمة للإنسان في الأرض قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] أي خلقكم لعمارتها[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]، وهذه فيها بيان استبدال مَنْ لا يصلح بمَنْ يصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، يقول القرضاوي: «والصالحون هنا ليسوا هم الدراويش أو البله بل هم الصالحون للقيام بعمارة الأرض وخلافة الله فيها بالعلم النافع والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٣)]، وتلك هي إحدى المهام والوظائف التي خلق الله الإنسان من أجلها[(٤)].

---

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ « دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ ٢٠٠٣ (ص٢٤-٢٥) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٥٦).

(٣) الإسلام حضارة الغد ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ط١ ـ ١٩٩٥ (ص١٢٥).

(٤) والأهداف التي خلق الله الإنسان من أجلها حصرها الأصفهاني في ثلاث هي: =

وأما الآيات التي من خلالها ندرك توعية القرآن لأهل الإسلام خاصة وللبشرية عامة بالسنن الإلهية في المجتمعات فهي عديدة ولكن نكتفي بالوقوف مع ثلاثة منها وهي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧-١٣٨].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيرها: «أي أنَّ أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك وغير ذلك؛ قد جرى على طُرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام، وليس الأمر أنفًا كما يزعم القدرية[(١)]، ولا استبدادًا كما توهم الحشوية[(٢)]»[(٣)]، ثم قال بعد قليل: «هذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجى إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده

= ١- عبادة الله تعالى وحده.
٢- خلافة الله في الأرض.
٣- عمارة الأرض.
الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ للأصفهاني ـ تحقيق أبي يزيد العجمي ـ دار الصحوة ـ القاهرة ط٢ ـ ١٩٨٥ (ص٩٠-٩١) باختصار.

(١) **القدرية:** هي إحدى الفرق الكلامية المنتسبة إلى الإسلام ذات المفاهيم والآراء الاعتقادية الخاطئة في مفهوم القدر، إذا قالوا بإسناد أفعال العباد إلى قدرتهم وأنه ليس لله دخل في ذلك ولا قدرة ولا مشيئة ولا قضاء، كما أنكروا علم الله السابق، وقد وجد طائفة منهم تثبت العلم والكتابة وتنكر للمشيئة. المجموعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - تأليف مجموعة من الباحثين دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي بإشراف د مانع الجهني. مطبعة دار الندوة العالمية للطباعة والنشر الطبعة الرابعة - ١٤٢٠(٢/ ١١١٤).

(٢) **الحشوية:** اختلف في الحشوية فقيل ـ باسكان الشين ـ الجسم والجسم محشو، فأطُلق على المجسمة، وقيل بفتحها من الحشا لأنهم كانوا يجلسون إلى الحسن البصري فوجد كلامهم رديئًا فقال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة جانب؛ والجانب يسمى حشا ومن الأحشاء لجوانب البطن. شرح منهاج الأصول الإسنوي (١/ ٣٠٩).

(٣) تفسير المنار (٤١/ ١١٥).

الاجتماعي فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان إذا كان الملِّيون ـ أي أصحاب الملل ـ من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته المطلق في سلطته، هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة من غير تفكير في حكمته البالغة وتطبيقها على سننه العادلة»[١].

ومما يؤكد هذا المعنى ما يقوله عفت الشرقاوي: «إن العرب الذين خاطبهم القرآن أول مرة لم يكن لديهم أدنى تصور عن التاريخ أو تفسيره وجملة ما يمكن أن يكون مادة للتاريخ لديهم كالأيام والأنساب لا تدل على وعي واضح بفكرة التاريخ، فالأيام عندهم روايات أدبية وليست تاريخًا»[٢].

بل والناظر في التاريخ يستطيع أن يرى بكل وضوح أن معظم رواياتهم تحتاج إلى بحث للتأكد من صحتها ولعلها أن يكتنفها آراء ناقليها أو عقائدهم أو مصالحهم الشخصية، ويؤكد عفت الشرقاوي هذا المعني بقوله[٣]: «ناهيك عن الأغلاط والأوهام التي تكتنف الروايات التي تسرد سلاسل النسب مما يجعلها مجالًا للشك لدى كثير من المؤرخين».

ويعطينا الأستاذ محمد قطب بعدًا آخر في فهم هذه الآية التي نحن بصددها حيث يقول: «فعاقبة المكذبين المشار إليها في الآية واحدة من تلك السنن الربانية التي يجري بها الله الحياة البشرية، والتي يطلب من الناس أن يتدبروها لكي لا يقعوا فيها، ولكي يستفيدوا من عبرة التاريخ، ثم يقول والإسلام يجعل دراسة التاريخ والاعتبار بالسنن الربانية في الحياة البشرية فارقًا بين أولي الوعي والبصيرة والغافلين الذين لهم أعين لا

(١) المرجع السابق (٤/ ١١٦).

(٢) في فلسفة الحضارة الإسلامية ـ لعفت الشرقاوي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨١ (ص٦٨) بتصرف.

(٣) المرجع السابق (ص٧٧).

يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها وقلوب لا يفقهون بها»[١]، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

الآية الثانية: حول توعية الأمة بسنن الله الاجتماعية في إهلاك أكابر أهل الإجرام قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

يقول محمد رشيد رضا: «وكما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية من قرى الأمم أكابر مجرميها ليمكروا فيها فليس هؤلاء الأكابر ببدع من المجرمين بل ذلك شأن الأكابر المترفين المتكبرين في كل أمة»[٢].

ثم قال بعد قليل: «ونقول في العبرة من الآية بما يناسب حال للعصر: إن سنة الله في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة بُعثَ فيها رسول أو مصلح رؤساء وزعماء مجرمون يمكرون فيها بالرسل في عهدهم وبسائر المصلحين من بعدهم»[٣].

ويطرح الدكتور عبد الكريم زيدان سؤالًا: لماذا يمكر المجرمون بالناس ويصرفونهم عن الحق ويدفعونهم إلى الباطل ويوقعونهم في الضلال والفساد؟ لماذا لا يكتفي هؤلاء برياسة المجتمع ويتركون الناس وشأنهم؟

ثم يجيب بقوله: «إن المجرمين يخافون من ظهور الحق في المجتمع وتجمع الناس حوله فينكشف بهذا الظهور بإجرامهم وباطلهم، مما يفقدهم رياستهم ومراكزهم ولهذا

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ - للأستاذ محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط١ -٢٠٠٦ (ص٦٧) بتصرف.

(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٨).

(٣) المرجع السابق: نفس المكان.

كان لابد لهم من معاداة المؤمنين الدعاة إلى الحق في كل زمان ومكان فهي سنة ماضية وثابتة»[١].

الآية الثالثة: في توعية الأمة بسنن الله الاجتماعية في إهلاك الظلمة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨].

يقول الأستاذ محمد قطب: «فالدمار نهاية حتمية مؤكدة بالنسبة للحائدين عن منهج الله، إنما تختلف سرعة التدمير بقدر من الله، وهذا القدر ذاته يجري من خلال سنن أخرى عاملة في الحياة البشرية، فالواقع أن السنن الربانية لا تعمل فرادى، وإنما تعمل مجتمعة وتكون النتيجة الواقعية هي حصيلة السنن العاملة كلها في آن واحد؛ أو بالأحرى حصيلة تعامل الانسة مع مجموعة السنن التي تعرض لها أثناء حركته في الأرض، فليست السنة الوحيدة العاملة في هذا الأمر هي التدمير النهائي؛ إنما هذه واحدة من السنن، وحين تتفق معها السنن الأخرى فهي تحدد بقدر من الله إن كان الدمار سريعًا أو بطئ الوقوع»[٢].

ونقول في كلمة جامعة في المفهوم الذي نخرج به من آيتي الأنعام والحج: إذا كانت آية الأنعام بينت أن أكابر المجرمين يكونون سببًا في وقوع الهلاك والدمار فإن آية الحج أوضحت أن كل ظلم يقع سواءُ أكان من الأكابر أو من الشعوب فإنه يكون سببًا في وقوع الهلاك بالبلد بكامله.

وأختم هذا المبحث بالإشارة إلى أمرين هامين:

الأول: أن القرآن لم يكتف فقط بتوضيح سنن الله في البشر ومجتمعاتهم سلبًا وإيجابا بل وبَّخَ الذين لا يستفيدون من تلك السنن، ولا يحاولون السير وفقها وعدم الوقوف

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد (ص٢٤٠) بتصرف يسير.
(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ (ص٧١-٧٢) باختصار.

ضدها لئلا يصابوا بما أصاب سابقيهم؛ وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

الثاني: إنه لقد تبين لنا من خلال هذه الآيات وما قاله أهل العلم في تفسيرها الدور البارز الذي قام به القرآن في بيان حركة التاريخ، ونتائج الأفعال التي يقوم بها البشر؛ سواء أكانت تلك الردود عامة أو خاصة؛ وسواء أكانت نعيمًا أو عذابًا في الدنيا أو في الآخرة، وهذا ما لم تنتبه إليه جميع الأمم التي كان لها نوع اهتمام بالتاريخ وتدوين الأحداث أعني غياب عن النتائج، والتأمل في تطور المجتمعات أو اضمحلالها والله أعلم.

المبحث الثالث

دور القرآن في التوعية بالسنن الإلهية في الكون

والمراد بهذا المبحث هو بيان الدور الذي قام به القرآن في لفت انتباه البشر إلى ما بثه الله في مخلوقاته، وإلى النظام الذي تسير عليه دون أن يتأخر أو يتخلف أو يتذبذب؛ بل ويلفت الانتباه إلى كثرة تلك المخلوقات ودلالتها على وجود مبدعها وحكمته في صنعها والقيام عليها، وهذه السنن الإلهية قد دلت عليها آيات كثيرة ولكن لضيق المقام نكتفي بالتأمل في آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١].

يقول السيد محمد رشد رضا: «قل يأيها الرسول لقومك الذين تحرص على هداهم «انظروا» بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا في السموات والأرض من آيات الله البينات، والنظام الدقيق والعجيب في شمسها وقمرها، وكواكبها ونجومها، وبروجها ومنازلها، وليلها ونهارها، وسحابها ومطرها، وهوائها ومائها، وبحارها وأنهارها، وأشجارها وثمارها، وأنواع الحيوانات البرية والبحرية، ففي كل هذه الأشياء التي تبصرون آيات تدل على علم خالقها وقدرته ومشيئته وحكمته؛ ووحدة النظام في جملتها،وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته وعلى ربوبيته وألوهيته ثم ماذا؟ انظروا في أنفسكم كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون[1].

ويقول الشيخ الشعراوي: «وهنا يحدثنا الحق سبحانه عن عالم الملك الذي تراه ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغيب عنك؛ وحين نتأمل في الأرض نجد جبالًا

(١) تفسير المنار (١١/ ٣٩٦) بتصرف يسير.

شامخة تدهش الناظر إليها من دقة التكوين، ودقة التماسك وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة، وأيضًا إنك لو شققت الأرض أو قطاع من محيط الأرض تجد أرضًا خصبة في الصحراء ومع المياه ومع الجبال متساوية فكل قطاع مقابل للقطاع الآخر، وهكذا قسمة دقيقة متساوية، وما دام الحق قد قال «يعقلون»، في مجال النظر في السموات والأرض؛ فهذه دعوة للتأمل في عجائب السموات والأرض»[(١)]، ثم سرد بعض العجائب في خلق الجبال ونزول الأمطار مما لا مجال لذكره في هذا المقام.

يقول الأستاذ محمد قطب[(٢)]: «والذين يكفرون بالله ورسله لا يصدقون أن لله سننًا لا تتبدل، ولا يصدقون أن الله سيعاقبهم على مخالفة أوامره، لأنهم يحسبون أنهم ما داموا لا يؤمنون بالله فهو غير موجود حقيقة أو غير قادر على الوصول إليهم، وصدق العظيم إذ يقول: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١]: «والإسلام يجعل النظر في آيات الله في الكون آياته نذره في الحياة البشرية فارقا بين المؤمنين وغير المؤمنين بدلًا من هذه الآية»[(٣)].

الآية الثانية: في توعية القرآن بسنة الله في تقدير المخلوقات: وهي قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ [الفرقان:٢]. وفي هذه الآية بيان لأمرين هامين:

أحدهما: أن الله تعالى هو خالق كل شيء، وهذا لا يحتاج إلى بيان فقد دلت عليه آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [غافر:٦٢] وغيرها كثيرًا.

---

(١) تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ دار أخبار اليوم ـ القاهرة ـ (١٠/ ٦٢٣٢-٦٢٣٦) بتصرف واختصار.

(٢) حول التفسير الإسلامي للتاريخ (ص١٨٥).

(٣) المرجع السابق (ص٦٧)، بتصرف يسير.

ثانيهما: أنه تعالى قدر كلَّ شيء خلقه تقديرا؛ وتلك سنته في خلقه والمراد بالتقدير هنا أنه تعالى: «أوجد كل شيء بحسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكمة البالغة وهي إعداد كل مخلوق لما أريد به وإعطائه من الخصائص والأفعال التي تليق به، فأَعَدَّ الإنسان – مثلًا – للإدراك والفهم والتدبر في أمور المعاش والمعاد واستنباط الصناعات المختلفة والانتفاع بما في ظاهر الأرض وباطنها، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبإدراكها»(١).

ومن الآيات التي في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، قال المراغي: «كل كائن في هذه الحياة فهو بتقديره وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل وبحسب السنن التي وضعها الله في خلقه»(٢).

وانطلاقًا من الكلمة الأخيرة التي قالها المراغي: «السنن التي وضعها الله في خلقه» أقول: ومن أمثلة هذه السنن سنته تعالى في الأرض والشمس والقمر، فلكل مخلوق من هذه المخلوقات سنة خاصة، قدرت له فيسير عليها بدقة وانتظام لا يتجاوزها ولا يند عنها، ثم إنَّ بين هذه السنن كما سيظهر ترابطًا وتناسقًا، وبذلك تكون الأرض صالحة لحياة المخلوقات التي قدرها الله عَزَّوَجَلَّ، فالأرض لها سرعة ثابتة حول نفسها وحول الشمس، فهي تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، أي بما يعادل مرة كل أربعة وعشرين ساعة؛ لينتج عن دورانها الليل والنهار، وهبوب الرياح التي تنظم حرارة الأرض، وتسوق السحب المحملة بالمطر، وتدور الأرض حول الشمس بسرعة ألف ميل عن محورها بمقدار ٢٣ درجة وهذا يؤدي إلى نشوء الفصول الأربعة.

---

(١) تفسير المراغي (١٨/ ١٤٨).

(٢) تفسير المراغي (٢٧/ ١٠١).

وتبعد الأرض عن الشمس اثنين وتسعين ونصف مليون ميل، وتبعد عن القمر مائتين وأربعين ألف ميل، وللأرض غلاف جوي له سمك معين يصل إلى أكثر من ٥٠٠ ميل وهو يتكون من نسب معينة من الغازات.

وللأرض حجم معين فيقدَّر طول الأرض المار بالقطبين سبعة آلاف وتسعمائة ميل، ومحيط الأرض عند القطبين ٤٤٢٢٠ ميلًا ومحيطها حول خط الاستواء ٢٤٩٠٠ ميل ثم إن للشمس سننًا تسير عليها؛ فهي تدور حول نفسها بسرعة ستمائة ألف ميل في الساعة، وقطرها يزيد على مليون وثلث مليون كيلو متر، ومحيطها ضعف محيط الأرض ٣٢٥ مرة، وتبلغ حرارتها الداخلية نحوًا من ٢٠ مليون درجة مئوية، بينما حرارة سطحها ستمائة ألف درجة مئوية، وكذلك للقمر سننًا وقوانين.

كل هذه السنن وأمثالها هي التي تجعل الأرض صالحة للحياة ولو توقفت سنة أو انحرفت عما هي عليه لانتهت الحياة فوقها[1].

وهذا مما يطول شرحه؛ ولكن فيما سبق ذكره كفاية لتوضيح المراد وهو أن لله سننًا في مخلوقاته غاية في الدقة والنظام والتوقيت والثبات.

وقد وردت آيات عديدة توضح تلك السنة الإلهية والتي مَنْ تأملها آمن بالله وحده؛ وعلم أنه هو المدبر لهذا الكون الذي لا يتخلف فيه كائن من مكوناته عن وظيفته؛ ولولا الخالق جَلَّوَعَلَا وبتسييره له لما ثبت على ذلك النظام آلاف السنين، ونحن نوضح هذا بالإشارة إلى قوله تعالى حول كل ما سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٧٩-٨١).

وقد أفاض صاحب المنار في توضيح هذه الآيات: السموات، والأرض ـ الرياح، السحاب، المياه، ولكن سأنقل هنا ما قاله حول ختام الآية الكريمة: «ولذلك أخبر الله تعالى عنه هذه الأجناس كلها أن فيها ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنهم هم الذين ينظرون في أسبابها ويدركون حكمها، وأسرارها ويميزون بين منافعها ومضارها ويستدلون بما فيها من الإتقان والإحكام، والسنن التي قام بها النظام على قدرة مبدعها وحكمته، وفضله، ورحمته، وعلى إستحقاقه للعبادة وحده دون غيره من بريته، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يكمل التوحيد في الإيمان؛ وإنما يشرك بالله أقل الناس عقلًا وأكثرهم جهلًا»[1].

(١) تفسير المنار (٢/ ٥٢).

@ +

بيان بعض المفاهيم
التي غابت أو انحرفت في حياة الأمة
بسبب غياب الوعي بالسنن الإلهية

المبحث الأول: مفهوم حرية الرأي والتعبير عنه وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الثاني: مفهوم حرية العقيدة وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الثالث: مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الرابع: بين التدين الحقيقي والتدين المغشوش وعلاقته بالسنن الإلهية.

المبحث الأول

مفهوم حرية الرأي والتعبير عنه وعلاقته بالسنن الإلهية

لقد شُغِلَ كثير من الناس في وقتنا الحاضر بالحديث عن حرية التعبير عن الرأي وأصبح ذلك جزء من حياتهم بل من ضروريات الحياة عندهم؛ ووصموا من يقف ضد حرية التعبير عن الرأي بالرجعية وسلب الناس أعز ما يجب أن يتاح لهم، ولهذا كان لا بد من البحث، من منظور إسلامي، في أحقية كل فرد في حرية التعبير، وهل لهذا من ضوابط وقيود، أم أن الباب مفتوح على مصراعيه، وما هي المجالات التي يتاح للإنسان فيها أن يعبَّر عن رأيه دون خوف من أحد سوى الله تعالى، وقبل ذلك كله سنعرض إلى مفهوم الحرية في حد ذاتها، فتكوَّن لدينا في هذا المبحث أربعة محاور على النحو الآتي:

المحور الأول: مفهوم الحرية في اللغة ولدى بعض المفكرين المعاصرين:

(أ) **الحرية في اللغة العربية**: بالرجوع إلى أصل الكلمة نجدها تدل على معانٍ فاضلة ترجع إلى الخلوص والخيار من كل شيء والفعل الحسن واستقلال الإرادة ومنها تحرير الرأي أي تخليصه من الشوائب، تلك هي معان مادة «ح ر ر»، بحسب تعريفاته اللغوية[1].

(ب) الحرية عند بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين: لم أشأ أن أقول الحرية في مصطلح الشرع، لأن هذه الكلمة لم تكن موجودة إبَّان تدوين العلوم الشرعية بالمفهوم الذي هو عليه الآن، لأنها أخذت -في عصرنا- معنى أوسع مما كانت عليه في التاريخ إذ كانت الحرية تعني ضد العبودية كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ ﴾ [البقرة:١٧٨]، فالحرية لم تتجاوز هذا المعنى عبر التاريخ.

(١) ترتيب القاموس المحيط ـ للطاهر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٧٩ (٣/ ٦١٦)، والحرية في الإسلام ـ للشيخ محمد الخضر حسين ـ المطبعة التونسية ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٠٩ (ص١٠)، ملخصًا.

وأما في عصرنا الحاضر بعد اختفاء الرق من الأرض فقد اختلفت آراء الباحثين، في مفهوم الحرية، ويمكننا الاقتصار على ذكر نموذجين من الآراء أحدهما للمفكرين الإسلاميين والآخر للمفكرين الغربيين[١].

النموذج الأول: مفهوم الحرية عند بعض المفكرين الإسلاميين:

عرفها الدكتور محمد الخرعان بقوله: «رفع سيادة الإنسان عن الإنسان أو رفع سلطان البشر عن البشر». ثم يقول: «أما فيما عدا ذلك فالإنسان عبد لله عَزَّوَجَلَّ باعتباره خَلْقًا مِن خَلقْه، إذ الخَلْق كلهم عبيد لله في أصل الخلق والنشأة»[٢].

ويمكن أن يستشهد لهذا التعريف بمقولة عمر بن الخطاب الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

وعرفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنها: «ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، ويتمكن بها من ممارسة أفعاله وأقواله وتصرفاته بإرادته واختياره من غير قسر ولا إكراه، ولكن ضمن حدود معينة»[٣] أي حدود الخالق جَلَّوَعَلَا.

وعرفها الدكتور محمود عكام بأنها: «القدرة على الاختيار بين الممكنات بما يحقق للإنسان إنسانيته»[٤].

وعرفها سيد قطب بقوله: «ما يتحرر حقًّا إلا من يخلص لله كله ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة فلا تكون عبوديته إلا لله وحده، فهذا هو التحرر إذن، وما عداه عبودية، وإن تراءت في صورة الحرية.

---

(١) لقد ذكر آراء الغربيين بإسهاب في بحث مطول الدكتور / محمد بن عبد الله بن إبراهيم الخرعان وعنوان بحثه «حرية التعبير بين المفهوم الشرعي والمفاهيم المعاصرة»، منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت ـ العدد ٤٨ (ص٢٨٧-٣٢٤).

(٢) حرية التعبير بين المفهوم الشرعي والمفاهيم المعاصرة ـ للدكتور محمد الخرعان (ص٣٠٩).

(٣) حق الحرية في العالم ـ للدكتور وهبة الزحيلي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢١هـ (ص٣٥) بتصرف.

(٤) الموسوعة الإسلامية المسيرة ـ لمجموعة من الباحثين ـ دار صحارى ـ حلب ـ ١٩٩٧ (٤/ ٨٦٩).

تلك إذن هي الحرية في نظر المفكرين الإسلاميين ولعل في التعريف الأخير لسيد قطب ما يجعنا نقول الحرية الحقة هي ما نطق بها القرآن في سورة آل عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥]، وهذا الذي أشار إليه سيد قطب جاء ضمن تفسير هذه الآية، فالقرآن هو الذي أعطي الناس الحرية ولكن من ماذا وكيف يكون حرًّا، هذا ما سيتضح بعد قليل.

النموذج الثاني مفهوم الحرية عند بعض المفكرين الغربيين:

إن مما يواجه الباحث في هذا الموضوع بالذات وهو مفهوم الحرية في الفكر الغربي أنه يجد وجهات النظر الغربية لم تستقر على أرضية ثابتة في تحديد مفهوم واضح ودقيق للحرية... «لقد فاقت تعريفات الفلاسفة الغربيين لمصطلح الحرية المائتين تعريفًا»[١].

ومن أشهر التعريفات عندهم ما جاء في إعلان حقوق الإنسان الفرنسي الصادر سنة ١٨٧٩ حيث يقول: «الحرية: قدرة الإنسان على إتيان كل عمل لا يضر بالآخرين»[٢].

وعرفها لوك بأنها: «الحق في فعل أيَّ شيء تسمح به القوانين»[٣].

ونجد مفهوم الحرية عند بعض الغربيين ما هو مخالف لتعريف لوك حيث قال بعضهم: «إن يكون الإنسان قادرًا على فعل ما يريده لا مقيدًا ولا مسجونًا ولا مقيدًا بالقوانين»[٤]، كما تعني عند بعضهم أن يكون الإنسان «غير مرتبط بأحد، له حقوقه الشخصية والاجتماعية والسياسية»[٥].

---

(١) حرية التعبير بين المفهوم الشرعي والمفاهيم المعاصرة (ص٣١٧) باختصار.

(٢) حق الحرية في العالم د/ الزحيلي (ص٣٩).

(٣) المرجع السابق ـ نفس الموضع.

(٤) قضية الحرية وقضايا أخرى ـ للدكتور عبد الغني عبود ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٩ (ص٦٢).

(٥) المرجع السابق ـ نفس المكان.

وبالتأمل في هذه التعريفات نجد أن الأخذ بها وتطبيقها في الواقع يعني أن يكون الإنسان نفعيًّا -إن صح التعبير- لا يرى إلا نفسه ولا يلتفت إلى مصالح الآخرين، وهذا سيؤدي بدوره إلى فوضى عارمة في المجتمعات والدول لولا وجود قوانين رادعة وأعراف سائدة.

المحور الثاني: مفهوم حرية الرأي:

ونقصد بالرأي هنا الرأي الاصطلاحي العلمي دون غيره من المعاني اللغوية؛ إذ لا مجال لبحثها في هذا المقام، فالرأي هو النظر العقلي من أجل المعرفة أو ما يتوصل إليه العقل من اعتقاد بَعْدَ النظر»[(١)].

وهذا التعريف قريب جدًّا من أحد المعاني اللغوية لمادة رأي وهو القول القائل: الرأي هو الاعتقاد في الأمر بالظن الغالب كما في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣]، أي يظنونهم بحسب مقتضى مشاهدة العين مثليهم[(٢)].

والرأي لا يعتبر رأيًا بناءًا على المصطلح العلمي إلا إذا توافر فيه شرطان مهمان:

الشرط الأول: أن يكون هذا الرأي قد توصل إليه صاحبه بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات - أي أوجه الدلالات على الأشياء وحقائقها - فيكون صاحبه قد بحث عن أقربها دلالة إلى ما يريد.

الشرط الثاني: أن يكون الرأي في أمر تتعارض فيه وجهات النظر وتختلف في إدراكه العقول، فينظر إليه كل إنسان من زاوية تختلف عن الآخر.

وبناءًا عليه لا يقال للأمر الذي لا تختلف فيه العقول ولا تتعارض فيه الأمارات بناء على الشرط الأول أنه رأي وإن احتاج إلى فكر وتأمل كدقائق الحساب ونحوها[(٣)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ـ للراغب الأصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ مادة رأي.

(٢) لسان العرب ـ مادة رأى ومعجم مقاييس اللغة: باب الراء، والهمزة، وما يثلثهما.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ للعلامة ابن قيم الجوزية ـ تحقيق طه عبد الرازق سعد ـ دار الجبل ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٣ (١/ ٦٥) بتصرف يسير.

وأما حرية التعبير عن الرأي فهو مصطلح يراد به معنيان:

المعنى الأول: حرية الإنسان في طرق التفكير والنظر: وهذا يعني أن يستقل الإنسان نشاطه الفكري دون أن يفرض عليه أحد من الناس معطيات أو أدوات أو قناعات من شأنها أن تقيده أو تلزمه بسلوك طرائق معينة من شأنها أن توصله إلى نتيجة مبتغاة سلفًا سواء أكانت تلك النتيجة حقًا أو باطلًا.

المعنى الثاني: حرية الإنسان في الإعلان عن رأيه: والمقصود هنا الرأي الذي توصل إليه واقتنع به سواء أكان بالبحث والنظر أو قلَّد فيه غيره؛ فله أن يعبر عنه ويعلنه أمام الآخرين دون خوف من أحد، لأن حرية التعبير عن الرأي هي الثمرة الطبيعية لحرية التفكير والنظر[١].

«وحرية الرأي بهذا المفهوم الشامل مبدأ إسلامي أصيل حيث يستطيع الإنسان أن يفكر كما يشاء ويقول ما يشاء ويكتب ما يشاء في حدود المساحة الواسعة التي منحها الإسلام لأهله ـ كما سيأتي وهي مساحة كبيرة لم توازها أية تجربة أخرى رغم ما يضعه الإسلام من ضوابط ومعايير والتزامات إزاء حرية الرأي»[٢].

المحور الثالث: بعض مظاهر حرية التعبير عن الرأي في الإسلام:

إن محورًا في بحث لا يمكن أن يحيط بمظاهر حرية التعبير عن الرأي التي كفلها الإسلام لأهله لأنها كثيرة جدًّا بل لا أبالغ إن قلت يمكن أن يكتب فيها مجلد كبير، وقد صدق أحد الباحثين في قوله: «لا يعرف تاريخ الشرائع شريعة كانت أسبق من الإسلام في تقرير حرية الرأي وتحرير العقل والأخذ بسلطانه في شتى فروع العلم والثقافة والمعرفة»[٣].

---

(١) حرية الرأي في الإسلام مقاربة في التصور والمنهجية ـ للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب ـ كتاب الأمة ـ عدد ٢٢ ذو القعدة ١٤٢٨ ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر (ص٨٠) بتصرف.

(٢) المرجع السابق: نفس الموضع، بتصرف.

(٣) حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي ـ للدكتور عاصم أحمد عقيلة ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٩٠ (ص٢١).

وأقول هذا الكلام في الحقيقة موافق لما عليه جمهور الفقهاء وعلماء أصول الفقه: أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة حتى يوجد دليل يحرمها»[(١)]، والبحث والنظر والتوصل إلى رأي والتعبير عنه يدخل ضمن هذه القاعدة.

أما بالنسبة لمظاهر حرية التعبير عن الرأي فيمكننا أن نشير إلى بعضها في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٢)]: هما من أعظم مظاهر حرية التعبير عن الرأي في الإسلام إذ يستلزم منهما إبداء الشخص رأيه بحرية في المنكر الذي يراد تغييره أو المعروف الذي تُرك ويُراد إيجاده وفعله في المجتمع.

والأمر أو النهي في حالة تعيُّنه بالقول من صور التعبير المشروعة كما قال تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران:١٠٤]، والمراد من الآية -كما بينه ابن كثير[(٣)]- أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من رأي منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[(٤)].

وقد تحدث العلماء في كتبهم عن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في المجتمع المسلم وضرورة وجود مَنْ يقوم بهما ويلتزم بما ورد فيهما من الآيات القرآنية

(١) أصول الفقه ـ للشيخ محمد الخضري بك ـ المكتبة التجارية ـ الكبرى ـ مصر ـ ط٦ ـ ١٩٦٩ (ص٣٥٤) بتصرف.

(٢) المعروف ما عرف بالعقل والشرع حسنه، والمنكر ما عرف بالعقل والشرع قبحه، تفسير السعدي (ص١٤٢) ولهما أحكام وشروط وآداب كثيرة ليس هذا محل بسطها.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٠).

(٤) صحيح مسلم ـ حديث رقم (٤٩).

والأحاديث النبوية والآثار المروية وليس هذا مجال بسطها ولكن سأكتفي بكلام رائع ينبه على خطورة غياب هذه الشعيرة من حياة المسلمين وهو لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، حيث يقول:

«هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة مجددًا لهذه السنة الداثرة ناهضًا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ومستبدًا - منفردًا - بقُربة تتضاءل درجات القُرَبِ دون ذروتها»[1].

وواضح من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله قد جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حال تركهما أنَّ مَنْ يقوم بهما في أعلى درجات القرب من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: النصيحة: هي أحد مظاهر حرية التعبير عن الرأي في المجتمع المسلم بل هي بمثابة التقويم للمعوج والتشجيع لكل ما هو مستقيم ونافع للمسلمين، سواءٌ أكان ذلك في مجال العبادات أو المعاملات أو غيرها.

والنصيحة تدخل في أصول الدين وفروعه وفي المجمع عليه والمختلف فيه لأنها ـ النصيحة ـ تعني إرادة الخير للمنصوح له مع الإخلاص في ذلك.

وهي عامة لكل من يحتاج إلى نصح سواء أكان من عامة المسلمين أو من خاصتهم كالأمراء والعلماء والقادة والدعاة وغيرهم يشير إلى كل هذه المعاني ما ورد في حديث

---

(١) إحياء علوم الدين ـ لأبي حامد الغزالي ـ تحقيق د محمد وهبي سلمان وأسامة عمورة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٦ (٢/ ١٤٢١) باختصار.

أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم**»(١)، وحديث جرير بن عبد الله البجلي حيث قال: «بايعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»(٢)، ودلالة ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١].

وبين النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوجه تشابه وعموم وخصوص، فالعموم: هو عموم مؤازرة الحق والذب عنه، ومواجهة الباطل ودحره فهذه المعاني موجودة في كلا الأمرين.

وأما الخصوص، فيتضح بالنظر إلى أن الأمر والنهي إنما يتعينان في حالة معينة: وهي ترك الأمر أو فعل النهي؛ بينما النصيحة عامة لأنها يدخل فيها: نشر العلم وبيان الحق؛ وهذه من صور التعبير القولية خاصة ومعناها شامل لجميع أمور الدين(٣)، كما دل عليه حديث أبي الدرداء السابق.

وللنصيحة فضائل وشروط وأحكام وآداب مبسوطة في كتب أهل العلم(٤)، وإنما المقصود هنا هو بيان كونها مما حث الإسلام عليها وجعلها من وسائل التعبير عن الرأي.

ثالثًا: حرية التعبير عن الرأي السياسي: والمقصود أن المسلم من حقه أن يعبر عن رأيه وإسداء النصح للحاكم قد دل على ذلك حديث أبي الدرداء السابق «ولأئمة المسلمين» فهذا وإن كان داخلًا في بند النصيحة السابقة لكن أحببنا أن نفرده بالكلام لأنه يعتبر حالة خاصة فهي في حاجة إلى مزيد بيان.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (١٩٦).

(٢) صحيح البخاري ـ حديث رقم (٧٢٠٤)، وصحيح مسلم ـ حديث رقم (٢٥٥).

(٣) حرية التعبير بين المفهوم الشرعي والمفاهيم المعاصرة (ص٣٤٢)، بتصرف يسير.

(٤) من ذلك كتاب النصيحة الكافية، شرح حديث أبي الدرداء للعلامة أحمد رزوق المالكي.

قال النووي: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعناها: معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه»[١]، وقد فهم الصحابة هذا الحديث فنشأوا صرحاء حكامًا ومحكومين ولم يكن الوالي أو الحاكم المسلم فوق النصح والمراجعة.

ولعلي أسوق بعض أقوالهم في ذلك:

هذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول بعد توليته الخلافة في أول خطبة له: «أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وأن أسأت فقوموني»[٢].

وهذا عمر بن الخطاب يقول له بعض رعيته وهو بين جمع غفير من الناس: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا» فرد عليه عمر: «الحمد لله الذي أوجد من يقوِّم إعوجاج عمر بحد السيف»[٣].

وهذا سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما كثر النقد عليه خرج إلى المسجد معلنًا استعداده للمحاسبة قائلًا: «فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم فَلْيُرُوني رأيهم، فوالله إن ردني الحق عبدًا لأذلَّنَّ له ذل العبيد»[٤].

فالتعقيب على أخطاء الحاكم بالنقد ومراجعته ليس أمرًا مباحًا فحسب بل هو في تعاليم الإسلام حق الله على كل قادر، والسكوت عن هذا النقد تفريط في جنب الله، ومن ثم فعلى حملة الأقلام، وأرباب الألسنة أن يشتبكوا مع عوج الحاكمين في معارك كلامية، لا تنتهي أو ينتهي هذا العوج»[٥].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم شرح حديث رقم (٢٥٥).

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٤ ـ تحقيق مجموعة من الباحثين (٦/ ٢٢٥).

(٣) فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ للدكتور على محمد محمد الصلابي. ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ (ص١٤٥).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ١٣٨).

(٥) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ـ للشيخ محمد الغزالي (ص٦٩).

بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك حيث جعل السعي في تقويم اعوجاج الحاكم من أفضل أنواع الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[(١)].

رابعًا: حق العالم المجتهد في التعبير عما أداه إليه اجتهاده:

معلوم لدى كل مسلم أن الإسلام قد أتاح الفرصة لكل من كانت فيه أهلية الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة أن يجتهد وأن يعبر عما أداه إليه اجتهاده دون خوف أو مداهنة؛ ولو حق له الاجتهاد دون أن يحق له التعبير عن رأيه لكان ذلك عبثًا؛ دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]، «أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة»[(٢)].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»**[(٣)]، والمراد بقوله «حكم» أي أراد أن يحكم ثم اجتهد قبل أن يحكم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ ﴾ الآية، أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ولعلماء الإسلام عبر التاريخ مواقف كثيرة تدل على الأخذ بهذا الحق أعني حق الحرية في إعلان رأيه، ولعلي اكتفي بذكر شيء يسير منها.

فمن ذلك موقف بل مواقف عديدة للعز بن عبد السلام أكتفي بموقفين منهما:

الأول: لما أراد الظاهر بيبرس أن يستلم السلطة والحكم استدعى الأمراءُ العلماءَ لمبايعته وكان من بينهم الشيخ العز بن عبد السلام الذي فاجأ الظاهر بيبرس بكل جرأة

---

(١) رواه النسائي بإسناد صحيح (٧/ ١٦١)، وأبو داود حديث رقم (٤٣٤٤)، والترمذي حديث رقم (٢١٧٤)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) تفسير السعدي (ص١٩٠).

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام ـ حديث رقم (٧٣٥)، وصحيح مسلم ـ كتاب الأقضية حديث رقم (١٧١٦).

وشجاعة وقال له: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوكًا للبندقار - أي لا يصح مبايعة المملوك في استلام السلطة - فأحضَرَ بيبرس ما يثبت أن البند قار قد وهبه للملك الصالح أيوب، وأن أيوب قد أعتقه وهنا تقدم الشيخ العز وبايعه على الملك.

الثاني: قال ابن السبكي ـ وهو يحكي قصة بيع العز لجماعة من الأمراء - «وهم جماعة ذُكِرَ أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار؛ وأنَّ حكم الرق مستصحب لهم لبيت مال المسلمين، وأفتى بأنهم لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح وبذلك تعطلت مصالحهم، وكان في جملتهم نائب السلطان فاستشاط غضبًا واجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال لهم العز: نعقد لكم مجلسًا ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان،فبعث إليه فلم يرجع عن رأيه وقالوا: الشيخ أدخل نفسه فيما لا علاقة له به، وجرت كلمة على لسان السلطان حاصلها أن الشيخ أدخل نفسه فيما لا علاقة له به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته على حمار آخر ومشى خلفهم يريد الخروج من القاهرة، قاصدًا نحو الشام؛ فلم يصل إلى نحو نصف بريد[1] إلا وقد لحقه غالب المسلمين؛لم تكد امرأة ولا رجل ولا صبي يؤبه إليه إلا وخرج معه؛ لا سيما العلماء والصلحاء والتجار؛ فبلغ الخبر السلطان وقيل له: متي راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب خاطره، فرجع واتفقوا معه على أن ينادي هو على الأمراء؛ فأرسل إليه نائب السلطان يطالبه بالتنازل بالملاطفة، فلم يُفِدْ؛ وانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؛ والله لأضربنه بسيفي هذا، فركب في جماعته وجاء بيت الشيخ، ولما خرج إليه الشيخ بُهِتَ النائبُ وسقَطَ السيف من يده فبكى وقال: خيرًا أيش تعمل، قال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: ففيما تصرف ثمننا، قال في مصالح المسلمين، وبالفعل تم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا

(١) نصف البريد تساوي ثمانية أميال لأن البريد ١٦ ميلًا.

واحدًا، وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه على وجوه الخير، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي الله عنه[١].

ومن مواقف العلماء الربانيين موقف الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قضية خلق القرآن حيث أعلن رأيه بصراحة واضحة وخالف في ذلك الحكام الذين قالوا القرآن مخلوق؛ فقال الإمام أحمد بل هو كلام الله قديم غير مخلوق، وقد تداول الإمام أحمد أربعة خلفاء بعضهم بالتهديد والوعيد وبعضهم بالضرب والحبس وبعضهم بالنفي والتشريد وبعضهم في الترغيب في الرياسة والمال ولا يزداد الإمام إلا ثقة وإيمانا ويقينا، وصبر على ذلك حتى انجلت الفتنة وظهر الحق[٢].

وبعد هذا كله أقول هناك وسائل أخرى للتعبير عن الرأي ولكن تركناها خشية الإطالة وفيما سبق من قواعد نظرية وأمثلة تطبيقية ما يعطي القارئ صورة واضحة عن حقه الذي كفله الإسلام له، ليثبت فاعليته في المجتمع، وليكون من الذين يزيدون في حياة الناس شيئًا مفيدًا نافعًا.

وكما قيل: «إن لم تزد شيئًا في الحياة كنت زائدًا عليها».

المحور الرابع: علاقة حرية التعبير عن الرأي بالسنن الإلهية:

إن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشتى صوره التي سبق ذكرها من خلال المحور السابق؛ قد يؤدي ذلك الترك إلى وقوع الهلاك العام بالأمة ولا ينجوا منه إلا من كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وتلك سنة إلهية ماضية دل عليها عدد من الآيات والأحاديث أكتفي ببعضها:

---

(١) من أعلام السلف ـ لأحمد فريد ـ الدارة السلفية –ط٢ ـ ٢٠٠٠ (٢/ ٣١٦، ٣١٧) بتصرف.

(٢) قصة الإمام أحمد مع فتنة القول بخلق القرآن رواها عدد من المؤرخين منهم الطبري في تاريخه (٨/ ٦٣)، وابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٢٧٨) وابن الأثير (٦/ ٤٢٣) وغيرهم.

أما الآيات: فمنها قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

يقول السعدي: «ومن معاصيهم ـ أي بنو إسرائيل ـ التي أحلت بهم المثلات وأوقعت بهم العقوبات أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه: أي كانوا يفعلون المنكر ولا ينهي بعضهم بعضًا، فيشترك المباشر وغيره،وإنما كان السكوت عن المنكر -مع القدرة على إنكاره- موجبًا للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة»(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥].

قال صاحب المنار: «إنما يؤاخذ الله الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب التي يظهر أثرها فيها بالإصرار والاستمرار عليها؛ وهو ما أفاده هنا في هؤلاء اليهود قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ وإنما يكون العقاب على بعض الذنوب دون بعض في الدنيا خاصًا بالأفراد والجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية وأما الأمم الكبيرة فهي التي تصدق فيها سنن الله في عقاب الأمم إذا غلب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال:٢٥]».

وقوله تعالى في هذه الأمة خاصة: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥].

«في هذه الآية يأمر الله مجتمع المؤمنين أن يتقي الفتنة العامة التي لا تصيب أهل الظلم والفساد فقط بل تطال بشرِّها الصالح والطالح ويتعدى أثرها لكل أبناء المجتمع»(٢).

---

(١) تفسير السعدي (٢٤٠-٢٤١) بتصرف.

(٢) تفسير القاسم المسمى بمحاسن التأويل ـ للمؤلف محمد جمال الدين القاسمي ـ دار إحياء التراث الإسلامي =

ومعنى الأمر باتقاء الفتنة هنا: «الأمر بمنع حصولها عن طريق مدافعة أسباب وقوعها»(١).

وهذا لا يتم إلا بالقيام بواجب الأمر والنهي والنصح الخاص والعام وجميع وسائل التعبير التي سبقت الإشارة إليها.

وأما الأحاديث: فمنها الحديث الذي رواه النعمان بن البشير عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقها، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»(٢).

يؤخذ من الحديث فوائد كثيرة ولكن الذي يعنينا في هذا المقام ما قاله ابن حجر «إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها»(٣)، ويشهد لهذا المعنى الآية السابقة.

ومن الأحاديث أيضًا: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»(٤).

=ـ ط١ (٥/ ١٤)، (٤/ ٧٣)، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ـ للعلامة محمد بن على الشوكاني ـ دار بن كثير دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٨ (٢/ ٣٢٤).

(١) من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع ـ للأستاذ أمين نعمان الصلاحي ـ كتاب الأمة من إصدارات وزارة الأوقاف للشؤن الإسلامية بدولة قطر ـ ط٣ـ ١٤٢٩ (ص٨٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب الشركة ـ حديث رقم (٢٤٩٣).

(٣) فتح الباري ـ بشرح صحيح البخاري ـ للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٤١٨ (٥/ ٦٧٠).

(٤) سنن الترمذي ـ كتاب الفتن ـ حديث رقم (٣٠٥٧) وقال: حديث حسن صحيح.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم**»(١).

والمتأمل في تاريخ الأمة الإسلامية منذ بزوغ فجر الرسالة يلحظ بوضوح: أن من سنةِ الله تعالى التي لا تتبدل أن الدول إنما تعز وترقى بمقدار التزامها بدين الله وقيامها بهذه الصورة من المدافعة- الأمر والنهي - فإذا بدأت تتخلى عن ذلك دب إليها الضعف والفساد بقدر ما تركت من ذلك حتى يؤدى بها ذلك إلى الاضمحلال والزوال(٢).

وأقول: ما هانت أمتنا اليوم أمام الأعداء ولا صارت في ذيل الأمم إلا بسبب تركها لهذه الصورة من صور التعبير عن الرأي؛ وإقامة شرع الله الذي أعطاه إياها فصارت ترى الظالم ولا تنكر عليه، ولا تجهر بمخالفته، وسيظل حال الأمة الإسلامية هكذا حتى تغيِّر من هذا الوضع المخزي الذي تعيشه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وفي هذه الآية وعيد شديد وإنذار مخيف بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة،ومالوا مع الأهواء وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة، حل بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ويفرق كلمتهم ويوهن قوتهم ويسلط عليهم عدوهم(٣).

وكذلك إذا غيَّر العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة الله غَيَّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة»(٤).

وأختم القول بأن هناك عددًا من السنن الإلهية تتكامل لتعمل في تشكيل حياة الناس وتوصيلها إلى واقع ما من أبرزها هو ما تقدم في هذا المحور والله أعلم.

---

(١) سنن الترمذي ـ كتاب الفتن ـ حديث رقم (٢١٦٩) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) سنة التدافع وحقيقة العلاقة بين الحق والباطل ـ خالد موسى الزهراني ـ رسالة ماجستير ـ مكتبة الرشيد ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠٩ (ص١٨٨).

(٣) التفسير التربوي للقرآن الكريم ـ لأنور الباز ـ دار النشر للجامعات ـ مصر ـ ط١ ـ ٢٠٠٧ (٢/ ١٣٢).

(٤) تفسير السعدي (٤١٤).

المبحث الثاني

مفهوم حرية العقيدة وعلاقته بالسنن الإلهية

يدور هذا المبحث حول عدة قضايا هامة وهي: إلقاء الضوء على مفهوم الاعتقاد ثم بيان المراد بحرية العقيدة ثم الأدلة التي يُستند إليها في تقرير حرية العقيدة، باعتبارها مبدأ إسلامي أصيل من خلال الآيات القرآنية، والسيرة النبوية الشريفة ووقائع وأحداث في تاريخ الأمة الإسلامية ثم إجابة عن السؤال: لماذا لم يكره الإسلام أحدًا على العقيدة الإسلامية مع أنها حق لا ريب فيه، وأختم هذا المبحث ببيان علاقة حرية العقيدة بالسنن الإلهية، وذلك من خلال أربعة محاور:

المحور الأول: مفهوم معنى الاعتقاد ومصطلح حرية العقيدة:

أولًا: مفهوم الاعتقاد:

الاعتقاد مصدر اعتقد، واعتقد كذا عقد عليه القلب والضمير أو من عقد الشيء بمعنى ربطه، ويأتي الاعتقاد بمعنى المعتقَد أي ما يعقد الإنسان ضميره وعقله عليه، ويطلق على التصديق مطلقًا جازمًا أو غير جازمٍ مطابقًا للواقع أو غير مطابق ثابتًا أو غير ثابت.

فالاعتقاد هو: اعتناق فكرة والتسليم بصدقها، ويقوم على اعتبارات اجتماعية أو وجدانية، أو عقلية، وهو على درجات: أقواها الراسخ الجازم الذي هو بمرتبة اليقين، وقد يكون ظنًّا، وفي أضيق معانيه التسليم بشهادة إنسان لا لشيء إلا أننا نثق به[1]. وواضح أنه لا فرق بين اعتقاد وعقيدة.

ثانيًا: مفهوم حرية العقيدة:

سبق وأن بينا أن مفهوم الحرية من المصطلحات المعاصرة، ولهذا لم أجد ضرورة للبحث في مفهوم حرية العقيدة في كتب القدامى وهذا المفهوم وإن كان موجودًا لكن

(١) الموسوعة الإسلامية المسيرة ـ مادة اعتقاد من إعداد الباحث عبد الرحمن حللي ـ دار صحاري ـ حلب ـ ط١ ـ ١٩٩٧.

بمعناه[١] لا بمصطلحه الجديد ولهذا كان نقلي في التعريف بهذا المفهوم محصورًا في كتب المعاصرين.

ولقد اختلفت عبارات الباحثين في بيان مفهوم حرية الاعتقاد ولهذا كان لابد من اختيار بعضها ثم أعلق عليها حسب الحاجة:

يقول الدكتور تيسير العمر: «حرية الاعتقاد: أن يتمتع الإنسان بحق اختيار ما يوصله له تفكيره وتطمئن إليه نفسه من عقيدة أو رأي دون إكراه، مع الأخذ بعين الاعتبار احترام سلامة النظام وأمن الدولة».

ويقول عبد الرحمن حللي: «حرية الاعتقاد: حق كل إنسان في عدم التعرض للضغط والقمع، أو حتى لأي تدخل في شؤونه المتعلقة باعتناق دين معين»[٢].

وقد اعتبر الباحث عبد الله الديرشوي: أن حرية الاعتقاد جزء من حرية الرأي حيث قال: «حق الشخص في التعبير عن أفكاره ومشاعره باختيار إرادته ما لم يكن في ذلك اعتداء على حق الغير»[٣].

ويقول محمد زكريا بري: «الحرية الدينية هي الحرية التي تقتضي أن يكون لكل إنسان اختيار كامل للعقيدة التي يعتنقها ويقر بها من غير ضغط، ولا إكراه خارجي»[٤].

---

(١) حرية الاعتقاد في ظل الإسلام ـ رسالة دكتوراه ـ للدكتور تيسير خميس العمر ـ كلية الأمام الأوزاعي ـ ١٩٩٥ (ص٢٤).

(٢) حرية الاعتقاد في القرآن الكريم ـ لعبد الرحمن حللي ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ (ص٢١).

(٣) الرأي ومدى المسؤولية عنه في التشريع الإسلامي – رسالة ماجستير ـ للباحث عبد الله محمد الدير شوي ـ كلية الشريعة ـ الجامعة الأردنية ـ ١٩٩٠ (ص٦).

(٤) مجلة عالم الفكر ـ بحث بعنوان الإسلام وحقوق الإنسان ـ للباحث محمد زكريا بري ـ الكويت ـ العدد الرابع لعام ١٩٧١(ص١٠٩).

وهذه الأقوال في بيان مفهوم حرية العقيدة يمكن القول بأنها تدور حول ثلاثة أشياء كلها صحيحة ومطلوبة؛ حتى يقال قد نال الإنسان حرية العقيدة:

(أ) أن يكون الإنسان هو الذي توصل إلى ذلك المعتقد عن يقين أو غلبة ظن.

(ب) أن يكون حال توصله إلى ذلك الاعتقاد لم يكن تحت أي ضغط أو تأثير خارجي سواء كان ماديًّا أو معنويًّا.

(جـ) أن يكون له حق التعبير عن عقيدته دون أن يخاف من أن يساء إليه من جهات أخرى.

المحور الثاني: تأصيل مفهوم حرية الاعتقاد في الإسلام:

وذلك من خلال ثلاثة أدلة: القرآن الكريم والسيرة النبوية، والتاريخ.

الدليل الأول: القرآن الكريم: لقد وردت في القرآن الكريم آيات تدل على أن للإنسان الحرية الكاملة في اختيار المعتقد الذي يراه مناسبًا ومنه يستمد منهجه؛ ليعيش هذه الحياة وسأكتفي هنا بأشهر آية في هذا الموضوع.

وهي قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وسنقف مع أقوال أهل العلم من قدامى ومعاصرين ليبان أن هذه الآية لها دلالة واضحة على أن الإسلام قد كفل للإنسان حرية العقيدة:

قال ابن كثير: «أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام فإنه بَيِّنٌ واضح جلي؛ دلائله وبراهينه؛ لا يحتاج إلى أن يكره أحد عليه للدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة»[(١)].

وقال ابن القيم: وهذا نفي في معنى النهي أي لا تكرهوا أحدًا على الدين، ونزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصَّروا؛ قبل الإسلام فلما

(١) تفسير القرآن العظيم ـ للحافظ عماد الدين ابن كثير ـ دار إحياء الكتب العربية ـ حلب (١/ ٣١٠).

جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين فنهاهم الله حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام، والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر وهذا ظاهر على قول مَنْ يُجوِّز أخذ الجزية من جميع الكفار فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقول أهل العراق وأهل المدينة، ومن تأمل سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط»[١].

ويقول الطاهر بن عاشور: «ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام أي لا تكرهوا أحدًا على اتباع الإسلام قسرًا، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم أيضًا وهي دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه»[٢].

ويقول صاحب تفسير المنار ما نصه: «كان معهودًا عند بعض الملل لا سيما النصارى حمل الناس على الدخول في دينهم بالإكراه، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين، لأن الإيمان وهو أصل الدين وجوهره، عبارة عن إذعان النفس؛ ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان، ولذلك قال تعالى بعد نفي الإكراه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور، وأن من خالفه من الملل والنحل على غي وضلال»[٣].

ويقول سيد قطب: «﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ ومن هذا المبدأ يتجلى لنا تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهُدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني»[٤].

(١) الضوء المنير على التفسير ـ مجموع من كتب ابن القيم في التفسير جمعه علي الحمد الصالحي ـ مؤسسة النور للطباعة ـ الرياض (١/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) التحرير والتنوير ـ لسماحة الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ـ مؤسسة التاريخ ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ (٢/ ٤٩٩٩) باختصار.

(٣) تفسير المنار (٢/ ٣١).

(٤) في ظلال القرآن.

تلك هي أقوال علماء الأمة في مفهوم حرية العقيدة من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ولولا خشية الإطالة لوقفت على أقوالهم في آيات أُخر مشابهة، ولكن أكتفي هنا بالإشارة إلى تلك الآيات التي هي شبيهة بهذه الآية في معناها ومؤداها ألا وهو حرية اختيار الإنسان للعقيدة التي يراها مناسبة لمنهاج حياته، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩].

وقوله تعالى حكاية عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف:٢٩].

الدليل الثاني: شواهد من السيرة النبوية: إن هناك عددًا من الشواهد من سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدل دلالة واضحة على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يجبر أحدًا على الدخول في الإسلام؛ وإنما كان يعرض ذلك عرضًا، وسنكتفي بما يسمح به المقام وهو عرض لأهم موقفين في السيرة النبوية مما يدل على حرية الاعتقاد:

الأول: جاء في نص وثيقة المعاهدة التي كان بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين يهود المدينة: البند التالي «وأن يهود بني عوف أَمَة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم».

وجاء في بند آخر في آخر الوثيقة «وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله تعالى أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره»[(١)].

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام – تحقيق الشيخ محمد على قطب ومحمد الدالي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت =

ففي هذين البندين دلالة واضحة على أن رسول الله ﷺ أعطى اليهود الحرية في اختيار عقيدتهم «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»، ويقول الباحث أحمد الشعيبي: «بكل جلاء ووضوح يصرح دستور الدولة الجديدة أن لكل طرف من الأطراف المتعاقدة دينه ومعتقده يمارسه بكل حرية في ظل النظام الجديد لهذه الدولة الفتية»(١).

وقال الدكتور محمد أبو شهبة: «هذه الوثيقة التي وضعها نبينا محمد ﷺ منذ قرابة أربعة عشر قرنًا - وهي وثيقة جديرة بالإعجاب - قرر فيها حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرية الرأي، وبذلك سبق النبي ﷺ إلى تقرير حقوق الإنسان منذ الزمن البعيد»(٢).

ويقول الدكتور علي الصلابي: «أعلنت الوثيقة أن الحريات مصونة كحرية العقيدة والعبادة وحق الأمن، فحرية الدين مكفولة «للمسلمين دينهم ولليهود دينهم» قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد وإهلاك مَنْ يخالف هذا المبدأ»(٣).

وقد سبق هؤلاء جميعًا إلى تقرير هذا المبدأ وأخذ هذا المفهوم أعني إعطاء اليهود الحق في الحرية الدينية ابن القيم حيث قال: «ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبيَّن له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، ولما دخل المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم»(٤).

=٢٠٠٢ (٢/ ١٢٦)، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - لمحمد حميد الله - دار النفائس - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٥ - (ص٤١، ٤٢).

(١) وثيقة المدينة المضمون والدلالة - لأحمد قائد الشعيبي - من سلسلة كتاب الأمة من إصدارات وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر العدد ١١٠ - ١٤٢٦ (ص١٧١) بتصرف يسير.

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - للدكتور محمد محمد أبو شهبة - دار القلم - دمشق - ط ٦ - ٢٠٠٢ (٢/ ٥٩) باختصار.

(٣) السيرة النبوية - عرض وقائع وتحليل أحداث - للدكتور علي محمد الصلابي - دار المعرفة - بيروت - ٢٠٠٦ - طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر (ص٣٣).

(٤) الضوء المنير على التفسير (٣/ ٢٧٩).

الثاني: جاء في صلح الحديبية ما نصه: «من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه».

لقد كان في صلح الحديبية خيرًا كثيرًا للناس حيث توقفت الحرب وأعطى الناس فرصة للتفكير في الدين الجديد، وهذا البند الذي هو محل شاهد لما نحن بصدده يدل دلالة واضحة على أن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم ولهذا دخل في الإسلام عدد من أبطال قريش كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم، بل قال الزهري: إن مَنْ دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة إلى فتح مكة - أي أقل من سنتين - أكثر عددًا من الذين دخلوا الإسلام في جميع السنين التي سبقت ذلك»[(١)]، وقد عبر القرآن عن ذلك الصلح بكلمة «الفتح» في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١].

الدليل الثالث: شواهد من التاريخ على حرية العقيدة:

في تاريخ الإسلام كثير من الأحداث التي تدل دلالة واضحة على أن الإسلام وخلفاءه لم يكرهوا أحدًا من الشعوب التي وصلها الإسلام على الدخول فيه، ولا على اعتناقه بل أعطوهم الحرية الكاملة في اختياره وسأكتفي هنا بحادثتين:

الأولى: عقد الصلح الذي جرى بين عمر بن الخطاب وبين أهل مدينة القدس ذلك الحلف المشهور الذي جاء فيه ما نصه: «أعطاهم عمر أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضار أحد منهم»[(٢)].

ثم جاء في آخره -التوقيع-: «وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام (٣/ ٢٩٧).

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابي جعفر للطبري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ـ ١٩٨٧ (٤/ ٤٣٦).

وكُتِب وحصر سنة ١٥ هـ»[١]، وهذا لا يحتاج إلى تعليق إذ قالها عمر صريحة في هذا النص «ولا يُكرهون على دينهم»، وجعل هذا هو عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين.

الثانية: عندما دخل قتيبة بن مسلم الباهلي صَفَد من ـ أقاليم سمرقند ـ دون أن يخيِّر أهلها بين الإسلام والجزية والقتال شَكَوْا إلى عمر بن عبد العزيز وقالوا: ظلمنا قتيبة وغدر بنا فأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف؛ وقَدِموا على عمر بن عبد العزيز وشكوا قضيتهم، فما كان منه إلا أن كتب إلى واليه كتابًا وهذا نصه: «إن أهل سمرقند شكوا ظلمًا وتحاملًا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فاسمع منهم، وأجلس القاضي إليهم، فلينظروا في أمرهم، فإن قضى لهم، فأَخرِجِ العرب إلى معسكرهم قبل أن يظهر عليهم قتيبة»، فأَجْلَسَ الوالي لهم القاضي فقضى أن يخرج العرب إلى معسكرهم، وينابذونهم على سواء؛ ليكون صلحاً جديدا أو ظفرا عنوة؛ فقال أهل الرأي منهم: قد خَالطْنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن حُكِمَ لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا»[٢].

في هذه الحادثة دليل واضح على أن الإسلام ما جاء ليكره الناس على الدخول فيه؛ ولم يأت متعطشًا للدماء كما يزعم البعض؛ ولم يأت للسيطرة على العالم أو استعباد البشر كما كان الحال لدى الرومان والفرس، ممن حكموا العالم قبل الإسلام. وإن جلوس القاضي ليحكم في إخراج الجيش الفاتح أكاد أجزم أن هذا أمر لم يحدث في تاريخ البشر قبل الإسلام، ومعلوم أنه قد حكم على المسلمين لصالح الشاكين، وهم كفار، ألا يدل

(١) المرجع السابق ـ نفس المكان.

(٢) التعامل في التاريخ ـ لابن أبي بكر (٥/ ٢٢)، والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ للدكتور على محمد الصلابي ـ مؤسسة اقرأ ـ القاهرة ـ ط١ ـ سنة ٢٠٠٥.

ذلك دلالة صريحة على أن الإسلام أعطى الناس الحرية فيما يعتقدون، وليست هذه هي الحادثة الفريدة في تاريخ الإسلام بل هناك حوادث مشابهة.

المحور الثالث: لماذا لم يكره الإسلام الناس على العقيدة الإسلامية مع أنها هي الحق؟

لقد تحدث العلماء حول هذا الموضوع الهام ألا وهو: كيف يُعطَى الإنسان الحرية في اختيار ما يعتقده مع أن العقيدة الإسلامية هي الحق؟

ويمكن أن ننقل أقوال بعض أهل العلم للإجابة عن هذا السؤال:

يقول البيضاوي في تفسيره معللًا اختيار العقلاء للإيمان وهو يفسر آية البقرة في عدم الإكراه في الدين: «الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلا لا يرى فيه خيرًا يحمله عليه ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة؛ ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه للإيمان طلبًا للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء»[(١)].

فمن ظهر دخوله في أي دين تحت الإكراه، فإنه لن يكون مؤمنًا بذلك الدين حقا، لأن قلبه سيكون مخالفًا للسانه الذي أمر به أنه دخل في ذلك الدين أما في الإسلام فإن الأمر خطير، لأن مثل هذا الدخول الذي يخالف فيه القلب اللسان إنما يتحول إلى نفاق؛ والنفاق أشد من الكفر بصريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]، فالقلب لا سلطان لأحد من العالمين عليه حتى يُدخل ما يشاء فيه كُرهًا! وقد أنزل المولى عَزَّوَجَلَّ في حق عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال بلسانه كلمة الكفر لمشركي قريش ليدرأ عن والديه العذاب: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ العلامة البيضاوي – دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٦ (١/ ٥٥٧).

مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦].

فالعقيدة والإيمان لن يتحققا للمرء إلا أن يصدرا عن اعتقاد قلبي جازم، مخلص لله عَزَّوَجَلَّ، مطمئن صادق(١).

وممن تحدث في هذا الشأن أيضًا العلامة السعدي في تفسيره للآية حيث يقول: «هذا بيان لكمال الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطر له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه،لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله، فإنه لعناده»(٢).

ويقول الدكتور محمد الزحيلي: «لقد كرم الله الإنسان تكريمًا لا مثيل له، وذلك لمنحه العقل، الذي يدرك به الأشياء ويميز به الأمور ويزين به الإعمال ويفرق بين الحسن والقبيح، فيرشده إلى الخير ويبعده عن الشر، وبالعقل يتعرف على حقائق الأمور ويعرف وظيفته نحو نفسه،ونحو مجتمعه ونحو ربه، فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة ويتفرع عنه التفكير والإرادة والاختيار وكسب العلوم، وعد القرآن الكريم للإنسان الذي يبطل حواسه وعقله أضل من الأنعام والحيوان؛ لأن لديه وسائل المعرفة لكنه عطلها عما خلقت له، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢]، وبعد هذا العطاء الإلهي لا يمكن أن يجبر الإنسان على شيء ما يختاره لنفسه».

---

(١) موقع الإسلام اليوم ـ مقال للدكتور نصر محمد الكيلاني ـ بعنوان الحرية الدينية في الإسلام بين الشريعة والعقيدة – بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٠٨.

(٢) تفسير السعدي (٩٥٤) الملحق.

وبهذا يتبين الفرق بين أوامر الله الكونية التي تصدر إلى مختلف مكوناته، فتنفذ قسرًا دون المرور بأي حرية أو اختيار وبين أوامره التكليفية التي توجه خطابًا إلى عباده الذين بلغوا الرشد وتمتعوا بالقدرة وحرية اتخاذ القرار، فتوقف للتنفيذ على توفير رغبة العبد المكلف في الطاعة والانقياد»(١).

وأخيرًا: «لم يُقَلْ في الإسلام ما قيل في الديانات السابقة من مثل: آمن ثم أعمل أو أغمض عينيك ثم اتبعني أو الجهالة أم التقوى»(٢).

المحور الرابع: علاقة حرية العقيدة بالسنن الإلهية:

لو جاء الإسلام بإكراه الناس على العقيدة وحرمهم من حرية الاختيار لكان في ذلك منافاة لسنتين من السنن الإلهية التي جعلها الله في الكون وفي الإنسان، وهذا بيانهما باختصار:

الأولى: جُبِلَ الناس على الاختلاف: لقد قضى الله قضاءًا أزليًا أن يكون الناس مختلفين، ولا يمكن أن يتحدوا أو يتفقوا على أمر واحد سواء كان في الفكر والرأي أو في العقيدة والسلوك أو في غيرها، دل على هذه السنة الإلهية آيات من القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

يقول السعدي: «يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للصراط المستقيم»(٣).

---

(١) شرح جلال الدين لمحلى على الجوامع للسبكي (١/ ٤٠-٤١) نقلًا عن الله أم الإنسان أيهما أقدر على رعاية حقوق الإنسان ـ للدكتور محمد سعيد رمضان السيوطي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ٢٠٠١ (ص٥٠).

(٢) الإسلام حضارة الغد ـ للدكتور يوسف القرضاوي (ص٥٤).

(٣) تفسير السعدي (ص٩٤٥) الملحق.

ويقول محمد الغزالي: «وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبي الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول مَنْ يعرف أنَّ كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، ومن هنا نشأت العقيدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن الكريم، قاعدة حرية العقيدة ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين»[(١)].

الثانية: التدافع بين الإيمان والكفر: «التدافع بصورة عامة سنة قائمة في الجواهر: كتدافع الليل والنهار وتدافع بين بني الإنسان وبعضهم بعضًا، وتدافع الحيوانات فيما بينهما، وكذلك قائمة في الأعراض: كتدافع حالتي الفرح والحزن في النفس، والصحة والمرض، والراحة والتعب... ألخ، هذا التدافع كله لإحداث التوازن الذي يكون به صلاح الحياة واستمرارها، إذ لولاه لما أطاق الإنسان العيش بوتيرة واحدة، لأنه ملول بطبعه»[(٢)]، هذا كلام موجز حول وجود سنة التدافع.

وأما سنة التدافع بين الكفر والإيمان، فقد وردت في آيات من الذكر الحكيم، يقول الباحث خالد الزهراني: «ولقد سجل القرآن الكريم في آيات كثيرة منه التدافع بين الإيمان والكفر وأخذ ذلك مساحة كبيرة منه وبخاصة في عرض قصص الأنبياء وأتباعهم مع أعداءهم، بل يقرر القرآن استمرار هذا النوع من التدافع، وأنه لا يزال ما بقى إيمان

(١) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ـ لمحمد الغزالي ـ دار القلم ـ ط٢ ـ ٢٠٠١ (ص٨٦، ٨٧) باختصار يسير.

(٢) سنة التدافع وحقيقة العلاقة بين الحق والباطل ـ لخالد الزهراني (ص٦٠) بتصرف.

وكفر وحق وباطل»[١]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]، أعلمهم الله أن أولئك المشركين لا هم لهم إلا منع الإسلام من الأرض وهو الذي بيده الحق وحده»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، فحذر الله عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب وأعلمهم سبحانه بعداواتهم لأهل الإيمان في الباطن والظاهر وأن كثيرا منهم يودوا لو أنهم يردونهم من بعد إيمانهم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم لهذه الأمة ولنبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. مع معرفتهم أنه الحق[٣].

وبناء على ما سبق ذكره يتبين لنا لو جاء الإسلام بإجبار الإنسان على العقيدة الحقة لأبطل سنة الاختلاف التي جبل الله الناس عليها، ولبطلة سنة التدافع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والخير والشر، وما يترتب على هذه السنة من حركة في الحياة ومن إظهار كوامن البشر من قوة وضعف وحب وبغض ونشاط وكسل إلى آخر ما هنالك.

وأختم هذا المطلب بهذه الكلمة الرائعة للدكتور الكيلاني حيث يقول:

«والمتأمل اليوم في ما أطلق عليه أصحابه «النظام العالمي الجديد» يجد الحرية الدينية متاحة للجميع عدا المسلمين، فحريتهم الدينية مصادرة أين ما كانوا ـ برغم كفالة الإسلام لحرية الجميع ـ ويراد فسخ دينهم من خلال محاولات استحداث دين جديد للعالم مشكل من جملة الاعتقادات الموجودة تحت شعار «وحدة الأديان»... ويضاف إلى ذلك الحملة التنصيرية الشرسة على العالم الإسلامي خاصة في أطرافه المختلفة سواء بإفريقيا أو آسيا، والاعتداء على مقدساته واستخدام الإكراه في التنصير باستغلال حاجة الناس للصحة والتعليم خاصة»[٤].

---

(١) المرجع السابق (ص١٠).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣١٧) باختصار.

(٣) تفسير الطبري (١/ ٥٣٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦).

(٤) موقع الإسلام اليوم مقال بعنوان الحرية الدينية في الإسلام بين العقيدة والشريعة.

المبحث الثالث

مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالسنن الإلهية

مما هو معلوم لدى كل مسلم أن من أركان الإيمان الستة الإيمان بالقدر خيره وشره، ولكن مع هذا توجد بعض المفاهيم الخاطئة حول الإيمان بهذا القدر مما أدى إلى كثير من الأخطاء في السلوك المبنية على تلك المفاهيم الخاطئة، هذا جانب.

جانب آخر: أن الإيمان بالقدر له صلة وثيقة ببعض سنن الله التي سنها في هذا الكون مما له علاقة بالبشر.

بناءًا على كل ما سبق أحببت أن ألقي الضوء على مفهوم الإيمان بالقدر وأهميته ومراتبه مصحوبة بأدلتها ثم بيان بعض الانحرافات التي حصلت في مفهوم القدر والجواب عنها، وأخيرًا بيان العلاقة بين الإيمان بالقدر والسنن الإلهية، وذلك من خلال خمسة محاور:

المحور الأول: تعريف القضاء والقدر لغة وشرعًا:

أما القضاء لغة بالمد والقصر فله معانٍ كثيرة منها: الأداء والفراغ والفصل، والإمضاء والإنهاء، وإتمام الوطر وبلوغه، والإيجاب إلى غير ذلك[١].

أما القدر لغة فهو: القضاء، والحكم، وقَدْرُ كلِّ شيء مقياسه، وقَدَّرْتُ الشيء أي هيأته، قَدرْت أطقْتُ، وملكْتُ، والتقدير: التضييف[٢] إلى غير ذلك.

وأما القضاء والقدر شرعًا: فالقضاء: هو الحكم ـ أي حكم الله ـ الكلي على أعيان الموجودات بأحوالها من الأزل إلى الأبد، مثل الحكم بأن كل نفس ذائقة الموت، والقدر:

(١) لسان العرب ـ مادة قضى، والقاموس المحيط ـ مادة قضي.
(٢) لسان العرب ـ مادة قدر، والقاموس المحيط ـ مادة قدر.

هو تفصيل ذلك الحكم بتعيين الأسباب وتخصيص إيجاد الأعيان بأوقات بحسب قابليتها واستعداداتها المقتضية للوقوع منها وتعليق كل حال من أحوالها بزمان مخصوص وسبب مخصوص مثل الحكم بموت شخص في اليوم الفلاني بالمرض الفلاني.

ويطلق القدر أيضًا على القدرة التي تُسيِّر موجودات في هذا العالم وِفْقَ نظام محتوم، يتعذر على الإنسان صاحب الفكر والإرادة أن يخالف أسبابه ويجتنب نتائجه[١].

المحور الثاني: أهمية الإيمان بالقدر:

أما في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، وما شابههما من الآيات التي تدل على أن الله هو الذي قدر الأشياء قبل وجودها.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة كما ورد ذلك في حديث جبريل المشهور: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[٢].

وفي صحيح مسلم: «**قَدَّرَ اللهُ مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[٣].

ومن هنا اتفق أهل العلم على أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وأن منكره كافر بالله تعالى، وهذا ثابت منذ أيام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهذا ابن عمر حين بلغه أن أناسًا يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ـ مستأنف لا علم لله به ـ قال لمن أخبره بذلك: «إذا

---

(١) القضاء والقدر ـ لشيخ الإسلام أبن تيمية ـ جمعه من كلامه الدكتور أحمد السايح، والدكتور السيد الجميلي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ٢٠٠١ ـ المقدمة (ص٩).

(٢) صحيح مسلم ـ أول كتاب الإيمان حديث رقم (٨).

(٣) صحيح مسلم ـ حديث رقم (٢٦٥٣)، وسنن الترمذي حديث رقم (٢١٥٦).

لقيت هؤلاء فأخبرهم أني برئ منهم وأنهم برآء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله ذلك منه حتى يؤمن بالقدر»[١].

وهذا عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لولده: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب، فقال: رب ماذا أكتب؟، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**»[٢].

ولهذا لا يكاد عالم من علماء السنة يؤلف كتابًا في العقيدة إلا ويثبت فيه هذا الركن الهام من أركان الإيمان، ولسنا في حاجة إلى الإطالة في ذلك لشهرته.

المحور الثالث: مراتب الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر مراتب أربع أثبتها أهل العلم[٣] وهي مع أدلتها:

المرتبة الأولى: مرتبة العلم:

يجب الإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ المحيط بكل شيء، وأنه علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم، وآجالهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وأعمالهم، ومَنْ منهم أهل الجنة، ومَنْ منهم أهل النار، وأنه يعلم كل شيء بعلمه القديم المتصف به أزلًا وأبدًا.

ودليلها قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١]، وما شابهها من آيات.

---

(١) صحيح مسلم أول كتاب الإيمان حديث رقم (٨).

(٢) سنن أبي داود ـ حديث رقم (٤٧٠٠).

(٣) القضاء والقدر لابن تيمية (ص٤٦)، والمنحة الإلهية في تهذيب شرح العقيدة الطحاوية ـ لابن أبي العز الحنفي ـ تهزيب عبد الآخر حماد الغنيمي ـ دار الصحابة ـ بيروت ـ ط٢ ١٩٩٦ (ص٣٠١)، الإيمان بالقدر ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ (ص٥، ٦).

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة:

وهي أن الله تعالى كتب مقادير المخلوقات، والمقصود بهذه الكتابة، الكتابة في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يُفرِّطْ فيه الله من شيء، فكل ما جرى وما سيجري فهو مكتوب عند الله تعالى.

ودليلها قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١]، ﴿ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

المرتبة الثالثة: مرتبة الإرادة والمشيئة:

أي: أن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء. ودليلها قول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق:

أي: أن الله تعالى خالق كل شيء، من ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه، وهذه المرتبة هي محل النزاع الطويل بين أهل السنة ومَنْ خالفهم. ودليلها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر:٦٢]، وما شابهها من الآيات.

***المحور الرابع: مظاهر الانحراف في قضية الإيمان بالقدر*[(١)]:**

مع وضوح قضية الإيمان بالقدر، ووضوح مراتبه وأدلته، إلا أن بعض المسلمين قد انحرف عن الجادة؛ وهو انحراف غير مبرر، وفي نفس الوقت انحراف خطير ومضر بصاحبه إن لم يقلع ويرجع إلى الصواب.

---

(١) ملخصة من كتاب الإيمان بالقضاء والقدر ـ لمحمد الحمد (ص١٣٩)، وكتاب الإيمان بالقدر ـ للدكتور يوسف القرضاوي (ص٤٩-٦٩).

ومن مظاهر الانحراف ما يلي:

أولًا: الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات:

هناك من يحتج بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات، فإذا قيل له مثلًا لماذا لا تصلي؟ قال: ما أراد الله لي ذلك، وإذا قيل له: متى ستتوب؟ يقول: إذا أراد الله لي ذلك!

الجواب عن هذا الاحتجاج: هذا بلا شك خطأ وانحراف؛ لأنه إذا كان يقصد بالإرادة هنا الإرادة بمعنى المحبة فقد أعظم الفرية على الله؛ لأن الله أحب الطاعة وأَمَر بها، وإذا كان يقصد بالإرادة: المشيئة أي لم يشأ الله ذلك له فهذا أيضًا خطأ فاحش؛ لأنه لا يعلم أحد من الخلق بمشيئة الله للشيء وتقديره له إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد سابقة لفعله، فتكون إرادته غير مبنية على علم منه بقدر الله، فادعاؤه مردود عليه، واحتجاجه باطل، لأنه ادّعاء لعلم الغيب؛ حيث قال: «ما أراد الله ذلك، والغيب لا يعلمه إلا الله، فحجته داحضة لأنه لا حجة للمرء فيما لا يعلم»[(١)].

وجواب آخر قد يكون أنفع للعامي وأقطع لحجته، فنقول له: لماذا لا تصوم النهار وتقوم الليل ثم تقول أراد الله لي ذلك ولماذا لا تترك شرب الخمر والزنا، وتقول ما أراد الله لي ذلك، أي لم يرد لي شرب الخمر ولا ارتكاب الزنا.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «ويلزم الذي يحتج بالقدر ويتعلل به ألا ينكر على مَنْ يظلمه ويعتدي عليه، فيهضم حقه أو يسلب ماله، أو يهتك عرضه أو يستحل دمه، وكذلك كل مَنْ يهلك الحرث والنسل ويسعى في الأرض فسادًا، وهذا كله دليل على كذبهم في دعواهم وتناقضهم في قولهم، والتناقض دليل الفساد والبطلان، وتبين بهذا أن قولهم فاسد في العقل كما أنه ضلال في الشرع»[(٢)].

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر ـ لمحمد الحمد (ص١٣٩)، وقد أجاب المؤلف عن هذه الشبهة في موضع آخر بخمسة عشر وجهًا ومن أبرزها، لو كان الاحتجاج بالقدر سائغًا لاحتج أهل النار به ولم يقبلوا أن يعذبوا على كفرهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

(٢) الإيمان بالقدر ـ الدكتور يوسف القرضاوي (ص٦٤) باختصار.

ثانيًا: ترك الأخذ بالأسباب بحجة أن الله لو قَدَّرَ الشيء لكان:

يظن البعض أن معنى الإيمان بالقدر يؤدي إلى القول: بأن الله إذا قدر للمريض الشفاء فإنه لا بد أن يشفى، ولو قدر لفلان أن يرزق مالًا لابد أن يأتيه، حتى يؤدي ذلك الظن إلى ترك الأخذ بالأسباب سواء كان في طلب الرزق أو الشفاء أو غيره.

- **الرد على هذه الشبهة:** يقال لهم أن فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل مباشرتها من تمام الإيمان بالقضاء والقدر؛ ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأخذ بالأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة.

فقد أمر الله العباد بالعمل والسعي في طلب الرزق قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، ومعنى الآية: «أي فدبوا وتفرقوا مجتهدين في الأرض أي في جميعها للتجارة، والتصرف في حوائجكم إن شئتم، لا جناح عليكم، رخصة من الله تعالى «وابتغوا: أي اطلبوا الرزق من فضل الله وهذا أمر إباحة»[١] وغيرها من الآيات.

وحياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بل حياة المسلمين جميعًا كلها شاهدة على الأخذ بالأسباب[٢].

والفطرة التي تدعوا إلى الأخذ بالأسباب لا بد لمريد الشبع أن يأكل، ولا بد لمريد الري أن يشرب ولا بد لمريد الولد أن يتزوج.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي[٣]: «وخطأ هؤلاء قد جاء لسوء فهمهم لمعنى القدر فقد ظنوا أن الله يقدر المسبَّبات مفصولة عن أسبابها، والنتائج معزولة عن

(١) تفسير القرآن المسمى بالسراج المنير ـ للخطيب الشربيني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ (٤/ ٢٨٩).
(٢) الإيمان بالقضاء والقدر ـ لمحمد أحمد (٧٧، ٧٨).
(٣) الإيمان بالقدر ـ للدكتور يوسف القرضاوي (ص٤٩، ٥٠).

مقدماتها، فإن الله يقدر المسبَّب والسَبَبَ معًا؛ فإذا قَدَّر الله لمريض أن يشفى لم يقدر هذه النتيجة وحدها، بل يقدر أنه يشرب دواء خاصًّا أو يحتمي من طعام معين - حسب سنة الله - أن يبرأ من مرضه، فالمسبَّبات من قدر الله وأسبابها من قدر الله؛ ولما كان عمر في طريقه إلى الشام ثم علم بوقوع الطاعون فيه، استشار المسلمين ثم قرر الرجوع إلى المدينة بمن معه من الصحابة فقال له أبو عبيدة: أتفر من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله»[(١)].

ثالثًا: بعض الناس يتسأل عن وجود الشر والفساد في الأرض، كالأمطار المدمرة، والحروب المهلكة والأمراض المزمنة، وغيرها مما يكره الإنسان بطبعه فيقول: لم خلق الله ذلك كله؟

الجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن يقال: أن الله تعالى منزه عن الشر ولا يفعل إلا الخير، والقدر من حيث نسبته إلى الله لا شر فيه البتة[(٢)]. يدل على ذلك قوله ﷺ: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**»[(٣)].

- قال ابن القيم تعليقًا على هذا الحديث: والحاصل إنَّ الله تعالى لا ينسب إليه الشر لأنه إن أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه فهو الظلم ومقابله العدل، والله منزه عن الظلم، وإن أريد به الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه فإيجاد الله العقوبة على الذنب لا يُعَدَّ شرًا، بل ذلك عدل منه تعالى، وإن أريد به عدم الخير وأسبابه الموصلة إليه؛ فالعدم ليس فعلا حتى ينسب إلى الله تعالى، وليس للعبد على الله أن يوفقه، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر».

(١) سنن الترمذي ـ حديث رقم (٢٠٦٦)، وسنن ابن ماجه حديث رقم (٣٤٣٧).

(٢) صحيح مسلم ـ حديث رقم (٧٧١).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ـ لابن قيم الجوزية ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة (ص٣٦٦).

الوجه الثاني: أن يقال: أن هناك أشياء تراد لنفسها بالقصد الأول وأخرى تراد لغيرها،فالمراد لذاته مطلوب محبوب، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد، بل من حيث إيصاله لمراده فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته من غير تنافٍ كالدواء المر إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء بقية الجسد معافى.

فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير وحكمة، وإن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شرًّا محضًا، مثال ذلك: المطر لا شك أن فيه الخير والمنفعة ولكنه قد يتسبب في الضرر ببعض البيوت والشوارع ولكن هذا الضرر لازم من لوازمه وهو على كل حال شر جزئي قاصر إذا قيس بالخير العام الذي يصيب مجموع الخلق بسبب نزوله[١].

تنبيه: تلك أهم مظاهر الانحراف المنتشرة بين المسلمين في قضية الإيمان بالقدر، ولكن هناك غيرها كثير مما هو في حاجة ماسة إلى شرح وبيان وجه الشبهة التي فيها على النحو الذي سبق، ولكن تركتها لضيق المساحة المتاحة، ورأيت أن أثبتها، مسرودة فقط دون التعرض للرد عليها وهي[٢]:

١- ترك الدعاء بحجة أن الله تعالى يعلم حاجة العبد قبل أن يسأل، أو بحجة لو قدر هذا الشيء لكان دون دعاء.

٢- الدعاء بقول بعضهم: اللهم إني لا أسالك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.

٣- قول بعضهم: لو شاءت الظروف لكان كذا وكذا وقد يقول البعض لو شاءت الأقدار.

٤- استطلاع المستقبل عند الكهان والمنجمين بقصد معرفة ماذا كتب الله في الزواج أو السفر أو الحياة المستقبلية.

---

(١) شفاء العليل (ص٣٦٤-٤١١)، والإيمان بالقدر ـ للقرضاوي (ص٨٣، ٨٤).

(٢) الإيمان بالقضاء والقدر – لمحمد الحمد (١٤٣-١٦٢).

٥- الاعتراض والسخط على الأقدار عند نزول البلاء من مرض أو فقر أو موت عزيز لديه، مع علمه بأن الله هو الذي قدر عليه ذلك.

٦- قول كلمة ليت أو لو عند حصول مصيبة أو فوات فرصة في الحصول على مال أو وظيفة فيقول: لو أني ذهبت أو يا ليتني لم أذهب ونحو ذلك من العبارات.

٧- الحسد الذي هو بمعنى تمني زوال نعمة الغير، فهذا فيه اعتراض على الله فكأنه يقول يا رب أعطيت فلانًا وهو لا يستحق أن يعطى.

٨- التسخط عندما يرزق الواحد منهم ببنت وهو يتمنى الولد، فتلك خصلة جاهلية: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨].

فالمتأمل لهذه الأخطاء في القدر يجد أنها تخل بمرتبة من مراتب الإيمان بالقدر أو بها كلها والله أعلم.

المحور الخامس: علاقة الإيمان بالقدر بالسنن الإلهية:

إن الإيمان بالقدر بمراتبه آنفة الذكر والعمل بمقتضى ذلك من الضروري بمكان لحياة أهل الإيمان، وما أشرنا إليه من انحرافات عملية في قضية الإيمان بالقدر يؤدى حتمًا إلى مخالفة بعض السنن الإلهية ويترتب على ذلك عواقب وخيمة تتجرع مرارتها الأمة كلها، كما أنَّ العمل بمقتضى الإيمان بالقدر يؤدي إلى ثمار طيبة موافقة لسنن إلهية أخرى ولبيان هذين النوعين اكتفي:

أولًا: سنة الله في الأسباب والمسببات[١]:

إن قانون السببية وهو ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، هذا قانون عام شامل لكل ما في الكون، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة، يقول ابن تيمية: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات»[٢].

(١) الكلام على قانون السببية كلام طويل بل طويل جدًّا ولكن اقتصرنا هنا على ذكر فقرات مما له صلة بموضوع القدر.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم النجري وابنه محمد (٨/ ٧٠).

والله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها قدرًا وشرعًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه، قال ابن القيم: «وقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة؛ كل ذلك مرتبط بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته، وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل كل الموجودات أسباب ومسببات والشرع كله أسباب ومسببات والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار على متصرف فيها فالأسباب محل الشرع والقدر»[1].

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التي تثبت أنه لا بد من ربط الأسباب بمسبباتها فمن أمثلة الأسباب المادية قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

ففي الآية الأولى: جعل الله إنزال الماء سببًا في إخراج الثمرات وإن شئت قلت ربط الله إخراج الثمرات بإنزال الماء.

وفي الآية الثانية: جعل الله الضرب في الأرض سببًا في الوصول إلى الرزق فلا رزق إلا وهو مرهون بحركة ما أي لا بد من سبب ومن الأمثلة المعنوية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩].

ففي الآية الأولى: جعل الله التقوى سببًا في النجاة من المهالك وسعة الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان.

وفي الآية الثانية: جعل الله التقوى سببًا في حصول الفرقان وهو البصيرة في الأشياء والتمييز بين الحق والباطل والخطأ والصواب.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (ص٣٨٠).

ومن الأمثلة الأخروية: أن الله جعل الأعمال الصالحة سببًا في دخول الجنة وحصول الجزاء الحسن وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩].

بناء على ما سبق ذكره نقول: إن الذين يخالفون في هذه القضية ويقولون لا نسعى في عمل شيء ما دام القدر محتومًا سيؤدي بهم هذا الاعتقاد إلى التخلف والرجوع إلى الوراء في الحياة كلها، فلسنا بحاجة إلى مصانع ولا إلى مزارع ولا طب أو هندسة لنعمر الأرض إلى غير ذلك مما نحن في أمس الحاجة إليه لنعيش كبقية البشر، وقد تبين بالآيات السابقة أن شيئًا لن يحدث هكذا اعتباطًا دون وجود أسبابه.

ثانيًا: الأخذ بالإيمان بالقدر يؤدي إلى قطف ثمرات جليلة: بناءًا على سنن الله في أهل طاعته:

إن الله تعالى وعد أهل الإيمان بوعود كثيرة منها، ما هو في الدنيا، ومنها ما هو في الآخرة، ولا شك أنه لا يستحق هذا الوعد إلا من حقق الإيمان الذي تنبني أسسه على كتاب الله وسنه رسوله ﷺ، ومن تلك الأسس الإيمان بالقدر، وقد ذكر العلماء فوائد جليلة يستفيدها المؤمن من خلال إيمانه بالقدر وهي لا تخرج عن كونها جزاءًا على طاعه أو نتيجة لسنة إلهية، وهذه بعضها[(١)]:

الفائدة الأولى: الاتجاه إلى العمل والبناء وترك التواكل:

المؤمن بالقدر حازم في أموره منتهز للفرص التي تمر به لا يضيع شيئا منها حريص على كل خير دنيوي أو أخروي إذ الإيمان بالقدر يدفعه إلى ذلك فلم يكن داعية إلى البطالة،بل لقد دفع العظماء من الرجال إلى جلائل الأعمال، التي يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من قدرات وإمكانات يقصران عن إدراكها والحصول عليها.

(١) ملخصه من كتابي الإيمان بالقدر للدكتور يوسف القرضاوي (٨٨-١٠٣)، والإيمان بالقضاء والقدر ـ للدكتور محمد الحمد (٢١-٤٣).

لقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا كله بقوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا و كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

وقال الدكتور يوسف القرضاوي ـ معلقًا على هذا الحديث - أمر المؤمنين في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه، سواء في دينه أم في دنياه ن والاستعانة بالله على ذلك، فهو الذي يهيئ له الأسباب ويزيل من طريقه الموانع، ومن العجز المذموم: إلقاء الأحمال على القدر والاحتجاج به على الإعفاء من المسئولية، وقديمًا قيل: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير»(٢).

وقال أيضًا: « وقد قال أحد الحكماء: الأمور أمران أمر لك فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة لك فيه فلا تجزع منه، فليكن المؤمن إيجابيًا والنتيجة إلى المستقبل ليعمل ويجني وينتج لا إلى «اللولوة» التي يقولها لو أني فعلت لو أني تركت»(٣).

الفائدة الثانية: تحرير العقول من الخرافات والأباطيل:

من بديهيات الإيمان بالقدر بأن ما يجري في هذا الكون إنما هو بقدر الله وأن قدر الله سر مكتوم لا يعلمه إلا هو، ولا يطلع على الغيب أحد إلا من ارتضي من رسول.

ومن هذا المنطلق تجد المؤمن بالقدر لا يعتمد على الدجالين - الكذابين ـ ولا يذهب إلى الكهان والمنجمين والعرافين، فلا يعتد بأقوالهم ولا ينطلي عليه دجلهم، فيعيش سالمًا معافى في قلبه وروحه، هانئ البال مطمئن الضمير(٤).

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٦٦٤).

(٢) الإيمان بالقدر ـ للدكتور يوسف القرضاوي (ص٩٩) باختصار.

(٣) المرجع السابق (ص١٠١).

(٤) الإيمان بالقضاء والقدر ـ لمحمد الحمد (ص٣٨، ٣٩)، بتصرف.

وقال لبيد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَعَمْرُكَ ما تَدري الضَّوَارِبُ بالحصَى وَلا زاجِراتُ الطّيرِ ما اللهُ صانِعُ

سَلُوهُنَّ إنْ كَذَّبتموني متى الفتى يذوقُ المنايا أوْ متى الغيثُ واقِعُ[1]

ومع وضوح هذه القضية إلا أن بعض ضعيفي الإيمان والعقل صاروا يقرأون ما ينشر في الجرائد والصحف والمجلات حول ما يسمى ببرجك اليوم أو حظك اليوم وهو عبارة عن تنجيم ورجم بالغيب وهو أقرب إلى أن يدخل في التحذير من إتيان العرافين والكهان.

الفائدة الثالثة: القوة في مواطن البأس والخطر[2]**:**

وهذه القوة في مواطن البأس والخطر مصدرها هو إيمان المؤمن بأن قدرة الله عليه نافذة لا محالة وأنه لن يموت قبل أجله: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٤].

وهذا ما جعل المسلمين لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم منذ وقعة بدر الكبرى وإلى حرب الشيشان اليوم.

قال السيد جمال الأفغاني: «الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر فإنه يتبعه الجرأة والإقدام وخُلُق الشجاعة والإقدام، يبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها الأسود، وتنشق منها مرائي الأهوال ويحليها بحلل الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يضر عليها بل يجملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة، وكل هذا في سبيل الحق الذي دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

اندفع المسلمون في أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الأمم وقهروا الدول وامتدت سلطتهم

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ـ دار صادر ـ بيروت (ص٩٠).

(٢) الإيمان بالقدر للدكتور يوسف القرضاوي (ص٨٨، ٨٩). بتصرف.

من جبال برينيه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قله عدتهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة،إن هذا ليعُدّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات»[١].

الفائدة الرابعة: الصبر وقوة الاحتمال عند الشدائد[٢]:

الإيمان بالقدر يثمر لصاحبه عبودية الصبر على الأقدار المؤلمة، فلا يجزع ولا يستبد به الهلع، بل يستقبل المصائب بثبات كثبات الجبال؛ وقد استقر في أعماقه قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

ولهذا مدح الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمن فقال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابه ضراء صبر فكان خيرًا**»[٣].

وكل أحد من الناس لا بد له من الصبر على بعض ما يكره، إما اختيارًا وإما اضطرارًا، فالكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه إن لم يصبر لم يرد عليه الجزع فائتًا، فمن لم يصبر صبر الكرام سلا سلُّو البهائم»[٤].

---

(١) مجلة العروق الوثقى ـ دار العرب للبستاني (ص٩٣) نقل عن الإيمان بالقدر (ص٥٩).

(٢) الإيمان بالقدر – الدكتور يوسف القرضاوي (ص٩١، ٩٢)، والإيمان بالقضاء والقدر لمحمد الحمد (ص٢٥-٢٧) بتصرف.

(٣) صحيح مسلم ـ حديث رقم (٢٩٩٩).

(٤) عدة الصابرين ـ وذخيرة الشاكرين ـ لابن قيم الجوزية ـ شرح ومراجعة ـ سعيد اللحام ـ دار الفكر اللبناني ـ بيروت ط١ (ص٥٥) بتصرف.

الفائدة الخامسة: الرضا والقناعة بما قسم الله له من الرزق[١]:

ومن آثار الإيمان بالقدر رضا المؤمن بما قسم الله له وقناعته بما يأتيه من الرزق، ولهذه القناعة ثمرات طيبة منها:

١- غنى القلب: فمنِ الناس مَنْ لو أوتي واديًا من ذهب لابتغى له ثانيًا، ولو أوتى ثانيًا لتمنى له ثالثًا، والغنى الحقيقي هو غنى النفس كما في الحديث الصحيح «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**»[٢]، والمراد بالعرض هنا المقتنيات والممتلكات التي يمتلكها الإنسان.

٢- ومنها الإجمال في الطلب: فالمؤمن يسعى إلى رزقه ويكدح في حياته ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يجرون كأنما يجرون وراء ذهب سائل، فلا يكادون يلتمسون راحة الجسد أو إراحة البال، وفي الحديث القدسي: «إن روح القدس نفث في روعي: إنَّ نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[٣].

قال ابن القيم: «من ملأ قلبه من الرضا بالقدر ملأ الله صدره غنى وأمنًا وقناعة،وفرَّغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، ومن فاته حظه من الرضا امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه، فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله»[٤].

---

(١) الإيمان بالقدر (ص٩٢-٩٣) بتصرف.

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ حديث رقم (٦٢٤).

(٣) صحيح الجامع ـ للشيخ الألباني ـ حديث رقم (٢٠٨٥).

(٤) مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣ (١/ ١٧١).

تنبيه: فوائد الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة وثمراته جليلة وفيرة[١]؛ ولكن اقتصرت على هذه الخمس لما لها من علاقة بالسنن الإلهية والتي قد نحتاجها في ما هو آت من بقية صفحات الكتاب إن شاء الله تعالى والله أعلم.

(١) لا بأس بذكر عدد منها هنا: التوكل، وقوه الرجاء، وإحسان الظن بالله، والتواضع، والكرم، والشجاعة، وترك الجبن والخوف، وطلب الحوائج بعزة النفس، والاعتدال في حال السراء والضراء، والسلامة من الحسد والاعتراض، والثبات في مواجهة الطغيان، [ينظر في ذلك:الإيمان بالقضاء والقدر، لمحمد الحمد،والإيمان بالقدر ـ للقرضاوي].

المبحث الرابع

بين التدين الحقيقي والتدين المغشوش

يدور هذا المبحث حول بيان ماهية التدين وحقيقة الالتزام بما أنزله الله في كتابه من أوامر ونواهٍ وبين واقع المسلمين قربًا وبعدًا من ذلك، ومظاهر التدين الذي لا يرضاه الله تعالى والذي أسميناه بالتدين المغشوش، وعلاقته بالسنن الإلهية، وبهذا تكوَّنت لدينا أربعة محاور:

المحور الأول: مفهوم التدين في اللغة وفي عرف الناس في هذا العصر:

(أ) **التدين لغة:** قال ابن منظور: «يقال دان بكذا ديانة وتدين به فهو من دَيِّن ومتديِّن، وديَّنْتُ الرجل، إذا وكلته إلى دينه، والدين: الإسلام وقد دِنْتُ به»[(١)]، هذا هو معناه في المعاجم القديمة.

وإذا نظرنا إلى المعاجم الحديثة[(٢)] فنأخذ مثلاً المعجم الوسيط نجد معناها «تدين بكذا أي دان به، والدِّين: ما يتدين به الإنسان»، وهو اسم لجميع ما يعبد به الله وهو يعنى أيضًا «الملة والإسلام والاعتقاد»[(٣)].

وبناء عليه فإن التديُّن يعنى أَنْ يتخذ الإنسان دينًا يعتقده، ويعمل بجميع ما فيه من معتقدات وعبادات ومعاملات وغيرها، ولكن فيما يبدوا أن هذا المفهوم أخذ طابعًا جديدًا كما سنبينه في الفقرة الآتية.

(ب) **مفهوم التدين في عرف الناس اليوم:** كثر النطق بهذه الكلمة على ألسنة العامة والمثقفين من العرب وغيرهم على حد سواء، في العقود الأخيرة من القرن العشرين،

(١) لسان العرب مادة «دين»، ولها معانٍ أخر لكن اخترنا هنا ما يليق بالمقام.

(٢) المعاجم اللغوية الحديثة ـ المراد بها هي التي كتبت ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الثاني من القرن العشرين كالمحيط ومحيط المحيط والمعجم الوسيط وغيرها.

(٣) المعجم الوسيط تأليف مجموعة من الباحثين ـ مجمع اللغة العربية ـ المكتبة العلمية ـ طهران (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

وهي عند السواد الأعظم تعني: الالتزام بتعاليم الدين والتقوى والورع وربما يتعدى عند البعض إلى حسن الخلق اتباعًا لدين معين[١].

وانتشار هذه الكلمة في المشهد الثقافي والفكري المعاصر لم يحصل إلا قبل بضعة عقود - كما أشرت - وإلا فإنه مِن المعلوم ضرورةً أن الأصل في المسلم أن يكون ملتزمًا بدينه، ممتثلًا للأوامر مجتنبًا للنواهي.

والمستنكر في هذا المقام هو أن يوصف المسلم في وسط مجتمع إسلامي أنه متدين؛ وهذا فيه مؤشر خطير؛ ألا وهو أن البقية غير متدينين أي أنهم لا يمتثلون الأوامر، ولا يجتنبون النواهي مع أنهم مسلمون، ولهذا لم يكن مصطلح التدين معروفًا بين المسلمين الأوائل منذ عصر الصحابة وإلى أواخر الدولة العثمانية.

ونخلص مـن هذا كله إلى أن فكرة التدين مقصودها على اللسان العربي اليوم ما هي إلا إفراز لواقع الهوية والاعتقاد في المنطقة العربية حاليًا، وشيوعها - هذه الكلمة - يجسد لنا بقوة الصورة الواقعية وهي: لقد صار الالتزام بمنهج الحياة ومبادئ العقيدة الإسلامية أمرًا يقتضي أن يوصف به المرء أو يتحلى به حتى يقال: «إنه متدين»[٢]، وغيره ليس كذلك أي غير متدين كما سبقت الإشارة إليه.

المحور الثاني: المفهوم الحقيقي للتدين ومرتكزاته:

قبل بيان ماهية التدين الحقيقي لا بد من الإشارة إلى فرق جوهري بين الدين والتدين، إذ أن الدين المراد به هنا هو الشرع الذي أنزله الله تعالى ليكون نورًا وهدى يضئ للناس حياتهم الدنيوية؛ ليكون سببًا في سعادتهم في الآخرة؛ وأما التدين فهو تفاعل الناس مع هذا الدين أو بعبارة أخرى: حالة بشرية لها ما لها وعليها ما عليها،

(١) مقتبس من مقال ـ للأستاذ أحمد القطب ـ إسلام أون لاين ـ صفحة صحافة وفن ـ بتصرف.
(٢) المقال السابق ـ للأستاذ أحمد القطب، بتصرف.

فكان لزامًا التفريق بين الدين كنور وهداية صادقَيْنِ أبدًا وبين التدين كنمط سلوكي قد تعتريه نواقص؛ وقد تتخلله آفات تكبر وتصغر وفق الشخص المتدين»[١].

وفي هذا السياق يقول الدكتور عبد المجيد النجار:

«إن حقيقة الدين تختلف عن حقيقة التدين إذ الدين هو ذات التعاليم التي هي شرع إلهي، والتدين هو التشرُّع بتلك التعاليم فهو كسب إنساني، وهذا الفارق في الحقيقة بينهما يفضي إلى فارق في الخصائص واختلاف في الأحكام بالنسبة لكل منهما»[٢].

وأما الركائز التي يرتكز عليها التدين الحقيقي: فهي كثيرة ولكن يمكننا أن نشير إلى أهمها بحسب ما يسمح به المقام:

الركيزة الأولى: أن ينبني التدين الحقيقي على الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية وهي المأخوذة من الكتاب والسنة، وعلى فهم سلف الأمة، دون الخوض في جدل المتكلمين وتعقيداتهم، وهي عقيدة سهله مبسطة واضحة موافقة للفطرة السليمة، تعطي صاحبها الطمأنينة في القلب؛ والوضوح في العقل والرسوخ في العلم.

الركيزة الثانية: الفهم الصحيح للإسلام ومنهاجه الوسط الذي جاء به؛ وبه تميزت أمة الإسلام على سائر الأمم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣]، «وفي هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يظنُّ كثير من الناس أن التقاءها ضربًا من المحال، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتساق المبدع فهو يضع الموازين بالقسط بين الربانية والإنسانية، وبين الوحي والعقل وبين الروحية

(١) موقع المسلم ـ إشراف أ. د ناصر بن سليمان العمر، مقال للأستاذ حسين الأشرف بعنوان «عافية الدين وعلل التدين».

(٢) في فقه التدين فهمًا وتنزيلًا – للدكتور عبدالمجيد النجار – سلسلة كتاب الأمة عدد (٢٢) من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بدولة قطر (١/ ٢٨).

والمادية وبين الدنيوية والأخروية وبين المسؤولية والحرية وبين الثبات والتغير»[١]، إلى آخر المتقابلات.

الركيزة الثالثة: أن ينبني هذا التدين على أداء الفرائض ونوافلها دون إفراط ولا تفريط، وذلك بحيث لا يخلُّ بشيء من واجباته الأخرى تجاه أهله ومجتمعه ووظيفته على قاعدة «**أعط كل ذي حق حقه**». وكما يجب عليه أن يأخذ بالعبادة الظاهرة فيجب عليه أن يأتي بالعبادة الباطنة كالخوف والرجاء والمحبة والخشية وغيرها من الأعمال القلبية.

الركيزة الرابعة: العلم بأن الأخلاق يجب أن تكون في خط متوازٍ مع العبادات كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»[٢]، «**إن المؤمن ليدرك بحسن الخُلُق درجةَ الصائم القائم**»[٣].

الركيزة الخامسة: أن يعلم المتدين «أن فقه الدين ليس كافيًا في تحقيق الغاية التي من أجلها نُزل هدية للناس، إذا الغاية تكييف الحياة في التصور والسلوك في واقعها الزمني، في الاتجاه الذي يحقق الخلافة في الأرض، وليس فهم التعاليم إلا المرحلة الضرورية التي تسبق تكييف الحياة إلا أنها ليست بالضرورة مؤدية إليها باعتبار ذاتها، فقد يحصل فهم الدين ولكن لا يحصل تطبيق الدين – أي التدين – على وجه قويم يؤدى إلى الغرض من الدين»[٤].

ويمكننا أن نختم هذه الركائز بما قاله الدكتور عبد المجيد النجار: «وقد يبدو لبعضهم أنه إذا حصل فقه بالدين وإيمان به كان ذلك كافيًا بذاته لأنْ ينصلح به، واقع

(١) الإسلام حضارة الغد ـ للدكتور يوسف القرضاوي (١٥٠-١٥١) بتصرف.
(٢) رواه أبو داود حديث رقم (٤٦٨٢)، والترمذي حديث رقم (١١٦٢).
(٣) رواه أبو داود حديث رقم (٤٧٩٨)، والحاكم (١/ ٦٠)، وقال: صحيح على شرطهما.
(٤) في فقه التدين فهمًا وتنزيلًا: للدكتور عبد المجيد النجار – سلسلة كتاب الأمة – عدد (٢٢) – من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر (١/ ٣١-٣٢) بتصرف.

الأفعال الإنسانية؛ على أنَّ التعمق في فهم طبيعة الحياة الإنسانية وعلاقتها بالمبادئ والمثل، والتعمق في فهم آدب الفقه الإسلامي في عهود نضجه وازدهاره يفضي إلى الاقتناع بأن إنجاز الدين في الواقع الزمني يحتاج إلى فقه خاص زائد على فقه الدين وهو فقه التدين، لأن هذا الأخير يدور على العلاقة بين عناصر ثلاثة وهي: الكتاب والسنة والواقع الذي يعيشه الإنسان، وهذا الواقع عنصر شديد التعقيد في أسبابه وتفاعلاته، بينما الفقه في الدين قائم على الكتاب والسنة وحسب»[١].

وخلاصة القول أن التفقه في الدين شيء والتدين الحقيقي شيء آخر، ولهذا كانت مطالعة سير الصالحين ضرورية جدًّا لمن أراد أن يحقق التدين الحقيقي في حياته، لأن سيرهم تكشف عن تدينهم أي إنزال الدين في واقع حياتهم، والله أعلم.

المحور الثالث: التدين المغشوش ومظاهره:

أولًا: مفهوم التدين المغشوش: لا نريد الدخول في تفاصيل لغوية إنما نريد بيان مفهوم التدين المغشوش في واقعنا المعاصر، وفي ذلك يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «التدين المغشوش له معنيان الغش في الفهم سوء الفهم أو سوء السلوك فأحيانا الإنسان يكون غش التدين عنده لأنه سئ الفهم للدين يخلط بين الأشياء بعضها لا يميز بين العقائد والأعمال،لا يميز بين الكبائر والصغائر، لا يميز بين الفرائض والنوافل، لا يميز بين المحرمات والمكروهات، لا يميز بين المختلف فيه والمتفق عليه، بالعكس نجده يهتم بالمختلف فيه قبل المتفق عليه يهتم بالنوافل قبل الفرائض، يهتم بالأشياء المكروهة قبل الأشياء المحرمة والأشياء التي اختلف فيها العلماء يعمل عليها معارك»[٢].

---

(١) المرجع السابق: نفس الموضع.

(٢) موقع الجزيرة نت ـ برنامج الشرعية والحياة لقاء مع الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان التدين المغشوش بتاريخ ١٨/ ٤/ ٢٠٠٧ بتصرف.

يؤخذ من هذا الكلام أن كلًا من سوء الفهم للدين وسوء العمل به في مجال الأخلاق والعبادات يؤدي إلى أن يكون صاحبه صاحب تدين مغشوش.

وهناك مَنْ يغتر بظواهر الناس فيعتقدهم أنهم متدينون وهم في الحقيقة أصحاب تدين مغشوش؛ لأن سوء الفهم للدين إنما هو أمر خفي لا يظهر إلا عندما يُستفتَى الإنسان كما في حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن عالم يستفتيه فدله الناس على راهب فأفتاه بعدم قبول توبته فقتله فكمل به المائة، فكان سوء فهم هذا الراهب سببًا في قتله.

ثانيًا: مظاهر التدين المغشوش: يمكننا أن نستعرض أقوال بعض العلماء والباحثين في استجلاء هذه المظاهر، وقد لا نأتي عليها كلها ولكن بحسب ما يسمح المجال:

١- أن يرى المتدين نفسه أفضل من غيره:

وعبَّر عن هذا المظهر وبيَّن سببه الباحث يوسف الأشرف بقوله[(١)]: ولعل الكبر أحد أهم هذه العيوب والأخطاء، فبعض المتدينين لديهم تقدير زائف للذات، يشوبه أحيانًا الشعور بازدراء الناس والترفع عليهم. وهو سلوك خطير يحاول من خلاله المتدين أن يظهر بصورة أعلى وأسمى أمام الآخرين، فيسعى جاهدًا -قصد ذلك أم لم يقصده- إلى التعالي بالقول والفعل كي يترسخ الإحساس عند الغير بأن فلانًا شخص هام وليس عاديًا، أو أن تدينه يجعله متساميًا على الناس، مترفعًا على سفاسف البشر، وهو شعور ناتج عن نقص نفسي، وخلل تربوي عند هؤلاء الملتزمين، وجهل فظيع بمآلات الكبر وعقوباته التي ذكرها القرآن الكريم في غير ما آية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. و﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[(٢)].

---

(١) موقع المسلم ـ بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر سليمان العمر مقال بعنوان عافية الدين وعلل التدين.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٩١).

وربما تتضح هذه الخصلة عند ما يقال لأحدهم «اتق الله» فبدلًا من أن يلين ويستكين لهذه الكلمة تجده يغضب ويستنكر أن يقال له اتق الله وقد قيلت لكثير من السلف فتوقفوا عما هم فيه من قول أو عمل خوفًا من الله تعالى.

٢- أن يهتم بالظاهر أكثر من اهتمامه بالباطن:

وفي هذا يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «صاحب التدين المغشوش يحرص على الظاهر ولا يحرص على طهارة الباطن والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(١)]، والقرآن يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، سليم من الشرك سليم من النفاق سليم من الرياء سليم من الأحقاد سليم من الكبر سليم من الرذائل؛ هذا القلب السليم والقلب المنيب: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣].

فالعبرة بأعمال القلوب لا بأعمال الجوارح ويجب أن يعلم أن طاعات القلوب أهم بكثير جدًّا من طاعات الجوارح ومعاصي القلوب أخطر بكثير وكثير من معاصي الجوارح ومعصية إبليس كانت من معاصي القلوب ومعصية آدم كانت من معاصي الجوارح ولذلك سرعان ما تاب آدم منها: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، لم يَتُبْ إبليس لأنه أبى واستكبر: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقف يتحدى الألوهية يعنى فالتدين المغشوش هو الذي يعنى بظواهر الأعمال، ولا يعني بما في القلب أن يعمر قلبه بتقوى الله، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إلى صدره وقال: «**التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**»[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم (٢٥٦٤).

(٢) موقع القرضاوي والجزيرة لقاء مع الدكتور يوسف القرضاوي برنامج الشريعة والحياة.

٣- ومن مظاهره أن العبادات لا تؤثر في سلوكه:

فمن المقرر في الشريعة أن الله تعالى شرع العبادات لتُهذِّب النفوس ولتُحسِّن الأخـلاق ففي الصلاة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وفي الزكاة يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وفي الصوم يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. فمن كان صاحب عبادات كثيرة ولكن خلقه سيء أو يأكل أموال الناس بالباطل فتدينه مغشوش، وفي حاجة إلى مراجعة لتلك العبادات وكيفية أدائه لها.

٤- ومن مظاهره عدم العمل بفقه الأولويات: وهذا يعنى أنه يقدم الأهم على المهم أو النفل على الفرض أو يعطي الأحكام الشرعية ما هو أصغر أو أكبر من حجمها أو عدم معرفة الوقت والمكان المناسبين، ولهذه الظاهرة أمثلة كثيرة ومتنوعة:

* فمنهم من يحرص على أداء القيام والتراويح في رمضان، وقد يغيب عن صلاة الصبح.

* ومنهم من يكون مع الناس في المسجد أو في العمل حسن الخلق صاحب ابتسامة واسعة ولكنه مع أهله وأولاده أسد ولا يكاد يبتسم إلا قليلًا.

* ومن هؤلاء من يؤدي العمرة مرات ومرات وهو عليه ديون لا يؤديها، وقد يكون عليه دين للعامل الذي يعمل في بيته أو شركته أعني رواتب لأشهر عديدة لم يعطها إياه، ويراه هذا العامل وهو يعتمر دون أن يعطيه راتبه.

* ومنهم من يقدم بر صديقه أو شيخه على بره لأبيه وأمه إلى غير ذلك من مظاهر الفهم وسوء السلوك، والتدين المغشوش.

٥- ومن مظاهره التشدد في غير موضعه:

ولا شك أن التشدد في غير موضعه ناتج عن قله فقه للقضايا الشرعية، فمن الأمثلة الواقعية ما أشار إليه الشيخ محمد الغزالي: «وهم يسمعون أن شعب الإيمان سبعون شعبة بيد أنهم لا يعرفون فيها رأسًا من ذنب ولا فريضة من نافلة، والتطبيق الذي يعرفون هو وحده الذي يقرون... فالسواك سنة، ومن حقنا أن ننظف أسناننا بأي فرشاة وأي معجون، المهم نظافة الفم، وهؤلاء ينظرون إلى مَنْ لا يستعمل السواك نظرة مريبة لماذا لا يجعله في عروته مع القلم؟ ولماذا لا يخرجه في المسجد وينظف فمه في الصف ثم يعيده بما فيه في جيبه؟ هذا هو الدين عندهم»، ويقول بعد ذلك بأسطر:

«والمجال الرحب للغالين في دينهم ينفسخ عندما ينظرون في ذنوب الناس، إنهم يسارعون إلى الحكم بالفسق أو الكفر، وكأن المرء عندهم مذنب حتى تثبت براءته على عكس القاعدة الإسلامية»[(١)].

لعلي بهذه المظاهر الخمس أكون قد أتيت على أهم مظاهر التدين المغشوش، وقد يوجد غيرها كثير، ولكن بهذه حصل المقصود إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا المحور بالتنبيه إلى أن مخالفة أي مرتكز من المرتكزات التدين الحقيقي يعني الوقوع في نوع ما من أنواع التدين المغشوش.

المحور الرابع: علاقة التدين المغشوش بالسنن الإلهية:

إن الوقوع في مظاهر التدين المغشوش يعطل أو يؤخر عددًا من السنن الإلهية التي أجراها لأهل الإيمان منها ما يأتي:

الأول: ميراث الأرض جعله الله لأهل الإيمان والعمل الصالح: المراد بميراث الأرض أن الله يمكن للصالحين فيحكمون فيها بشرع الله تعالى وتلك سنة أشارت

(١) موقع منتدى الحوار الإسلامي ـ مقال بعنوان التعدد والاختلاف للداعية الشيخ محمد الغزالي ـ بتاريخ ٤/ ٩/ ٢٠٠٣.

إليها الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، قال ابن عباس: «أي أرض الأمم الكافرة يرثها المؤمنون ويستولون عليها بالفتح»[(١)]، ولا أظن أن أصحاب التدين المغشوش من أهل الصلاح في شيء، فإنْ كثر وجودهم بين المؤمنين كانوا هم السبب في تأخير ميراث الأرض عن أهل الإيمان.

الثانية: النصر على الأعداء جعله الله لأهل الإيمان والتقوى:

للنصر على الأعداء أسباب[(٢)] مادية وأسباب معنوية ومن تلك الأسباب المعنوية

(أ) **الإيمان الصادق:** واليه تشير الآية الكريمة: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١]، وهي من الوضوح بمكان.

(ب) التقوى: وإلى ذلك تشير آيات عديدة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وهناك أسباب أخرى تركتها خشية الإطالة[(٣)].

وأصحاب التدين المغشوش ليس عندهم من الإيمان الصادق ما يجعلهم يثبتون على الحق؛ ولا من الصبر ما ينازلون به الأعداء؛ ودليلنا على ذلك هو عدم صبرهم على شهوات وملذات كان من السهولة أن ينتصروا عليها إذًا قوى إيمانهم ولكن هذا لم يحدث.

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٣٤٩).

(٢) لمعرفة تلك الأسباب بالتفصيل: ينظر السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ دكتور مجدي عاشور (ص٣٦٩-٣٩٢).

(٣) منها الصبر والصدق، والإخلاص، والشجاعة، إلى غير ذلك.

الثالث: الحياة الطيبة جعلها الله لأهل الإيمان والعمل الصالح:

من السنن الإلهية أن الله وعد بالحياة الطيبة في الدنيا لمن آمن وواظب على عمل الصالحات ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ هذه في الدنيا ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، هذه في الآخرة.

ولا شك أن أعمال أصحاب التدين المغشوش لا ترقى بهم إلى الحياة الطيبة، كما أشرنا سابقًا؛ يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: «ولا شك أن هذه الآية تبين سنة من سنن الله ووعدًا صادقًا منه تعالى، فإنَّ مَنْ يعمل صالحًا ذكرًا كان أم أنثى فإنه سيحيى في هذه الدنيا حياة طيبة ييسرها الله تعالى له جزاء عمله الصالح»[1].

بناءًا على ذلك وعلى كل ما تقدم يجب على المؤمن أن يسعى لفهم دينه الفهم الصحيح الذي يريده منه الله تعالى ويرجع إلى المنبع الصافي والبيان الوافي أعنى بذلك الوحي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وألا يستقل بفهمه بل يرجع إلى العلماء الربانين لكي يفهم دينه فهمًا صحيحًا، ثم يجتهد بعد ذلك في العمل الصالح والمعاملة الطيبة والأخلاق الكريمة، ليكون من أصحاب التدين الصحيح لا المغشوش والله أعلم.

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ـ د. عبد الكريم زيدان (ص٢٧٧).

+

السنن الإلهية في الأنفس

المبحث الأول: سنة الله تعالى في الابتلاء.

المبحث الثاني: سنة الله تعالى في الجزاء من جنس العمل.

المبحث الثالث: سنة الله تعالى في التغيير الاجتماعي.

المبحث الرابع: السنن الإلهية الفاعلة في تغيير الأمة الإسلامية.

المبحث الأول

سنة الله في الابتلاء

وهذه السنة من أعظم السنن الإلهية في الأنفس ومن أبرزها وأظهرها لكافة الناس؛ لأنها من الواقع الذي يعيشونه، وسوف نتحدث هنا في بيان حقيقة الابتلاء ومظاهره وأنواعه، من ابتلاء التكاليف الشرعية، وابتلاء بالشدائد والمصائب أو النعم والوفرة في الرزق وغير ذلك من أنواعه، كما سنذكر الحِكم الإلهية من ابتلاء الخلق وما ستؤدي إليه تلك الابتلاءات من نتائج.

ومعرفة هذه السنة ضرورية لكل إنسان سواء أكان مسلمًا أم كافرًا، برًا كان أم فاجرًا، وذلك لأن في معرفتها معرفة قيمة حياته الدنيوية وقيمة تشريفه كإنسان، ولذا تضمن هذا المبحث أربعة محاور على النحو الآتي:

المحور الأول: تعريف الابتلاء لغة وشرعًا:

أما الابتلاء لغة: فهو مأخوذ من بلوت الرجل بَلْوًا وبلاءًا، وابتليته: أي اختبرته، ويقال: بلاه الله بلاءًا وابتلاءًا أي اختبره، فالابتلاء في الأصل: الاختبار والامتحان[١].

والبلاء يكون في الخير والشر من غير فرق بين فعليهما[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وأما الابتلاء شرعًا: فقد ورد في القرآن على ثلاث أوجه[٣]:

فالأول: بمعنى النعمة: قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]، أي ينعم عليهم ليوصلهم أعلى الدرجات وأرفع المقامات ويعطيهم ثوابًا جزيلًا حين أمتحنهم بالجهاد في سبيله[٤].

---

(١) لسان العرب ـ ماد بلو ـ والقاموس المحيط مادة بلي.

(٢) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٢٧٥) بتصرف.

(٣) المرجع السابق (ص٢٧٦) بتصرف.

(٤) تفسير السعدي (ص٣١٧).

الثاني: بمعنى الامتحان والاختبار: كما في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

الثالث: بمعنى المكروه الذي يصيب الإنسان: كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٤١]» أي نقمة عظيمة[١].

المحور الثاني: الابتلاء سنة إلهية عامة:

خلق الله الإنسان ليبتليه؛ لمجرد كونه إنسان لا لصفة زائدة ولا لسلوك إضافي، فالابتلاء واقع بالمؤمن والكافر، والغني والفقير، والصغير والكبير، والأفراد والأمم[٢]، فلا ينفك الابتلاء عن إنسان البتة[٣].

وقد دل على هذا العموم آيات في كتاب الله تعالى نكتفي بآيتين منها:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ومعنى الآية -كما قال المفسرون-: أن الغاية من خلق الله تعالى الموت والحياة هي الابتلاء ليمتاز مَنْ هو أحسن عملًا مِنْ غيره ومَنْ يستحق رضا الله تعالى ممن يحل عليه سخطه وعذابه[٤].

وليس الاقتصار على ذكر العمل الحسن أو الأحسن دليلًا على حصر الابتلاء فيه، لأن الأعمال السيئة مفهومة بدلالة الفحوى، لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى، لأن إحصاءها والإحاطة بها أولى في الجزاء؛ لما يترتب عليها

(١) مختصر تفسير الطبري ـ لمحمد المعلم ـ مطبوع بهامش مصحف دار الشروق ـ دار الشروق ـ القاهرة (ص١٨٤).

(٢) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ د مجدي محمد عاشور (ص٢٨) بتصرف.

(٣) المرجع السابق (ص٨١) بتصرف.

(٤) روح المعاني للألوسي (٢٩/ ٥)، والكشاف (٤/ ١٣٤)، وابن كثير (٤/ ٣٩٦).

من الاجتراء على الشارع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم وذلك أولى بالعقاب عليه؛ لذلك ففي قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجاز بليغ»[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

قال المراغي: «أي أظننتم أيها الأشقياء -بحسب ما قبلها- أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبًا وباطلًا؟ كلا بل خلقناكم لنهذبكم، ولنعلمكم لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه، لا كما ظننتم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء؛ وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم لمجازاتهم على ما قدموا من عمل».

وفي هذه الآية إشارة إلا الابتلاء الذي ابتلى الله به البشر ليظهر الطائع من العاصي والمقبل على الله من المدبر عنه. والله اعلم.

المحور الثالث: أنواع الابتلاء:

إن الله قد بين لنا في كتابه أنواع الابتلاءات التي يبتلى بها عباده على مختلف أجناسهم وعقائدهم وأحوالهم ونحن سنكتفي هنا بذكر أهم تلك الأنواع [وما لم نذكره فهو مندرج تحت واحد منها] وهي أربعة:

١- الابتلاء بالتكاليف الشرعية: والمقصود بالتكاليف الشرعية هنا: كلٌ مِن الأوامر والنواهي الشرعية التي جاءت على أيدي الرسل وفي الكتب المنزلة عليهم، ودلَّ على ذلك آيات كثيرة منها الآيتين السابقتين ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]. ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢].

---

(١) تفسير الكشاف (٤/ ٣٤)، والتحرير والتنوير (٢٩/ ١١٥).

والتكاليف الشرعية شاملة لأصول الدين مما يتعلق بالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والملائكة والقدر خيره وشره، وهذا من الوضوح بمكان، وكذلك تدخل الأحكام العملية وهي المسماة بفروع الدين.

«وإنما كان التكليف ابتلاءًا مع ما فيه من سعادة البشر في الدنيا والآخرة لأنه -التكليف- مبيِّنًا عن أحوال الناس في الامتثال للأوامر والترك للنواهي، وممحصًا لدعاويهم وكاشفًا عن دخائلهم»(١).

قال ابن عاشور: «فإطلاق اسم الابتلاء على التكاليف مجاز مرسل، وتسمية ما يلزم التكاليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاءًا استعارة»(٢).

والبشرية اليوم مكلفة باتباع النبي ﷺ لأنه خاتم النبيين ولا يقبل الله دينًا غير الإسلام وعملًا بغير القرآن، فلا يجوز لبشر، كائنًا من كان، أن يتدين بغير الإسلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

٢- الابتلاء بالشدائد والمصائب «الشر»: وهذا النوع من الابتلاء ينزل بالمؤمنين ليختبر صبرهم أو رضاهم بما قدره الله تعالى عليهم، ومن الآيات الواردة في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]».

جاء في تفسيرها: «لنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء وغيره من المصائب البشرية المعتادة في المعايش، وأكد هذا بصيغة القسم لتوطين الأنفس عليه؛ فأعلمهم بأن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان، وانتفاء

(١) السنن الإلهية في الأفراد والأمم ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٢٩٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٣).

المخاوف والأحزان، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في الخلق كما أنَّ مِن سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها(١).

وفي الابتلاء بالشر حكم لا يحيط بها العقل، ولكن في الآية إشارة إلى بعضها؛ حيث قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فالحكمة المقصودة هنا أنَّ مَنْ تلقى الابتلاء بالشر، بالصبر والتسليم وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أنَّ الله سوف يجازيه يوم القيامة على صبره بما جاء بعدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

ومنها ما ذكره ابن القيم بقوله: «فلولا مِحَنُ الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا»(٢).

٣- الابتلاء بالنعم وكثرة الرزق «الخير»:

وهذا النوع ينزل بالمؤمنين ليظهر مَنِ الذي يشكر النعمة، ويستعملها في طاعة الله ويلتمس بها رضوانه، ومَنِ الذي يكفر النعمة وتكون سببًا في طغيانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وورد في قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما جيء له بعرش بلقيس ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، أي ليختبرني بذلك، فلم يغتر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بملكه وسلطانه بل علم أن ذلك اختبار من ربه فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة»(٣).

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٩).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ـ لابن قيم الجوزية ـ تحقيق شعيب، وعبد القادر الارناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ١٤ ـ ١٩٨٦ أ (٤١/ ١٩٥).

(٣) تفسير السعدي (ص٦٠٥).

وقد رسب كثيرون في الامتحان بالسراء لجهله بحقيقة الامتحان. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر:١٥]. وإلى يوم الناس هذا هناك من يفهم أن النعمة إكرام وليست ابتلاءً مع أنَّ الآيات التي بعدها ردت هذا المفهوم الخاطئ فقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر:١٧]، وكلا أداة زجر وردع أي انتهوا وكفوا عن هذا المفهوم الخاطئ.

٤- الابتلاء بالتفاوت بين الناس:

أقام الله تعالى نظام الحياة والأحياء على اختلاف بين الناس، وتفاوتهم في الصفات الوهبية والكسبية[١]، وهذا الاختلاف في حد ذاته ابتلاء؛ ومن أمثلة ذلك أن الأغنياء فتنة للفقراء والأصحاء فتنة للمرضى والأقوياء فتنة للضعفاء والعكس بالعكس وهكذا.

ومن الآيات التي صرحت بهذا النوع من الابتلاء:

قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]، قال القرطبي: «فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس - مؤمن وكافر-: فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، ومعنى هذا أن كل واحد مختَبَر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذلك عن الضجر، وقوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ محذوف الجواب، يعني أم لا تصبرون»[٢].

ومن الآيات الدالة على هذه السنة في الابتلاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

(١) السنن الإلهية ـ في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٣١٤).
(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨).

ووجه الفتنة هنا أنْ يعلم الناسُ أنّ التفاضل الحقيقي والتفاضل النافع؛ إنما هو في طاعة الله والمسارعة إلى مرضاته؛ لا التفاوت في الدنيا الزائلة، والى هذا المعنى جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. وقد يكون هذا الأتقى صعلوك لا مال له ولا زوجه، وقد يكون مَنْ هو دونه في التقوى صاحب مكانةٍ اجتماعيةٍ مرموقة وحال مَرْضيَّة يتمناها أكثر الذين يعيشون مِن حوله.

وفي الحديث: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

٥- الابتلاء بسماع المؤمنين ما يؤذيهم من الكافرين:

والمراد بهذا الابتلاء هو أن يسمع المؤمنون ما يؤذيهم من الكفار، من كلام فاحش في حق الله تعالى، أو حق كتابه، أو حق رسوله ﷺ وإلى هذه جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

جاء في تفسيرها ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ أي: من الطعن فيكم وفي دينكم وفي كتابكم ورسولكم، وفي الإخبار بذلك عدة فوائد:

* منها أن الله أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى(٢).

ونحن لا نزال في هذا العصر نسمع من اليهود في فلسطين المحتلة ومن الدنمارك والدول الأوروبية وأمريكا ما يؤذي أسماعنا، ويزعج قلوبنا، وتضيق به نفوسنا بل

(١) صحيح مسلم حديث رقم (١٩٨٦).
(٢) تفسير السعدي(ص١٦٠) بتصرف.

وتدمع له الأعين كما حدث في الرسوم المسيئة إليهم في الحقيقة لا إلى سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن التنذر بالمصحف الشريف بل وبالذات الإلهية في الأفلام، وغير ذلك، فهذا في حد ذاته آية تدل على أنّ هذا القران كلام الله تعالى.

[ولو أن أحد الدعاة أو العلماء الذين تصدو لمواجهة هؤلاء الكفار انتبه إلى هذه الآية وقال لهم: إن الله قد أخبرنا منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة أنكم ستقولون هذا الكلام في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لعله أن يكون سببًا في إسلام بعضهم. والله أعلم].

المحور الرابع: الحكم الإلهية من سنة الابتلاء[1]:

هذه السنة الإلهية من سنن الله في الأنفس لها حكم جليلة قد أوضحَتْها النصوصُ من الكتاب والسنة ونشير هنا إليها إشارة سريعة بحسب ما تقتضيه المساحة المتاحة.

أولًا: الابتلاء من أجل تمييز الخبيث من الطيب:

الأصل في الابتلاء هو إظهار معادن المكلفين، والتفرقة بين المطيع والعاصي، والمؤمن والكافر، وتلك سنة أصلية مقصودة من التكليف؛ كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣]، وما كان إرسال الرسل وما أوتوا من كتب إلا ليتحقق هذا النوع من الابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب.

ومن التطبيق العملي لهذه الحكمة ما جاء من سياق آيات غزوة أُحُد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، فسنة الله قاضية بأن يُنزِلَ شيئًا مِن المحن على المؤمنين، يُظهِرُ فيها وليَّه ويفضح فيها عدوَّه ويعرف بها المؤمن الصابر من المنافق الفاجر.

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ لمجدي عاشور (ص٣٢٧-٣٤٢) ملخصًا.

ثانيًا: الابتلاء لتكفير السيئات:

والآية الدالة على هذه الحكمة من الابتلاء قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، فقد شق وقعها على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية؟: فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تَلْقَوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيُجْمَع ذلك لهم حتى يجازوا به يوم القيامة**»(١).

وفي الحديث الآخر: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»(٢).

ثالثًا: الابتلاء للإنذار والتحذير:

وقد يكون الابتلاء الإلهي لأجل التحذير للأمم والأفراد، حتى يرجعوا عما هم فيه من المخالفات، ويتوبوا إلى الله عما ارتكبوا من الخطيئات، وقد دلت النصوص على ذلك.

منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢]، لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى نفوسهم وينقوا من ضمائرهم، ويغيروا من واقعهم وينجوا فيتفرغون إلى الله ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة فيرفعه الله عنهم ويفتح لهم أبواب الرحمة(٣).

---

(١) سنن الترمذي، وقال: هذا الحديث غريب وفي إسناده مقال.

(٢) الأدب المفرد ـ للإمام محمد بن اسماعيل البخاري ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٩ (ص١٧٤)، وسنن الترمذي حديث رقم (٣٠٣٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وهو يعضد الحديث السابق لأنه في معناه.

(٣) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ لمجدي محمد عاشور (ص٣٣٨).

ولا يزال البشر إلى عصرنا هذا تصيبهم البلايا والمصائب؛ وهو ما يسمى لدى البعض بالكوارث، فهذا طوفان تسونامي وهذا بركان السويد وتلك أعاصير كاترينا وغيرها ولكن هل من معتبر ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٣١].

وإن الذي لا يعتبر بآيات الله الكونية المشار إليها يدخل في عموم الخاسرين الذين خسروا أنفسهم، وأضاعوا أعمارهم؛ وما ينتظرهم في الآخرة أنكى وأشد.

المبحث الثاني

سنة الله في الجزاء من جنس العمل

ومن سنن الله تعالى التي مضت في تعامله مع البشر أن جعل سبحانه الجزاء الذي يجازيهم به من جنس أعمالهم التي تصدر منهم وذلك وفق عدله وحكمته جَلَّ وَعَلَا، وهذه السنة عامة في الدنيا والآخرة ومع كل أحد كما سيأتي بيانه.

كما أنه تعالى جعل خلقه بذلك قدرًا أنزله في كتابه آمرًا عباده أن يأخذوا به سنة وشرعًا، فكان ثبوت هذه السنة من الناحية القدرية والشرعية.

ومن هنا كان البحث في هذه السنة من ثلاثة محاور على النحو التالي:

المحور الأول: في معنى الجزاء والجنس لغة وشرعًا:

١- الجزاء لغة وشرعًا: أما الجزاء لغة: هو المكافأة على الشيء كقول جزاه به وعليه جزاءًا[(١)].

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «جزي يجزي جزاءًا أي كافأ بالإحسان وبالإساءة»[(٢)]، ويقال: جزي الأمر يجزي جزاءًا مثل قضى، يقضي، قضاء، وزنًا ومعنى وفي التنزيل: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [البقرة:٤٨]، وفي الدعاء: «جزاه الله خيرًا أي قضاه، وأثابه عليه»[(٣)].

وأما الجزاء شرعًا: فهو في اصطلاح القرآن يأتي على عدة أوجه:

(١) القاموس المحيط ولسان العرب ـ مادة جزئ.

(٢) كتاب العين ـ للخليل بن أحمد الفراهيدي ـ تحقيق عبد الله درويش ـ مطبعة العمل ـ بغداد ـ ١٩٦٧ (٦/ ١٦٤).

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ـ للإمام أحمد بن محمد الفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ مادة جزئ.

١- ثواب الخير والشر: كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧].

ثم يختلف فالجزاء على الإحسان إحسان كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وجزاء السيئة: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، وهكذا.

٢- المكافأة والمقابلة: كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل:١٩]، أي تقابل.

٣- القضاء والأداء: كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٤٨] أي لا تقضي ولا تؤدي.

٤- الغنية والكفاية: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣] أي لا يغني عنه شيئًا.

٥- العِوَض والبدل: كما في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] أي فبدله.

والمراد في بحثنا هذا الجزاء الذي هو بمعنى الثواب والعقاب أو ثواب الخير والشر وهو النوع الأول.

٢- الجنس لغة وشرعًا:

أما الجنس لغة: فهو الضرب ـ النوع ـ من كل شيء، وحُكي عن الخليل: «هذا يجانس هذا أي يشاكله»[(١)]؛ ولذلك قال صاحب القاموس المحيط: «المجانس المشاكل»[(٢)]، وقيل: الجنس ـ الأصل والنوع[(٣)].

---

(١) لسان العرب ـ مادة جنس.

(٢) القاموس المحيط ـ مادة جنس.

(٣) المعجم الوسيط ـ مادة جنس.

وأما الجنس شرعًا: لم ترد كلمة «جنس» بلفظها في القرآن الكريم ولكن ورد بعض معانيها وهو المشاكلة وتلك أيضًا من حيث أسلوبها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥]، فقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ جاءت على سبيل المشاكلة في المعاملة وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١١] وغيرهما كثير.

خلاصة مفهوم هذه السنة الإلهية أن يقال: إن الله تعالى يجازي العباد على حسب أعمالهم إن خيرًا فخيرًا أو شرًّا فشر، في الدنيا والآخرة لأنه من أسمائه عَزَّوَجَلَّ الحَكَمُ، العَدْلُ وهو موصوف بالحكمة والعدل. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

المحور الثاني: التطبيقات القرآنية لسنة الجزاء من جنس العمل:

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن هناك عددًا كبيرًا من تطبيق هذه السنة الإلهية وذلك في الدنيا والآخرة على حد سواء ولكن لضيق المجال نكتفي بذكر ثلاث آيات بها يثبت المطلوب.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [الأنعام:١٢٩]

قال البقاعي: «هذا عمله ـ سبحانه ـ مع كل ظالم مِن أي قبيل كان، يجمع بين الإشكال في الأوصاف الباطنة والخصال، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والأوجاع والأنكال»[(١)].

قال الفخر الرازي: الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالمًا مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم[(٢)].

(١) نظم الدر في تناسق الآيات والسور ـ للبقاعي (٧ / ٢٧٠-٢٧١) بتصرف.
(٢) تفسير الرازي (٥/ ٥٧٤).

والواقع الذي نعيشه اليوم خير شاهد على هذه الآية: ترى الرجل يظلم زوجته وأولاده في البيت بالضرب أو يمنعهم حقوقهم فيمنعه رَبُّ عمله حقَّه في العمل أو الترقية في الوظيفة، وترى الظلم بين الناس في كل مجال فلهذا تسلط علينا الحكام الظلمة حتى يكاد العاقل أن يقول: ليس في الأرض اليوم شيء اسمه عدل.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]. والمكر هو إيصال المكروه إلى الغير على وجه يخفى عليه [١].

وهو نوعان:

١- **المكر المحمود**: وهو ما يتحرى به صاحبه فعل الجميل.

٢- **المكر المذموم**: وهو ما يتحرى به فعل القبيح، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [٢].

٣- قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يقول ولا ينزل المكر السيئ إلا بأهله يعني الذين يمكرون، وإنما عنى أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركين إلا بهم» [٣].

وقال القرطبي: عن ابن عباس أن كعبًا قال له: إني أجد في التوراة: مَنْ حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فقال ابن عباس: إني أُوجدُك في القرآن ذلك، قال: وأين؟ قال: فاقرأ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ في المثل العربي: «من حفر لأخيه جبًّا وقع فيها منكبًّا» [٤].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

---

(١) تفسير روح المعاني ـ للألوسي (٣/ ١٤٦).
(٢) المفردات للأصفهاني ـ مادة مكر.
(٣) تفسير ابن جرير (١٠/ ١٤٦).
(٤) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٥٩-٣٦٠).

واضح من الآية أن جزاء الحسنة من جنسها وضاعف الله ذلك الجزاء برحمته، وأن جزاء السيئة من جنسها ولم تضاعف لأن الله لا يظلم أحدًا.

قال سيد قطب: «بمناسبة الحساب والجزاء قرر الله ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده فجعل لِمَنْ جاء بالحسنة وهو مؤمن -فليس مع الكفر حسنة- ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. ولا يبخسه حقه»[(١)].

ذكرت آيتين في معاملة الله الناس بهذا السنة في الدنيا وآية واحدة في معاملته لهم في الآخرة وهذا يكفي في بيان هذه السنة الإلهية.

المحور الثالث: تطبيق العباد بإذن من الشرع لهذه السنة فيما بينهم:

كما أن الله عامل عباده بسنة كون الجزاء من جنس العمل، فقد أمر عباده بالتعامل بها فيما بينهم؛ ليتحقق العدل والأمان في المجتمع، بين الأفراد والجماعات والأمم، فأنزل الآيات التي توجب العمل بهذه السنة، وبهذا يتبين أن الشرع والقدر قد تظاهرا على تقرير هذه السنة الإلهية، وتلك القاعدة الشرعية[(٢)]، وقد عدها ابن القيم من حكمة الله البالغة في خلقه[(٣)]. ومن الأمثلة على ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]، وهذا جاء في سياق الآيات التي تنظم حقوق الأفراد والجماعات، وتبين ما لهم وما عليهم في الدماء والأعراض، وأن المعتدي لا بد أن يُقتَصَّ منه؛ إلا أن يعفوا المعتّدىَ عليه أو مَنْ ينوب عنه[(٤)]، ولهذا قال

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١١٤٠).

(٢) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٢٦٣) بتصرف.

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ لابن قيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (١/ ٢٩١).

(٤) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٢٦٣-٢٦٤) بتصرف.

بعدها: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ترغيبًا في العفو الذي هو أصلح لنفوس العباد وأعظم لهم في الأجر.

ولقد وصف الرازي هذه الآيات بأنها أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابَلَ كلَّ جناية بمثلها، وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان، لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان؛ فإذا لم يُزجَرْ عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب. فهو ظلم والشرع منزه عنه، فلم يبق إلا المقابل بالمثل[1].

وورد في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٤٩].

٢- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة:١٧٨].

والقصاص: بوزن فعال من القص وهو القطع ومنه الآلة المشهورة «المقص» فشبه سبحانه التناصف بالقطع؛ لأنه يقطع النزاع الناشب قبله؛ وما هية القصاص تتضمن ماهية التعويض والتماثل، فلذلك سمى القَوَد وهو تمكين وليِّ المقتول مِن قَتلِ القَاتِل مولاه قصاصًا[2].

وأَختِمُ الحديث حول هذه السنة الإلهية بالقول: إن المؤمن إذا طبق هذه السنة في تعامله مع الله تعالى، وجد الجزاء الحسن إذا أحسن ووجد الجزاء الآخر إذا أساء، عياذًا بالله تعالى، فكان على كل مؤمن الحذر من الإساءة، لئلا تنطبق عليه هذه السنة بما

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٥٠).

(٢) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص٢٦٥) بتصرف.

يكره؛ لأن الله لا يحابي أحدًا ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

وكذلك يجب على مَنْ أراد أن يحسن الناس إليه أن يكون هو السابق بالإحسان إليهم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحب للناس ما تحب لنفسك**»(٢).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ الحديث رقم (٢٨٠).

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٥٥١)، وسنن ابن ماجه حديث رقم (١٤١٠)، وقال في مصباح الزجاجة عن إسناد ابن ماجه: هذا إسناد صحيح (٤/ ٢٤٠).

المبحث الثالث

سنه الله تعالى في التغيير الاجتماعي

إذا كان الكلام السابق في هذا الفصل حول السنن الإلهية في الأنفس فيما يتعلق بعلاقة النفس بربها أو ببني جنسها معاملة فردية، فإن هذا المبحث يبحث في سنة إلهية لها تأثيرها الكبير في المجتمعات البشرية على سبيل العموم؛ ونتائج هذه السنة يظهر عبر الأجيال هدمًا أو بناءًا، سلبًا أو إيجابًا، تقدمًا أو تأخرًا، ولها علاقتها الوطيدة بعلم الاجتماع، بل هي لُبّه وأساسه، وقد وردت هذه السنة الإلهية في القرآن حيث بيَّنَتْ أسباب بقاء الأمم و هلاكها وأنَّ ذلك كله منوط بعمل الإنسان، وخصائص النفس البشرية وتوظيف تلك الخصائص فجاء الحديث في ثلاثة محاور:

المحور الأول: ظاهرة التغير في الأمم قديمًا وحديثًا:

إن المتأمل في التاريخ بل كل دارسٍ للتاريخ يصل إلى نتيجة حتمية ألا وهي: أن جميع الأمم يصيبها التغيُّر من رقي وتحضر إلى هلاك ودمار؛ من قوة وازدهار إلى ضعف وانهيار، وقد أشار القرآن الكريم إلى حضارات بعض الأمم وما وصلت إليه من قوة وتحضر ورفاهية ورغد في العيش كقوله تعالى في قوم صالح: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر:٦-١٠]، وقال عن قوم عاد أيضًا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، فذكر في هذه الآيات ثلاث من الحضارات الهالكة.

لكن هل ظلت تلك الأمم على حالها من القوة والحضارة أم أصابها الدمار والهلاك؛ بلا شك أنها لم تدم لهم تلك الحال، مع أنه كان بإمكانهم أن يحافظوا على ما وصلوا إليه إن قاموا بصفات معيَّنة وشروط سيأتي ذكرها.

وقد نظر ابن خلدون في تاريخ الأمم ونظر في القرآن الكريم، فخرج للناس بما أسماه العلماء بعلم الاجتماع؛ وذلك في مقدمة تاريخه، والتي اشتهرت فيما بعد أكثر من كتاب التاريخ نفسه، وطبعت منفصلة عنه تحت عنوان «مقدمة ابن خلدون».

يعتبر ابن خلدون من أوائل الدارسين الاجتماعيين، الذين أقاموا دراستهم على فهم السنن الاجتماعية، وقد استطاع بفضل ثقافته القرآنية العميقة، واطلاعه الواسع للتاريخ أن يعرض في المقدمة عددًا من السنن الاجتماعية بأسلوب علمي موضوعي، وبهذا كان هو صاحب الفضل الأكبر في وضع الأصول الأولى لعلم الاجتماع[١].

أما حديثًا: فلئن كان هذا التغير ظاهرة اجتماعية على مر العصور فإن عصرنا -الحديث- يتسم بسرعة هذا التغير وكثرته، إذ أصبح أشد ما يكون وضوحًا وأوسع شمولًا، بل لقد أصبح من أخطر الظواهر الملموسة في كل مجالات الحياة[٢].

ففي خلال ثلاثة عقود من الآن كم دولة كانت ذات قوة وسيادة يعمل لها ألف حساب من جاراتها، أصبحت في ظرف أيام معدودة كأنها لم تكن ورجعت إلى الوراء سنين عددًا.

وكم من تغير طرأ على نمط الحياة اليومية بسبب الثورات الحديثة سواء في مجال الكمبيوتر، أو في الهواتف، أو المواصلات أو غيرها.

كل ذلك أحدث فجوة عظيمة بين أبناء الجيل الواحد فضلًا عن جيلين متقاربين.

المحور الثاني: التغير لا يتم إلا وفق سنة إلهية:

لقد ذكرنا في مبحث سابق أن هذا الكون إنما يسير وفق قانون إلهي، لا يتغير ولا يتخلف ولا يجامل أحدًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، وإذا كان

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (ص٤٨) بتصرف.
(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٦) بتصرف.

هذا التغيير ظاهرة اجتماعية ملموسة فلا بد له من قانون يضبطه، وسنة يسير عليها، إذن فليس في الوجود شيء جزافًا[١].

ومن هنا أحببت أن أذكر السنة الإلهية التي لها علاقة بموضوع التغير الاجتماعي الذي أشرت إليه وذلك من خلال آيتين في كتاب الله هما:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

في هاتين الآيتين يقرر سبحانه سنة من سننه وهي أنه سبحانه إنما يغير ما بالقوم نتيجة تغيرهم لما في نفوسهم، وقد وضع ذلك في صيغة قانون ثابت لا يختلف ولا يحابي ولا يظلم»[٢].

وهذه السنة كما تقررها الآية الكريمة عامة شاملة فهي في جانب الخير والإنعام لأنفسهم، فلا يسلبهم الله نعمة كانت عليهم حتى يحدثوا تغيير ما بهم من خير وهداية إلى شرور وضلالات.

ولا يغير ما يحل بقوم من عذاب ونكال وإذلال، جزاء ما ارتكبوا من عصيان وآثام حتى يحدثوا توبة صادقة تنقلهم من حضيض الفساد والفجور إلى آفاق الهدى والإصلاح»[٣].

---

(١) المرجع السابق: نفس الموضع.

(٢) الحل الإسلامي فريضة وضرورة ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ (ص٧٥).

(٣) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ـ لمحمد صادق عرجون ـ الدار السعودية ـ الرياض ـ ط٣ ـ ١٩٨٤ (ص٤٨) بتصرف.

وينبغي أن يلاحظ أن وجود نوع من الفساد في عـدد قليل بين المجتمع لن يؤدي إلى هلاكـه؛ وإنما يكون الهلاك إذا عم الفساد في البلاد والعباد، وقد أشار إلى هذه الحقيقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عندما سألته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»(١).

فهذا الحديث يضيف إلى الآية معنى هامًّا وهو أنَّ التغيير إلى الأحسن أو الأسوأ في المجتمعات على حسب الكثرة الكاثرة من ذلك المجتمع والله أعلم.

المحور الثالث: طبيعة النفس الإنسانية ودورها في التغيير:

هاهنا قضيتان هامتان، وتحت كل قضية عدة أمور؛ أما الأولى فهي طبيعة النفس البشرية: وأما الثانية فهي دورها في التغيير، وإليك تفصيل ذلك:

القضية الأولى: طبيعة النفس البشرية:

بادئ ذي بدء ما الدول إلا مجموعة من المجتمعات؛ والمجتمعات مجموعة من الأسر؛ والأسرة أفراد ولكل فرد تأثيره في جميع مَن حوله، ولهذا كان لا بد من الإشارة إلى هذه النفس البشرية؛ للتوصل إلى معرفة دورها الحقيقي في سنة التغيير، والحديث عن النفس البشرية يحتاج إلى مجلدات لا إلى صفحات ولكن سنقتصر في هذا المحور على ذكر مقتطفات تعطي فكرة عامة حول طبيعة النفس، وهي خاصة فيما له صلة بموضوعنا «سنة التغيير»، وذلك عبر نقاط ثلاث مختصرة:

١ - النفس البشرية فيها معرفة الله جَلَّ وَعَلَا: ما من إنسان إلا وهو يعرف أن الله تعالى هو ربه وهو خالقه، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ**﴾ [الأعراف:١٧٢].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٠٣)، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٨٨٠).

جاء في تفسير المنار «والمعنى: واذكر أيها الرسول: ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم بطنًا بعد بطن، فخلقهم الله على فطرة الإسلام؛ وجعل مِنْ مدارك عقولهم الضرورية أنَّ كل فعل لا بد له من فاعل، وكلُّ حادث لا بد من محدث»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبته وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد، وهو التوحيد، فالحنيفية التي وردت في الأحاديث تتضمن معرفة الرب ومحبته وتوحيده»[٢]، يشير إلى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»[٣].

ولعلنا بهذا الكلام المختصر في تفسير الآية وما بعدها من حديث؛ نصل إلى يقين تام بأن النفس البشرية تعرف الله الرب الخالق؛ ولكن هذه المعرفة قد يغطيها من شهوات النفس وملاذها ومصالحها، ما يجعلها -المعرفة- كالعدم، فلا يكون لها تأثير في حياة البشر ولعل الواقع والتاريخ يشهدان بأن هذا هو الغالب عليهم.

٢- النفس البشرية تدرك الخير والشر دون حاجة إلى تفكير:

وهذا أيضًا مما هو مغروس في نفس كل إنسان؛ كفطرة معرفة الرب سواءًا بسواء، فما من إنسان إلا وهو يعرف أن الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة وأن العفة فضيلة وأن الزنا رذيلة وهكذا.

بل إن ذلك موجودًا حتى في نفوس البهائم العجماوات فلو أعطيت هرًا لحمًا لجلس وأكله في حضرتك بهدوء تام، ولكن إنْ جاء هذا الهر وسرقه في غيابك ثم جئت فجأة،

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٢٥-٣٢٦).
(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٤٥).
(٣) صحيح مسلم حديث رقم (٢١٩٧).

لأخذه وهرب ليأكله بعيدًا عنك، فهذا يدل على أنه مفطور على أن السرقة حرام؛ وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم مؤكَّدا بصيغة القسم فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠].

قال المراغي: «أقسم الله بالنفس الإنسانية لما لها من الشرف في هذا الوجود فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي قسمًا بالنفس ومَنْ سواها وركَّب فيها قواها الباطنة والظاهرة، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها، ثم بين أثر هذه التسوية فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي فألهم لكل نفس الفجور والتقوى وعرفها حالها، بحيث تميز الرشد من الغي، والهدي من الضلال وجعل ذلك معروفًا لأولى البصائر»[(١)].

ومن خلال هذا الإلهام الذي جعله الله في النفس، يستطيع الإنسان أن يحدد مساره في هذه الحياة، ودوره في المجتمع، وواجبه تجاه نفسه وأمته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

٣- النية والإرادة من أعظم صفات النفس البشرية:

إننا نرى الناس في الشوارع والطرقات وفي المصانع والشركات يتحركون حركة دؤوب، وقد نرى البعض لا يحرك ساكنًا؛ وقد يعجز حتى عن خدمة نفسه لتناول طعام أو شراب، والسر في ذلك كله هو ما بدواخلهم من دوافع تدفعهم دفعًا إلى تلك الحركة أو ذلك السكون والركون، وتلك خاصية من خصائص النفس الإنسانية.

ولقد ذهب الغزالي إلى أن تلك الحركة سببها هو الباعث وهو صفة من صفات النفس فقال: «اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل، وذلك لأن كل عمل -حركة أو سكون-

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ١٦٨) بتصرف.

اختياري؛ فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وعمل... إذن فلا بد من إرادته والإرادة هي انبعاث القلب إلى ما يراه موافقًا للغرض، إما في الحال أو المآل، فالمحرِّك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء وهو العمل»[١].

ولما كانت النية والإرادة بهذه الخطورة ورد في الإسلام ما يهذبها ويوجهها إلى الصلاح والإصلاح لئلا تكون حركة الإنسان في الحياة من أجل المصالح والشهوات؛ بل لتكون فاعلة في سبيل الخير، وحينذاك يكون العمل مصحوبا بالصبر والمثابرة، وتكون النتائج الطيبة المثمرة النافعة، قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٢].

«وتلك أهم الطبائع التي طبعت عليها النفس البشرية وهناك غيرها كثير، ففي النفس ملكاتها المادية والعقلية والروحية، وهذه هي الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية: الخوف والرجاء والحب والكره، والاتجاه إلى الواقع والاتجاه إلى الخيال، والفردية والجماعية والسلبية والإيجابية؛ لكنها خطوط متقابلة ومتوازية»[٣].

وفي النفس الإنسانية دوافع وضوابط يمكن تلخيصها بكلمة واحدة هي حب الحياة، ولكنها بعد ذلك تتفرع فتصبح دافعًا لحفظ النوع ودافعًا للقتال عن الذات ودافعًا للملك والظهور والشهوة، وهذه الضوابط قوة فطرية تولد مع الإنسان[٤].

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، أي أنكم يا بني خلقتم من عجل وطبعتم عليه، فتعجلون في كل شيء، ومِن ثَّم تحبون العاجلة وتذرون الآخرة[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣١٣٩ - ٣١٤٠) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٢٧٩).

(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٢١) بتصرف.

(٤) المرجع السابق: نفس الموضع.

(٥) تفسير المراغي (٢٩/ ١٥٢).

وعمومًا فمعرفة السنن الإلهية التي طبع الله عليها البشر يحتاج إلى بحث طويل وعميق، ولكن فيما تقدم إعطاء لصورة جزئية عما في النفس الإنسانية[١].

القضية الثانية: دور النفس الإنسانية في التغيير إلى الأحسن أو إلى الأسوأ:

بناء على ما سبق ذكره مما جُبِلَتْ عليه النفس -وفق السنن الإلهية في الأنفس- سنعطي صورة واضحة عن دور هذه النفس في التغيير المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

١- إن الخلق الذي تتخلق به النفس وعلى ضوئه يكون سلوكها في الحياة، وتأثيرها فيمن حولها من كائنات ونبات وجماد وآلات وغيرها؛ كل ذلك إما أن يكون من الخير والإصلاح الذي جاءت به الشرائع؛ وبهذا تكون النفس ساهمت في التغيير إلى الأفضل والأصلح لهذا العالم؛ أو يكون دمارًا عليها وعلى مَنْ حولها، وفي ذلك يقول سيد قطب: «ومن الجانب الآخر يكرم الإنسان أكبر تكريم حين يُجعَلُ قدرُ الله به يُنفِّذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس، مبنيًا على التغيير الواقعي، في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم»[٢].

وفي ذلك يقول الفخر الرازي: «وهذا أوكد على أنه تعالى لا يبتدئ أحدًا بالعذاب والذي يفعله لا يكون إلا على معاصٍ سلفت»[٣].

---

(١) المؤلفات التي تحدثت عن النفس أو عن الإنسان بكامله كثيرة منها على سبيل المثال: معارج القدس في التدرج في معرفة النفس لأبي حامد الغزالي، ومداواة النفوس لابن حزم الأندلسي، هذا في التقديم وأما حديث: فمثلا: علم النفس في التصور الإنساني للدكتور عبد الحميد الهاشمي ودارسات في التفسير الإنسانية للأستاذ محمد قطب والإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس العقاد وغيرها كثير.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣٥).

(٣) تفسير الرازي (١٥/ ١٨٧).

٢- إن الإنسان هو المخلوق المكرم عند الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، ومظاهر هذا التكريم ليست قاصرة على ما ورد في الآية بل له مظاهر عديدة منها:

تسخير الله له ما في الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

ومنها سجود الملائكة لآدم وغير ذلك مما يطول الحديث عنه.

وكل هذا يعطينا نتيجة حتمية فيما نحن بصدده ألا وهي: «إن الإنسان هو الأساس لكل تطور تربوي أو تعليمي أو تقني أو غيره مما يهدف إلى زيادة الإنتاج أو رفع مستوى العطاء في المجتمعات، وهكذا يقال في جميع الفعاليات والنشاطات في مختلف جوانب الحياة من سياسة وإعلام وصناعة وزراعة وغيرها، كل ذلك يتوقف نجاحه على العنصر الإنساني وإن احتاج إلى بقية العناصر الأخرى»[(١)].

وأختم هذا المحور بالقول: إن الأمم كلما تقدمت وطورت الحياة من حولها، وأصبح كل شيء من أجل راحة الإنسان، وإبعاد الأذى عنه، فلن يجد الراحة الحقيقية ما دامت النفس البشرية على غير الطريق السوي؛ بل ولا أمل لمجتمع في البقاء واستمرار يته في الوجود إلا إذا رجع إلى منهج الله تعالى، مصداق ذلك كله في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

(١) التكريم الإلهي للإنسان ـ للدكتور محمد الزحيلي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٥ (ص٧٤) بتصرف يسير.

المبحث الرابع

السنن الإلهية الفاعلة في تغيير الأمة الإسلامية

إن معرفة جميع ما سبق في موضوع السنن الإلهية في النفس البشرية، لا يعني الانتظار وترقب ما يجري دون أن يتحرك الإنسان، بل للإنسان دور فعال في إحداث تغيير نحو الأصلح لمجتمعه خاصة ولأمته عامة، وللإنسانية بصورة أعم، ولهذا نبه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلى عدة عوامل من شأنها أن تكون سببًا في التغيير نحو الأصلح وتلك العوامل هي أيضًا من السنن الإلهية فتكون في مقابل سنن إلهية أخرى وبعبارة أخرى ندفع قدر الله بقدر الله.

ولقد جعلت هذا المبحث يقوم على خمس ركائز هي من السنن الإلهية من شأنها أن تكون حلًا لما نعانيه اليوم في أمة الإسلام.

الركيزة الأولى: إقناع المجتمع بأنه في حاجة إلى التغير والتغيير:

لابد للأمة اليوم من أن تكون على قناعة تامة بأنها في حاجة ماسة إلى أن تغير من كثير من الأفكار والمعتقدات والأخلاق والتعامل ومن نمط حياتها بصورة عامة، بل والتسليم بأنه لا مخرج لنا من الأزمة التي نعيشها اليوم إلا بالتغير في جميع ما سبق ذكره، وتغيير مَنْ حولنا مِن البشر.

وذلك لأن «التغيير ضرورة حياتية للمجتمعات البشرية فهو سبيل بقائها ونموها، فبالتغيير يتهيأ لها التكيف مع واقعها؛ وبالتغيير يتحقق التوازن والاستقرار في أبنيتها وأنشطتها، وعن طريق التغيير تواجه الجماعات متطلبات أفرادها وحاجاتها المتجددة»[1]. إلى غير ذلك من فوائد التغير.

---

(١) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام ـ للدكتور محسن عبد الحميد ـ مؤسسة الرسالة ـ ط١ ـ ١٩٨٣ (ص٧).

ولعله من المفيد أن نربط هذا الكلام بما سبق ذكره من أقوال أهل العلم حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وبهذا تكون الخطوة الأولى من البشر، وهي السبب في تغيير الله ما بهم كما سبق بيانه مفصلًا في الصفحات السابقة.

ومما يُعضِّد من الاقتناع والتسليم إلى ضرورة التغيير الاجتماعي: أنَّ المجتمعات من حولنا لا تتوقف بل هي في حركة دائمة وتغيير مستمر[1]، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، ومن هذا النص الكريم يمكننا القول أن التغير قانون أو سنة إلهية بها يندفع الفساد عن الأرض.

وثمة أمرًا آخر مهمٌّ جدًّا في قضية التغير: ألا وهو مداولة الحكم والتسلط بين الناس قائم على التغير ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الثانية: إقناع المجتمع بأنه في حاجة إلى التغير نحو الصلاح والإصلاح:

إذا كانت الخطوة الأولى نحو التغيير هي الاقتناع بأننا في حاجة إلى أن نتغير فإن الخطوة الثانية في الإصلاح: الاقتناع بأننا في حاجة إلى أن نتغير نحو الصلاح والإصلاح، وهذا يتطلب معرفة ما هو الصلاح والإصلاح. وفيما يلي معالمهما وفوائدهما، وهذا يحتاج إلى بحث طويل ولكن نكتفي هنا بذكر نبذة يسير عن كل منهما بما يفيد موضوع بحثنا:

(أ) **الصلاح**: هو أن يكون العبد صالحًا في نفسه وهذا يعنى أن يوقر الله تعالى ويجتهد في عبادته ويجتهد أيضًا في تحسين أخلاقه مع عباد الله تعالى، كما قال تعالى:

(١) هناك عدة نظريات لتغيير المجتمعات ومن ذلك: نظرية التطور الذاتي، ونظرية التوازن والتعادل ونظرية التفسير المادي الجدلي للتطور الاجتماعي ونظرية التغير والزعامة الجماهيرية الكادزمية: [منهج التفسير الاجتماعي في الإسلام ـ للدكتور محسن عبد الحميد (ص١٢، ١٣)].

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩]، ولا يعتبر العبد صالحًا إلا إذا أخلص لله في عبادته وصدقت نيته في تعامله مع خلقه.

(ب) الإصلاح: وهو المهم في هذا المقام لأن معناه «إرادة الخير وتقويم العوج»[(١)]، ومريد الإصلاح هو الأنسب والأنفع لأمته ومجتمعه.

وأما أهمية الإصلاح فهي تتجلى في الأمور الآتية[(٢)]:

١- الإصلاح سبب في دفع الهلاك عن المجتمعات: كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هود:١١٧]، يقول السيد محمد رشيد رضا: «أي وما كان من شأن الله ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحين في الأرض مجتنبين للفساد والظلم، وإنما أهلكهم ويهلكهم بظلم وإفساد فيهم»[(٣)].

٢- الإصلاح سبب لتحقق الأمن في المجتمعات: كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف:٣٥].

وهذا يعني بمفهوم المخالفة أنَّ ترك الإصلاح يؤدي إلى الخوف والهم والحزن وذلك لا يكون إلا بحصول الفتن التي لا أول لها ولا آخر، وذلك إنما يصيب المجتمعات عندما تتخلى عن دورها في الإصلاح، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال:٢٥]، أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا تختص إصابتها بمن يباشر الشر والظلم منكم»[(٤)].

---

(١) من وسائل القرآن الكريم في إصلاح المجتمع (ص٣٢).

(٢) المرجع السابق (ص٣٥-٣٩) بتصرف

(٣) تفسير المنار (١٢/ ١٩٢).

(٤) فتح التقرير الجامع بين فني الرواية والدراية من على التفسير ـ لمحمد علي الشوكاني ـ دار بن كثير ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٨ (٢/ ٣٤٢).

- والفتنة هنا قد تكون الحروب التي تقع بين أهل البلد الواحد وهي ما تسمى بالحروب الأهلية وكم فيها من فساد ودمار وقتل وهتك للأعراض.

٣- الإصلاح سبب للفلاح: كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقد جاءت صفة مفلحون مطلقة فهي شاملة للفلاح في الدنيا والآخرة، وإذا أفلحت في الدنيا نمت وتطورت وظلت صالحة للبقاء والتأثير في البشرية من حولها.

الركيزة الثالثة: العقيدة هي أساس إصلاح المجتمعات:

مما هو معلوم أنَّ جميع الأنبياء إنما بعثوا في مجتمعات هي في حاجة إلى الإصلاح؛ لتنمو ولتبقى ما شاء الله لها البقاء، وكانت العقيدة هي الأساس، بدأ الأنبياء بالصلاح مجتمعاتهم؛ وذلك واضح من أول وهلة نقرأ فيها قصصهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

«من خلال التأمل في القرآن نجد أن الأنبياء جعلوا من عقيدة التوحيد أساسًا ومرتكزًا لمعالجة فساد مجتمعاتهم، وقد تنوعت أمراض تلك المجتمعات: من الاستبداد السياسي إلى الظلم الاجتماعي إلى الفساد الأخلاقي، ولكن بقيت عقيدة التوحيد هي الأصل في منهج الإصلاح والتغيير لدى الأنبياء»[(١)].

ولا شك أن من أصلح عقيدته، يهون عليه بعد ذلك إصلاح كل خلل آخر في حياته، كما لا يخفى علينا؛ ففي العقيدة من التأثير على كيان الإنسان ومشاعره وأحاسيسه ما لا يوجد في غيرها؛ فعلى سبيل المثال: من تيقن أنَّ الله مطلع عليه، لا يستطيع أن يظلم الناس أو يأكل أموالهم، ولكن من ضعف ذلك في قلبه فهو الذي يأتي منه الفساد في

(١) من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع (ص٤٠) بتصرف.

الأرض، ولهذا كل من اتبع الأنبياء كثر خيره وصلاحه، وقل شره وفساده بحسب قوة الإيمان في قلبه.

الركيزة الرابعة: الأخذ بالشريعة الإسلامية في إصلاح المجتمعات وحركة الحياة:

كل من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا لابد أنْ يرضى بتحكيم الشريعة الإسلامية في حركته في الحياة؛ وبها يسعى لإصلاح نفسه ومجتمعه ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

وإذا كان تحكيم الشريعة الإسلامية في حركة المجتمعات هي الخطوة الرابعة في سبيل الصلاح والإصلاح فلا بد من بيان أن الشريعة صالحة لذلك، لأن هناك بعض الذين أخطأوا الفهم وأساءوا الظن وقالوا: إن الشريعة الإسلامية لا تصلح لهذا الزمن، بل أنزلت لبيئة خاصة في زمن خاص. ونحن نذكر بعض المقومات الدالة على أن الشريعة قادرة على تلبية حاجة المجتمعات في كل زمان ومكان وهي مقومات خمس[(١)]:

المقومِّ الأول: إن الشريعة الإسلامية هي شريعة إلهية أوجدها الله تعالى كما أوجد النظام في الكون العام، والحقيقة الكونية أشبه ما تكون بمسارات النجوم والمجرات الدقيقة في هذا الكون الهائل بحيث لو انحرفت عنها لحل الخراب بالعالم، وكذلك الحقائق الإلهية الموضوعة في الشريعة لو خرجت الحياة عليها، ولم تتحرك في مجالاتها لاضطربت وتزعزعت؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١].

(١) ملخصة من كتاب منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام (٦٢) بتصرف.

المقومِّ الثاني: أن الشريعة الإسلامية شريعة عامة للبشرية جمعاء، وتُعبِّر عن فطرة الإنسان وتنسجم مع خصائصه الحيوية المتنوعة، وتثبت له وجوده وكرامته ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠].

وكم هم الذين ظلّوا حائرين ـ غربيين وغيرهم ـ متخبطين في أودية الحياة بين هذه الأديان المحرَّفة، حتى إذا قرأوا عن الإسلام لم يتمالكوا إلا أن اعتنقوه لسبب واحد وهو أنه لبى حاجاتهم الداخلية، وأجاب عن متاهاتهم العقلية فأعطاهم الاطمئنان النفسي.

المقوِّم الثالث: ومن هذه المقومات أن الشريعة شاملة للحياة كلها دقها وجلها، فلا تكاد تجد ناحية من نواحي الحياة إلا وصبَّت الشريعة اهتمامها الكبير عليها؛ ووضعت من القواعد ما هو كفيل بحل مشكلتها، ولم تتضح هذه المسألة للدارسين من قبل كما اتضحت اليوم، فلقد قام العشرات من المختصين من أهل الشريعة والقانونيين والاجتماعيين والاقتصاديين بدراسات مقارنة في مختلف مشكلات الحياة المعاصرة؛ فوجدوا أنه ما من أمر تحدَّث فيه هؤلاء الاختصاصيون - كل حسب تخصصه - إلى القرن العشرين إلا ووجدوا أن في كتب الفقه ما هو أدق وأعمق وأشمل منه، لا بل إن النظريات القانونية الحديثة تأثرت بالشريعة الإسلامية تأثرًا مباشرًا أو غير مباشر، يعرف ذلك أهل الاختصاص ممن يدققون في المسائل ولا يقفون عند ظواهر النصوص.

المقوم الرابع: أن الشريعة الإسلامية شريعة مثالية وواقعية في آن واحد.

- **أما كونها مثالية**: فلأنها تنشد الكمال، وترسم المنهج الكامل للوصول إليه، ولا ترضى لأهلها الالتصاق بالأرض، وهذه المثالية ليست خيالية كمثالية أفلاطون، وإنما هي مثالية واقعية محسوسة في هذا العالم الذي نعيشه.

- **وأما كونها واقعية**: فلأنها تتعامل مع واقع الناس ومشاكلهم، وتراعي فِطْرتهم وطاقاتهم ولا تكلف نفسًا إلا وسعها، فيها العزائم والرخص، والواجبات والمندوبات،

وفيها المحظورات والضرورات، كل شئ يُطلَبُ من الإنسان بَقَدَرٍ معلوم وفي وقت معلوم، وتحت ظرف معلوم: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨].

المقوِّم الخامس: ومن مقومات الشريعة أنها ليست شريعة جامدة منغلقة لا تراعي تطورات الحياة، بل هي شريعة مفتوحة أبوابها للاجتهاد المستمر، والاجتهاد له ضوابطه وقواعده الأصولية؛ كما أن للمجتهد صفاته وشروطه.

وبناء على مشروعية الاجتهاد استطاع فقهاؤنا في تاريخنا الفقهي الطويل أن يواجهوا أحداث الحياة المتغيرة، مستنبطين لها الأحكام الدقيقة المناسبة وموجدين لها الحلول العلمية المستندة إلى تلك الأصول والقواعد.

ولو رأينا موضوعاتنا الفقهية في مختلف المذاهب، لوجدنا كنوزًا من النظريات القانونية والآراء الفقهية، والحلول الرائعة للمشاكل الحيوية.

وأخيرًا نقول: إن العمل بالشريعة الإسلامية وتطبيقها هو أخذ بسنة إلهية مذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

وما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم إنما هو نتيجة حتمية لإعراضها عن منهج الله، ووقوعها فيما حذرت منه الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ولست في حاجة إلى إثبات هذا الإعراض الذي تعيشه الأمة الإسلامية، سواءٌ أكان على مستوى الأفراد والشعوب أو على مستوى الدول والحكومات والله المستعان.

الركيزة الخامسة: تحذير المجتمعات من الاستبدال عند عدم التغيير:

- أن ترك الأخذ بالركائز الفائتة، وعدم العمل بها من شأنه أن يوقع الأمة الإسلامية في الخوف من سنة إلهية لا تجامل أحدًا ألا وهي سنة الاستبدال، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

«فالإسلام بوصفه رسالة عالمية سامية يتطلب مجتمعًا رساليًا؛ ينهض بأعباء الرسالة ويحقق مهمة الاستخلاف في الأرض، وليس القيام بذلك أمرًا سهلا، ولكنه بتطلب مجتمعًا مؤمنًا برسالة الإسلام عاملًا به مجتهدًا في دعوة الناس إليه»[1]، وإذا لم يقم بهذا الدور داخليًا وخارجيًا فقد يقع عليه ذلك الاستبدال المنوط بالتولي عن منهج الله تعالى.

- أما بالنسبة لدور المسلم في الإصلاح الداخلي فقد سبقت الإشارة إلى أهميته عند الكلام على مفهوم حرية الرأي ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة وغير ذلك هذا للأفراد لإعادتهم إلى جادة الصواب ولإصلاح الداخل الإسلامي.

أما بالنسبة لدوره خارجيًا ونعنى بذلك خارج المجتمع الإسلامي وهو مطالب بالدعوة إلى الإسلام ولذلك وسائل كثيرة ومتنوعة لعلنا نشير إلى بعضها بحسب ما يسمح المقام.

- فمن ذلك الدعوة إلى الله عن طريق الالتزام بالعبادات المفروضة والأخلاق الحسنة التي حث الإسلام عليها أينما كان المسلم فتلك فيها قوة الدعوة دون شعور من المسلم، لأن مَنْ حولك من الغربيين الذين تعيش بينهم يرصد حركاتك وسكناتك من حيث تشعر أولا تشعر، وليكن هذا أحد هموم جميع المغتربين في الدول الغربية.

(١) من وسائل القرآن الكريم في إصلاح المجتمع (ص٧٢) بتصرف.

ومن ذلك الدعوة عن طريق إتقان العمل إذا كنت موظفًا أو التفوق الدراسي إذا كنت طالبًا، لأن هذا مما حث علية ديننا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»(١).

- ومن وسائل الدعوة أيضًا أن يشارك في الدخول في بعض مواقع الشبكة العنكبوتية، وذلك إما بعرض الإسلام في صورة حسنة وإما بالرد على أولئك الذين يثيرون الشبهات حول بعض التشريعات الإسلامية، وإما بالكشف عن الديانات المحرَّفة وما فيها من زيف وضلال وافتراء على الله تعالى.

- ومن أهم الوسائل الدعوية لغير المسلمين في عصرنا في تلك المجتمعات الغربية أن يُشْعِرَ المسلم من حوله أنه معتز بدينه مفتخر به غير هياب ولا خجول من أن يظهر أنه مسلم، وأنه على الدين الحق ولا بأس من إظهار بعض السنن النبوية الشريفة ليعلم أولئك أن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو معلم البشرية الأول، كل ذلك بأسلوب حسن مقبول لا يسيء إلى أحد ـ ولو بطريق غير مباشر ـ ولا يجرح أحدًا.

يقول الأستاذ أمين الصلاحي إن سنة الاستبدال تجعل المجتمع الإسلامي وجهًا لوجه أمام مسؤوليات الرسالية والحضارية، وكلما ازداد وعي المجتمع بهذه السنة فإن وعيه سيزداد بأهمية الإصلاح والتقويم والمراجعة المستمرة، وبذلك تترسخ القناعة بضرورة الإصلاح وبأهمية دور المصلحين في حماية بالمجتمع من التقهقر والانكماش والانحراف الحضاري»(٢).

وفي ظني أن هذا الكلام يلفت الانتباه إلى أن دور المصلحين يعتبر عبئًا كبيرًا حتى يوصلوا الرسالة التي معهم وأعني بالمصلحين هنا أهل الحل والعقد في كل مكان له

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ للشيخ ناصر الدين الألباني (٣/ ١٠٦) حديث رقم (١١١٣).
(٢) من وسائل القرآن في إصلاح المجتمع (ص٧٣).

خطر وشأن في المجتمع، وكذلك أساتذة الجامعات ومعلمي المدارس وخطباء المساجد، وكذلك الإعلاميين من صحافيين وكُتَّاب ومذيعين، ومقدمي البرامج الهادفة، وغيرهم ممَّن لهم مخالطة بالمجتمع المسلم، وغير المسلم، وإذا كان هذا في جانب التنظير فإن جانب التطبيق العملي أكبر أهمية وأشد خطورة ولعل هذا مما ستكشف عنه الصفحات القادمة من هذا الكتاب.

خاتمة الفصل وفيها بيان السنن الإلهية الواردة فيه باختصار:

١- سنن الابتلاء: وتشمل: الابتلاء بالتكاليف الشرعية، وبالمصائب «الشر» بالنعم «الخير» بالتفاوت بين الناس وبسماع المؤمنين ما يؤديهم من الكافرين.

٢- سنة الجزاء من جنس العمل: وتشمل: تولى الظالمين بعضهم بعضًا، لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها.

٣- سنة الله في التغيير الاجتماعي: ويشتمل على: دور النفس في التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:٢١]، ودور الأمة في الصلاح والإصلاح، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨]. تطبيق الشرع سبب البعد عند الشقاء، وأخيراً سنة الاستبدال عند عدم الإصلاح، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

فإذا قام كل مسلم بدوره الداخلي ـ في المجتمع المسلم ـ والخارجي ـ في المجتمع الغير مسلم ـ أمنَّا بإذن الله مِن أن نُستبدَل بغيرنا.

$ +

السنن الإلهية في الكون
وتسخيرها لانتفاع الإنسان

المبحث الأول: خصائص السنن الإلهية.

المبحث الثاني: نماذج من السنن الإلهية الكونية.

المبحث الثالث: الكشف العلمي مفهومه ومقومات ونماذج منه في هذا العصر.

المبحث الرابع: علاقة الكشوف العلمية بالتكاليف الشرعية.

المبحث الأول

خصائص السنن الإلهية

كان لا بد من ذكر خصائص السنن الإلهية قبل الدخول في بيان سنن الله في الآفاق، وذلك لسببين:

أحدهما: لكي لا يحدث نوع تكرار في الكلام عند ذكر بعض سنن الله في خلقه، إذ لا بد من الإشارة بشيء من خصائص تلك السنن.

ثانيها: معرفة هذه الخصائص من الأهمية بمكان لأنه ليس خاصًا بالسنن الكونية بل هو يشمل أيضًا السنن الاجتماعية.

وقد ذكرت في هذا المبحث أربع من الخصائص هي أهمها؛ وما عداها فيما يبدو لي مندرجًا تحتها:

الخصوصية الأولى: الثبات: والمقصود بالثبات هنا أن السنن الإلهية لا تتبدل عن حقيقتها و لا يمكن لأحد أن يغير ما جرت به عادة الله في خلقه، لأنها مقتضى حكمته وعلمه وعدله فنجد ولا تجري متعلقاتها إلا على سَنَنٍ، واحد، وقد جاءت الآيات صريحة في إثبات هذه الخصوصية، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر:٤٣]، فالآية تعبِّر عن عدم تغير السنن، لأنَّ «لن تجد» تنفي أن يكون هناك إمكانًا لتبديل السُنَن؛ لأن «لن» حرف نفي ومن الدلائل اللغوية في الآية «تبديلا» وهي نكرة وقعت في سياق النفي والنكرة في سياق النفي تفيد العموم[1]، وهذا يعني نفي جميع الوجدان، وفي كل زمان لتبديل السنن.

---

(١) معنى اللبيب عند كتب الأعاريب لجمال الدين هشام الأنصاري ـ تحقيق الدكتور مازن المبارك ـ ومحمد علي حمد الله ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٣ (ص٣٧٣).

* ويقول الطاهر ابن عاشور: «ولما كانت السنن من قبيل الأفعال والأخبار لم يتطرق إليها النسخ الذي يتضمن معنى التبديل كما هو الحال في الأحكام الجزئية التكلفية»(١).

* وقد برهن الرازي على عدم تحويل سنة الله بطريقة منطقية فضلًا عن ثبوت النَّص فقال: «إن اختصاص كل حادث بوقته المعين بصفته المعينة ليس أمرًا ثابتًا؛ وإلا لزم أن يدوم على تلك الحالة، وأن لا يتميز شيء عما يماثله في تلك الصفات، بل إن ما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص، وذلك التخصيص هو أنه تعالى يريد تحصيله في ذلك الوقت؛ ثم تتعلق قدرته بتحصيله في ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله في ذلك الوقت»(٢).

وهذا يعنى أنه لا يمكن أن يصبح الناس يومًا من الأيام فيجدون أن النار لا تحرق أو أن السحب لا تمطر أو أن الحديد قد ذاب والماء لا يروي الظمآن.

ولثبات السنن الإلهية فائدتان(٣):

الأولى: أن تطمئن النفوس البشرية إلى كل ما حولها مما جرت به عادة الله في الكون أو المجتمع فلا يمكن أن يرسب المجتهد، أو ينجح الكسول، ولا يمكن أن تترك النار الإحراق أو الماء الإرواء.

الثانية: إبطال القول بالصدفة، أو بالطبيعة الخلاقة؛ إذ لا مجال للصدفة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، أي خلقنا كل شيء مقدرًا محتمًا مرتبًا حسب ما اقتضته الحكمة أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ معلومًا ـ لله ـ قبل وقوعه أو كونه قد علمنا حاله وزمانه(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٣).

(٢) تفسير الفخر الرازي (١٠/ ١٥٧).

(٣) السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور (ص١٠٠)، بتصرف.

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/ ٤١).

الخصوصية الثانية: الاطراد: والمراد به أن السنن الإلهية لا تتخلف «لأن الله تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سننه القاضية بالتسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين»[(١)].

يقول الدكتور أحمد محمد كنعان: «ونعني باطراد السنن تتابع حصولها أو تكرارها على الوتيرة نفسها؛ كلما توفرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها فجميع السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة بإذن الله؛ كلّما توفرت الشروط وانتفت الموانع، المرض مثلًا يحصل كلما كثرة الجراثيم داخل الجسم القابل للعدوى، والنار تحرق كلما لامست جسمًا قابلًا للحرق»[(٢)].

* إذا كان ما ذكره الدكتور كنعان أمثلة على اطراد السنن الكونية فإن السنن الاجتماعية أيضًا مطردة دليل ذلك ما قصه الله عليه مما حل بالأمم السابقة من نجاة أو هلاك بحسب توعدهم أو كفرهم أو ضلالهم وظلمهم: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧-١٣٨]، والشاهد منها قوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي عادة جارية، وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٧].

* وقال ابن كثير[(٣)]: «أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وإذ هم بخروج الرسل من بين أظهرهم يأتيهم العذاب»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبل لأحد به**» ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣].

ومن الضروري أن ننبه على قضية هامة فيما يتعلق «السنن الإلهية» في الكون ألا وهي أننا «قد نفهم من القول باطراد السنن الإلهية ما يقوله الماديون من نسبة الأشياء إلى

(١) النبوات ـ لشيخ الإسلام بتن تيمية ـ الطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٦.
(٢) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (ص٧٦-٧٧) باختصار.
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣).

الطبيعة؛ أو أن ما نراها من فعل الطبيعة ويرفض هؤلاء ربط أي شيء بفعل الله تعالى، ونقول لهؤلاء إن اطراد السنن الإلهية في حد ذاته إنما هو قَدَر مُقدَّر من عند الله يوم خلق السموات والأرض، قال الله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. والحاصل أن السنن الإلهية تجري جريان مسلوب الإرادة والتعقل بل كل ذلك بقضاء الله وقدره»[١].

الخصوصية الثالثة: العموم والشمول[٢]:

* والمقصود بهذه الخصوصية أن جميع السنن الإلهية يسري حكمها على كل البشر، إن كانت سنة اجتماعية،وعلى كل ما في الكون إن كانت سنة كونية، ولكن الوصف بالعموم هنا أقرب إلى السنن الاجتماعية، وأما السنن الكونية فالوصف الأليق بها هو الاطراد.

ومن الأدلة على هذه الخصوصية قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]. فقد روى الطبري عن ابن عباس في سبب نزولها أنه قال: «تحاكم أهل الأديان الثلاثة، فقال اليهود: ديننا أفضل دين، وكتابنا أفضل كتاب، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام ونبينا خاتم الأنبياء وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا فقضى الله بينهم ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣].

والمراد من الآية أن كل من يعمل سوءًا يلق جزاءه لأن الجزاء على حسب سنة الله أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه، وميزان الثواب والعقاب ليس موكولًا للأماني، وإنما يرجع إلى أصل ثابت وسنة محكمة، قانون تتساوى أمامه جميع الأمم»[٤].

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والأفراد (ص١٠٣- ١٠٥). باختصار.

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (١/ ٥٠-٥٣)، والسنن الإلهية في الأمم والأفراد (١٠٥ -١٠٨).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٣١٩).

(٤) السنن الإلهية في الأمم والأفراد (ص١٠٦) بتصرف يسير.

- ومن الدلالة على عموم السنن الإلهية أن المسلمين أصابهم ما أصاب الأمم السابقة، وها هم قد انتصروا في بدر؛ تحقيقًا لسنة الله في نفس المؤمنين، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ثم هزموا في أحد ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وعبر التاريخ تحققت في الأمة الإسلامية قضية التمكين في الأرض؛ فسادوا الأمم وقادوها إلى الحق والرشد، وهزموا فارس والروم عندما تمسكوا بمنهج الله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٥٥].

ولكنهم عادوا فصاروا في ذيل الأمم، منذ أن سقطت الخلافة العثمانية إلى يومنا هذا، أيضًا تحقيقًا لسنة الله فيهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، فانقلب نصرهم إلى هزيمة وقوتهم إلى ضعف وتمكينهم إلى تشردهم بسبب مخالفتهم لمنهج الله تعالى.

الخصوصية الرابعة: التوازن والتناسق[١]:

لما كان ما يحصل في هذا العالم وفق قوانين ثابتة ونواميس مطردة هي من صنع حكيم حميد، يسير داخل إطار عام، يميزه التوازن والتناسق الدقيق، كانت السنن الإلهية في حقيقتها وحدة كلية مترابطة، يشد بعضها بعضًا، كالجسد الواحد، أساسها ومحورها الإنسان، وروحها العدل[٢]. تسير في توافق وتناسق وترابط لا تصادم بينهما ولا تعارض.

فالكون بأفلاكه ومبدعاته، والإنسان بإرادته وحركاته وفاعليته؛ كلها تعمل وفق سنن ونواميس يفعل الله بها ما يفعل، ويحقق بها ما يحقق، تقديرًا منه سبحانه، ليس شيء منها خارجًا من السنن والنواميس الإلهية.

---

(١) سنة التدافع ـ لخالد الزهراني (ص٤٨، ٤٩).

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ـ لمحمد هشيمور ـ نقلًا عن سنة التدافع (ص٤٨).

فالإنسان مثلًا حين وهبه فكره وإرادته وتدبيره في الأرض لم يجعل شيئًا متعارضًا مع سننه تعالى، ولا مناقضًا لمشيئته ولا خارجًا عن حكمته وقدرته، ولكن جعل من سننه أن يقدر الإنسان ويدبر؛ وأن يتحرك ويؤثر وأن يتعرض لسنن الله فتنطبق عليه وأن يلقى جزاء هذا التعرض من ألم ولذة، وتعب وراحة، وشقاء وسعادة، كل ذلك في توازن وتناسق داخل منظومة السنن الإلهية والتكامل والتناسق بين سنن الله علها سواء الكونية أو الإنسانية، فكلها أطراف من سنن الله الشاملة لهذا الوجود[١].

تنبيه:

ذكر بعض الباحثين عددًا آخر من الخصائص المتعلقة بالسنن الإلهية؛ ولكن فيما يبدو أنه داخل فيما سبق ذكره فمثلًا. قال بعضهم من خصائصها العدل وفي الحقيقة هذه الخصوصية تندرج تحت العموم والشمول؛ لأننا لو لم نعمم لما كانت عادلة.

- كما ذكر بعضهم الواقعية،وهذا في ظني يدخل في التوازن والتناسق، بل وقد يكون مما لا حاجة لذكره لأنه مما هو مشاهد.

وذكر بعضهم النفاذ وعدم التخلف وهذا يدخل تحت الاطراد والثبات وقال بعضهم أن من خصائص السنن الإلهية بل كل شيء إنما هو من الله، وعلى كل لو أردنا أن نحصي الخصائص لدى جميع الباحثين لوجدناها سبعة وهي:

١- الثبات. ٢- العموم والشمول.

٣- الإطراء. ٤- الواقعية.

٥- النفاذ وعدم التخلف. ٦- التوازن والتناسق.

٧- ربانية المصدر.

(١) في ظلال القرآن (١/ ١١).

المبحث الثاني

نماذج من السنن الإلهية الكونية

قبل الشروع في بيان تلك السنن لابد من الإشارة إلى أمر هام، ألا وهو أن التأمل في الكون إنما هو أمر إلهي، نحن مأمورون به في كتاب الله تعالى، وإلا فلماذا الآيات القرآنية الكثيرة التي تحدث عن خلق الكون، إنما كان ذلك الأمر الإلهي ليستفيد الإنسان من الكون الذي خلقه الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٣]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥]، إلى غير ذلك من آيات.

«وإهمال الأمر الإلهي بالنظر في آيات الله الكونية سوف تجني ثمرته الأمة كلها في الدنيا تخلفًا وفقرًا وجهلًا، ويحاسب عليه المسؤولون أمام الله من الحكام والعلماء، يحاسب عليه كل منهما على قدر مسؤوليته، فالعقاب في الدنيا جماعي، وفي الآخرة فردي، ومن ثم كان من واجب المسلمين أن يجمعوا بين قراءة القرآن تدبرًا وفهمًا، قراءة الكون كشفًا عن قوانينه وتأملاته في آيات الله المبثوثة في مفرداته»[(١)]، ونحن نكتفي بذكر بعض السنن الكونية وعلاقتها بحياة البشر ونفعها الديني والدنيوي وذلك من خلال خمسة محاور:

---

(١) رسالة القرآن ـ إعداد نخبة من الباحثين ـ بحث بعنوان: نحو قراءة كونية لكتاب الله ـ للأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند ـ منشور بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ بدولة قطر ـ مركز البحوث والدراسات (ص٨٧).

المحور الأول: سنة الله تعالى في خلق المادة وعلاقتها بالكون:

(أ) تعريف المادة وبيان عناصرها:

المادة: كل ما يشغل حيزُ من الفراغ، وله وزن، ومرونة، وصفات أخرى. وتتحول المادة من صورة إلى أخرى..... وتتكون المادة من جسيمات صغيرة تسمى «جزيئات» في حركة دائمة داخل الجسم.... وللمادة ثلاث حالات طبيعية. الصلابة، والسيولة، والغازية. وفي هذه الحالات لايحدث تغيير داخلي لجزيئات المادة... بل تتغير في وضعها وفي سرعتها فقط، بخلاف التغيرات الكيمائية.. وعدد المواد الرئيسية للمادة يبلغ (١٠٢) مادة أو عنصرًا ويمكن تحويل أي مادة أخرى عند إحداث تغيير في تركيب ذراتها داخل الجزيء. من ناحية أخري تنقسم المواد إلى مواد حية ومواد جمادية يختص علم الحيوان بدراسة المواد الحية، ويختص علم الفيزيقية بدراسة المواد عمومًا، والقوى المؤثرة فيها،والطاقة المتولدة منها»[١].

(ب) بين المادة والكون: يقول الأستاذ محمد كامل عبد الصمد.

«تشير أحداث نظرية علمية في مجال الفيزياء الكونية إلى أن مادة هذا الكون كله، والذي يقدر امتداد محيطه الآن بمقدار ١٢٥ ألف مليون سنة ضوئية.. هذه كانت منذ أكثر من عشرة آلاف مليون سنة ضوئية مجتمعًا معًا، بحيث إن محيط هذا الكتلة الكونية لم يزد عن أربع سنوات ضوئية، وكانت مادة هذا الكون هي جسيمات من الفوتونات والإلكترونيات والنيوترونات، والجسيمات المضادة لهذه الجسيمات.

أما درجة الحرارة، فكانت لا نهائية، وكذلك الكثافة كانت أيضًا لا نهائية، وهذه الحالة لم تستمر لأكثر من جزء من مائة جزء من الثانية، بعدها انخفضت درجة الحرارة إلى مائة ألف مليون درجة مطلقة.

---

(١) غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم ـ لخالد عبد الرحمن ـ دار الالباب ـ بيوت ـ ط١ ـ ١٩٩١ ـ (ص٧١-٧٢) بتصرف.

وعلى مدى ثلاث دقائق وست وأربعين ثانية فقط، حدثت تغيُّرات رهيبة في هذه الكتلة الكونية الواحدة، أدت إلى ظهور ألف مليون درجة مطلقة، أخذت أجزاء هذا الكون تتمدد في الفضاء وتبتعد، وتتجمع في شكل مجرات ونجوم وظواهر كونية مثيرة[١]. و هذا تفسير لقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

– وفي ذات الموضوع يتحدث الأستاذ الدكتور زغلول النجار قائلًا: «في السنوات ١٩٤٧– ١٩٥٤ قام الروسي أليكساندر فريد مان بتقديم نموذجين لتفسير نشأة الكون: يبدأ كل منهما بحالة منفردة تتميز بكثافة لانهائيه، وتتمدد منها إلى حالات ذات كثافة أقل».

وتحدث «فريد مان» عن: انحناء الكون، وعن تحدبه تبعًا لكمية المادة الموجودة فيه، فإن كانت تلك المادة أقل من قدر معين «كمية حرجة»، وجب أن يستمر تمدد الكون إلى الأبد، وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مفتوحا أما إذا كانت كمية المادة في الكون أقل من الكمية الحرجة عند الجاذبية على قدر من القوة بحيث تجذب الكون إلى درجة تتوقف معها عملية التمدد، في لحظة معينة من المستقبل»[٢].

ويقول – النجار – بعد صفحات: «وهذه الحقائق الكونية لم يستطيع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين حيث توصل العلم الحديث إلى إثبات توسع الكون[٣]، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧].

(١) الإعجاز العلمي في الكريم ـ لمحمد كامل عبد الصمد ـ الدار المصرية، اللبنانية ـ القاهرة (ص٧١).
(٢) السماء في القرآن الكريم ـ للدكتور زغلول النجار ـ طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر ـ ٢٠٠٧ ـ (ص٩٨) باختصار يسير.
(٣) المرجع السابق (ص١٠٦).

(جـ) بين المادة والذرة والكون:

القول بأن كل ما في الكون من أشياء مكون من ذرات قول قديم يعتقد أن أول من قال به الفيلسوف اليوناني «ديقريطيس»، وقد تبنى هذا القول بعض الفرق الإسلامية، وكانوا يسمون الذرة بـ«الجزء الذي لا يتجزأ»، لكنهم يعتقدون أن الله هو الذي خلق الذرات ثم خلق منها الكون، لذلك يقولون إن الكون جمع وتفريق؛ أي إذا أراد الله أن يخلق شيئًا فإنما يكوِّنه من تلك الذرات التي خلقها أولًا»[١]، فهل الذرة مادة أزلية؟.

الجواب: كلا، فقد أبطل تطور علم الفيزياء هذا الظن، إذ قد تبين أن الذرة نفسها مركبة من أجزاء عرفنا منها أولًا الإلكترون، والنيوترون، والبروتون، ثم تبين أن هذه المكونات نفسها مركبة من أجزاء، وآخر ما عرفة الفيزيائيون منها هو ما يسمى بـ«الكوارك»[٢].

«وهناك أبحاث لا يتسع المجال لذكرها أمكن من خلالها إثبات أن كل العناصر تتكون من ذرات وان هذه الذرات ليست بسيطة في تركيبها كما كان يظن، ولكنها تتركب من جسم صغير يسمى «البروتون»، وحوله أجسام صغيرة تسمى «الإلكترونات» وهذه الإلكترونات في حركة دائمة حول البروتون... ويحمل «البروتون»، الشحنة الموجبة، وتحمل الإلكترونات الشحنة السالبة، وكتلة البروتون قد تزيد ١٨٤٠ مرة على قدر كتلة الإلكترونات، بحيث يصح القول إن أغلب كتلة الجسم ناتجة عما به من «البروتون»»[٣].

وقد أشار ربنا جَلَّوَعَلَا إلى كل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [يونس:٦١].

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق ـ للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس - كتاب المنتدى -، تابع لمجلة البيان ـ الرياض ـ ط١ ـ ٢٠٠١ (ص٧٤).

(٢) المرجع السابق (ص٧٥).

(٣) الإعجاز العلمي في الإسلام والقرآن الكريم (ص٧٣).

المحور الثاني: علاقة المادة بالسنن الإلهية:

سبق وأن ذكرنا أنَّ من خصائص السنن الإلهية أنها ثابتة ومطردة ومما نطبق عليه هذه الخصائص المادة: التي تحدثنا عنها في المحور السابق في هذا المعنى يقول الدكتور أحمد محمد كنعان «متحدثًا عن سنة العموم والشمول في الكون»:

أنَّ من يتأمل هذه الخلائق المبثوثة في الكون مِن حوله، يجد أنها جميعًا ترتبط بمنهج موحد من السنن الربانية، التي تقرب بعضها من بعض، فمِن عالم الذرة المتناهية في الصِغَر إلى عالم المجرة المتناهية في الكِبَر نجد أن السنن التي تحكم هنا هي نفسها التي تحكم هناك، فلا فرق ما بين كبير وصغير من الكائنات أمام السنن الإلهية الشاملة التي تحكم هذا الكون كله[١].

ومن الأمثلة الواضحة على سنة العموم في الخلق: النظر في المكونات الأساسية للمخلوقات الحية؛ إذ من المعلوم أن هذه الكائنات كلها دون استثناء تتكون من وحدات أساسية تُدعى الخلية؛ وهذه الوحدات متشابهة في التركيب سواء أكانت الخلية بشرية أو حيوانية أو نباتية، فكل خلية تتركب من مادة صبغية وراثية تتجمع في النواة، وتحمل صفات ذلك الكائن الحي، وتنقلها بالتزاوج والتكاثر من جيل إلى جيل في النوع نفسه، وتحيط بالنواة مادة حيوية تتم فيها النشاطات الحيوية المختلفة، ويحيط بالمادة الحيوية غلاف أو غشاء يحدد الخلية ويعطيها شكلها الذي يميزها عن غيرها من الخلايا.

هذا كله مما يدل دلالة واضحة على عموم سنة الله في خلقه للكائنات الحية، سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير[٢].

---

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (ص٥٣).

(٢) المرجع السابق (ص٥٦) بتصرف.

ومن الأمثلة أيضًا فيما يتعلق بتكون الطاقة من الاحتراق:

من المعلوم أن أكثر الكيميائية العضوية قابلة للاحتراق، يمكن مثلًا حرق السكر العادي كليًّا، فيعطي ثاني أكسيد الكربون وماء وحرارة؛ لكن الطاقة الحرارية المنبعثة من الاحتراق الكامل لا تنفع الخلايا الحية، لأن استعمال مثل هذه الطاقة يتطلب اختلافًا كبيرًا في درجات الحرارة، كما في محرك السيارة، بينما درجة الأجسام الحية هي ذاتها تقريبًا في جميع أنحائها فدرجة حرارة جسم الإنسان المعافى لا تزيد عن ٣٧، لذلك أصبح من الضروري الاستفادة في الجسم الحي من الطاقة الكيمائية الناجمة عن عملية الاحتراق، بأن تُجزَّأ هذه الطاقة وتستخرج على مراحل وبخطى صغيرة، تنتج عن كل منها كمية من الطاقة قابلة للقياس تُساوِي وحدة وحدة أو وحدتين وحدتين من عملة «طاقة الخلية»[(١)].

هذين المثالين فيما يتعلق بالمادة يتكرران على وتيرة واحدة بصفة مستمرة دون إخلال ولا تأخر وهذا مما يدل على ثبات السنن الإلهية الكونية.

المحور الثالث: سنة الله في التوازن في الكون:

والحديث حول هذه السنة الإلهية يمكننا بسطه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: تعريف التوازن لغة واصطلاحًا:

أما التوازن لغة: فهو مأخوذ من مادة وزن، والوزن معرفة قدر الشيء، فقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٩]، إشارة إلى العدالة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال الأقوال، وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩]، إشارة إلى كل ما أوجد الله تعالى وأنه خلقه باعتدال، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩].

ويقال: قام ميزان النهار انتصف[(٢)].

---

(١) غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم (ص٨-٨٢) بتصرف يسير.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (٢/ ٦١٨).

وأما اصطلاحًا «أي في المصطلح العلمي الحديث فهو ناتج عن مجموعة من القوى الرابطة، وهي قوى لجذب وقوة النبذ بين الكواكب، وهاتان القوتان غير مرئيتين ولكنهما متوازيتين متساويتين وسطيًّا والتوازن نتيجة هامة في الحفاظ على الوضع النسبي للأجرام السماوية على الرغم من حركتها»[١].

ثانيًا: إثبات وجود سنة التوازن في الكون عن أقوال أهل الاختصاص:

«أجرى عالم الفيزياء «باول ويفز»[٢] حسابات مطولة لهذا والظروف التي ربما وجدت لحظة الانفجار الكبير،وتوصل إلى نتيجة على الأقل يمكن وصفها بأنها مذهلة، فوق حسابات دفيز نفسه ـ إذ اختلف معدل التمدد بأكثر من (١٠-١٨) من الثانية، أي واحد من كوينتلبون من الثانية فيجب ألا يكون هناك كون؛ ووصل إلى النتيجة التالية وهي: أوصلت القياسات الدقيقة معدل التمدد لقيمة حدية قريبة جدًا للقيمة التي عندها، سيهرب الكون من جاذبيته الخاصة، ويبقى التمدد إلى الأبد، أما لو أبطأ قليلًا وكان معدل تمدده أقل من القيمة الحدية له فسوف ينهار الكون على نفسه، ولو كان أكثر سرعة بقليل فإن مادة الكون ستكون قد اختفت منذ زمن بعيد، وهنا نكتشف أن قوة انفجار الكون تلاءمت وتوافقت بدقة لا معقولة مع قوة جاذبيته الثقالية، والانفجار الكبير أكيد ليس انفجارًا عبثيًّا، إنما كان انفجارًا منظمًا ومقدرًا بعناية فائقة وإتقان»[٣].

أما العالم مستضيف هاوكغ[٤] الذي حاول بشدة أن يحيد في تفسير أن الكون يدل على وجود الخالق، وأقر أن الخلق ليس سوى سلسلة من المصادفات في كتابة «مختصر تاريخ الزمن» اعترف بالتوازن العجيب في معدل التمدد وقال: «إذا كان معدل التمدد

(١) عالم فيزياء ورياضيات ـ وأستاذ بجامعة اديلتارد باستراليا.
(٢) منتديات شبكة أنصار الحجة الثقافية «الإنترنت».
(٣) موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ـ إشراف فراس نور الحق.
(٤) عالم فلكي أمريكي.

بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير أصغر بمقدار حتى ولو جزء واحد من مائة ألف مليون بليون فالكون سينهار ثانية على نفسه قبل أن يصل إلى حجمه الحالي»[١].

ثالثًا: سنة التوازن الكوني في القرآن الكريم:

وردت آيات عديدة تأمر بإقامة الوزن والميزات والقسط والعدل؛ وكان في بعض تلك الآيات إشارة إلى أن هذا الكون قائم على هذا التوازن كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩].

قال المراغي: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي أن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرًا، فترى العنصر الواحد يختلف في نبات عنه في آخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة في الأرض، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان، والأوراق والأزاهير، والذي حدد هذا الاختلاف في تلك الفتحات الشعرية التي في ظواهر الجذور ثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد ما سواه، لأنه لا يلائمها، وحسبك دليلًا على ذلك ما نجده في سورة الرحمن ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧]، كما نظَّم سبحانه الكواكب في سيرها وحركاتها وأوضاعها، وأضوائها ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع البعض[٢].

المحور الرابع: قوانين الكيمياء الحيوية تكشف بعضًا من أسرار الحياة:

لقد كشفت قوانين الكيمياء الحيوية من أسرار الحياة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين في أي ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية يقول الأستاذ خالد العك:

«لقد كان النّاس ينظرون إلى خفايا عمليّات الهضم والامتصاص، ويستدلون بها على وجود التدبير المقدّس! «يعني تدبير الله تعالى». أما في الوقت الحاضر.. فقد أمكن

(١) المرجع السابق.

(٢) تفسير المراغي (٢٧/ ١٥) باختصار.

شرح هذه العمليات ومعرفة التفاعلات الكيمويّة التي تنطوي عليها.. والخميرة التي تقوم بكل تفاعلٍ.. ولكن هل يدلّ ذلك على أنّه لم يعد لله تدبير في كونه؟!.

إن نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التي تُبينّ التفاعلات الدائريّة العديدة.. وما يدور بين كلٍّ منها والآخر من تفاعلاتٍ أخر.. كفيلة بأن تُقنع الإنسانَ بأنّ مثل هذه التفاعلات لا يمكن أن تتِمَّ بمحض المصادفة!!..

ولعلّ هذا الميدان يُهيئ للإنسان من العلم ما لا يُهيئُهُ أيُّ مَيْدَانٍ آخرُ بأن الله يُسيرّ هذا الكون تبعًا لِسُنَنٍ رسمها ودبرها عندما خلق الحياة»[١].

وفي نفس المجال أو قريبًا منه يقول الدكتور أحمد كنعان: «ولعلنا نبين طرفًا آخر من التكامل في الخلق حين ننظر نظرة شاملة إلى عالم المخلوقات الحية (الإنسان – الحيوان – النبات) فوظيفة النبات هي الإرجاع والتركيب، إذ يأخذ التراب والهواء والماء فيركب منها الثمار، ليقدمها يافعة سائغة للإنسان والحيوان، لكي يبنيا منها أجسامهما، إلى جانب ما يقوم به النبات من عمل بالغ في الأهمية في تنقية جو الأرض من غاز ثاني أكسيد الكربون، الذي ينتج عن تنفس الإنسان والحيوان فينزع منه الأكسجين ويعيده إلى جو الأرض، خلال عملية التمثيل الضوئي، لكي يقوم الإنسان والحيوان باستخدام هذا الأكسجين من جديد.

وأما وظيفة الإنسان والحيوان فهي (الأكسدة والتعويض) أي هي نقيض وظيفة النبات، إذ يأخذ الإنسان والحيوان غذاءهما من عالم النبات فيهضمانه ليبنيا منه خلاياهما وأعضاءهما، وليستمدا منه الطاقة اللازمة للحركة والنمو والتكاثر، ثم يطرحان ما لا يهضمانه إلى التراب والهواء، ليبدأ دور النبات من جديد وبهذا تكتمل دورة الحياة وتتعاون هذه المخلوقات معًا ضمن حلقة متكاملة السنن[٢].

---

(١) غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم لخالد عبد الرحمن العك (ص١٧٨) باختصار.

(٢) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (ص٥٦-٥٧) باختصار.

المحور الخامس: فوائد معرفة السنن الكونية الدينية والدنيوية:

إننا إذا رفعنا أعيننا نحو السماء.. فلابُدّ أن يستولي علينا العجبُ من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها!! والتي تتبع نظامًا دقيقًا لا تحيد عنه قيدَ أنملة مهما مرّت بها الليالي.. وتعاقبت عليها الفصُولُ والأعوامُ والقرون!!.

إنّها تدور في أفلاكها بنظامٍ يُمكّننا من التوقع بما حدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه؛. فهل يظنّ أحدٌ بعد ذلك أنّ الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائيّة من المادّة تتخبّط على غير هدى في الفضاء؟! وإذا لم يكن لها نظام ثابت؛ ولم تكن تتبع قوانين معيّنة فهل كان من الممكن أن يثق الإنسان ويهتدي بهديها في خِضَمِّ البحار السبعة؟ وفي متاهات الطرق الجويّة التي تتّبعها الطائرات؟!!.

الحقُّ أنّه من قطرة الماء التي رأينا تحت المجهر إلى تلك النجوم التي شاهدناه خلال المنظار المكبِّر؛ لا يسع الإنسان إلاّ أن يمجد «خالقَ» ذلك النظام!. وتلك الدّقة البالغة!. والقوانين التي تعبر عن عظيم خالقها ومبدعها!!..

ولولا ثقة الإنسان في أنّ هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها.. لَمَا أضاعَ الناس أعمارهم بحثًا عنها!؟.

فبدون هذا الاعتقاد.. وتلك الثقة في نظام الكون يصير البحث عنها عَبَثًا ليس وراءه طائل[1].

ولو أنّه كلّما أجريت تجربة أعطيت نتيجةً مخالفة لسابقتها؛ بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة؛. فأي تقدّم كان مِنْ الممكن أن يحقّقهُ الإنسان؟

لا بدّ أن يكون وراء كل ذلك النظام خالقٌ أعلى!!

---

(١) غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم (ص١٧٩-١٨٠) باختصار.

فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها «مدبّرٌ» أعلى ومنظّمٌ مُبدع!!.

وكلّما وصل الإنسان إلى قانون جديد.. فإنّ هذا القانون ينادي قائلًا: «إنّ الله خالقٌ!! وليس الإنسانُ إلا مُستكشِفًا لتلك القوانين ومستفيدًا منها في تسخيرها لمنافعه.

إنّ وجودَ الله في حياتنا اليوميّة حقيقة لا مِراَء فيها!! حقيقة أقوى من الحقائق التي لا يتسرّب إليها الشك»[١]!!..

وتلك فائدة حقيقية بل عقائدية مهمة جدًا لدعوة العلماء من غير المسلمين للتأمل فيها ليدخلوا في دين الله تعالى وليوحدوه جَلَّوَعَلَا وبالفعل فإنَّ مَنْ تأمل فيها بإنصاف ولم يتكبر ولم يتعال على ما تُوصِّل إليه تلك السنن الإلهية آمن بالله الواحد الخالق؛ وأكتفي هنا بذكر تصريحين لعالمين من علماء الغرب.

يقول العالم هوشل: «كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القويّة على وجودِ خالقٍ أزليّ لا حدّ لقدرتهِ ولا نهاية!! فالجيولوجيون والرياضيّون والفلكيون والطبقيّون قد تعاوَنُوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى»[٢].

ويقول «هربرت»: «إن العالِم الذي يرى قطرة الماء، ويعلم أنها تتركب من الأكسجين والأيدروجين بنسبة خاصّة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء؛ يعتقدُ عظمةَ الخالق وقدرتَهُ وحكمتَهُ، وعلمَهُ الواسِعَ، بأشدِّ وأعظمِ وأقوى مِنْ غير العالِمِ الذي لا يرى فيها إلاّ أنّها قطرةُ ماءٍ فحسب!! وكذلك العالِمُ الذي يرى قطعة البَرَدِ -الثلج- وما فيها من جَمَالِ الهندسة ودقّةِ التصميم؛ لا شكَّ أنّه يشعرُ بعظمةِ

(١) المرجع السابق نفس المكان.
(٢) المرجع السابق نفس المكان.

الخالقِ ودقيقِ حكمتهِ، أكثرَ من ذلك الذي لا يعلمُ إلاّ أنها حَبّةُ مطرٍ تجمّدَتْ من شدَّة البرد»[١].

وذلك مصداق قولـه تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

(١) المرجع السابق نفس المكان.

المبحث الثالث

الكشف العلمي..
مفهومه ومقوماته ونماذج منه في العصر الحديث

* فيما سبق ذكره عرفنا خصائص السنن الإلهية وأعطينا أمثلة عليها؛ وما عرفه الإنسان من سنن تحكم الكون إنما تم في الغالب الأعم عن طريق البحث والتنقيب، والصبر والمصابرة، حتى صارت تلك الاكتشافات حقائق ثابتة.

* ولكن هل توقف الإنسان عن الكشف عن أسرار الكون ومعرفة قوانينه التي خلقه الله عليها، وهل أشبع الإنسان نهمته من البحث؟ إنه لم يتوقف ولم يُشبع نهمته، ولن تشبع لأنه جُبِلَ على حب الاستطلاع ومحاولة معرفة الأسرار.

* وبناء على هذه المقدمة الموجزة كان لا بد من إعطاء نبذة يسيرة حول مفهوم الكشف العلمي ومقدماته وإعطاء نماذج منه، وذلك ليعلم الباحث أن الكشف عن سنن الله في الكون أصبحت له قوانينه التي لا بد من السير عليها؛ ليصل كل باحث إلى مطلوبه؛ ومن ثم تكون هذا المبحث من ثلاثة محاور على النحو التالي:

المحور الأول: تعريف الكشف العلمي في اللغة وفي لغة العصر:

١- معنى الكشف لغة: تقول: كشف الشيء وعنه كشفًا: دفع عنه ما يواريه، وكشف الأمر أظهره، وكشف الله غمه: أزاله، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان:١٢].

٢- معنى العلم: له عدة معان: منها: إدراك الشيء بحقيقته، وهو يعني أيضًا اليقين، ويطلق العلم على إدراك الكلي والمركب من الأشياء بينما تطلق المعرفة على إدراك الجزئ

أو البسيط[١]، كما يطلق العلم أيضًا على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة كعلم الكلام والنحو وعلم الأرض وعلم الكونيات والآثار...الخ[٢].

٣- مفهوم العلم في هذا العصر وربطه بمفهوم العلم عند الغزالي: إن مفهوم العلم توسع في هذا العصر، وذلك لتعدد العلوم وكثرتها، وتعدد طرق الوصول إليها وإيصالها للآخرين، وقد حصل اختلاف في مفهوم العلم في عصرنا؛ لأن العلم من معانيه اللغوية اليقين، وهل كل ما يوصل إليه العلم في هذا العصر يؤخذ على أنه بقين أم يبقى محل شك لدى البعض.

* وسأعرض هنا بعض التعاريف أو المفاهيم الواردة في العلم وذلك بالنظر إلى عدد من التخصصات المعاصرة:

فمن جهته آينشتاين، عالم الفيزياء الشهير يعرف العلم بأنه «السعي عن طريق التفكير المنظم نحو تجميع كل الظواهر الممكن إدراكها حسيًّا في هذا العالم في ارتباط شامل قدر الإمكان»، إذن فآينشتاين يحصر العلم في ما يمكن ملاحظته حسيًّا في هذا العالم المحسوس على أن يكون المنهج منظمًا عقلانيًا يوفر ربط الظواهر في سياق واحد[٣].

* وإذا نظرنا في الموسوعات الفلسفية العالمية نجد أنه قد ورد في موسوعة لالاند هذا التعريف «العلم هو مجموعة معارف وأبحاث على درجة كافية من ناحية الوحدة والعمومية، ومن شأنها أن تقود البشر الذين يتكرّسون لها إلى استنتاجات متناسقة، لا تنجم عن مواضعات ارتجالية ولا عن أذواق أو اهتمامات فردية تكون مشتركة بينهما، بل تنجم عن علاقات موضوعية نكتشفها بالتدرج ونؤكدها بمناهج تَحقُّق محددة»[٤].

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٧٩٤) بتصرف.
(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٣٠).
(٣) موقع منتدى الاستراتيجية للبحث العلمي.
(٤) موسوعة لالاند الفلسفية (ص١٢٤٩) نقلًا عن موقع منتدى الاستراتيجية للبحث العلمي.

* يعرف البعض العلم بأنه «نسق المعارف العلمية المتراكمة أو هو مجموعة المبادئ والقواعد التي تشرح الظواهر والعلاقات القائمة بها»[١].

* وإذا نظرنا إلى هذه التعريفات والمفاهيم للعلم وجدنا أنها ملتصقة التصاقًا تامًا بالعلوم الحسية الملموسة، ولا علاقة لها بالأمور الغيبية أو الإيمانية، ولكي نعطي كل ذي حق حقه، أحببنا أن نورد هنا مفهوم العلم لدى بعض علماء الإسلام.

* يقول أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم: «وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال ابن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقد مات تسعة أعشار العلم فعَّرفه بالألف واللام ثم فسره بالعلم بالله.

ولقد تصرفوا فيه – يعني بعض المحرفين للمفاهيم – أيضًا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال هو عالم على الحقيقة، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته»[٢].

وإذا تأملنا في مفهوم العلم عند الغزالي وجدنا أنه لا يُخرج العلوم الحديثة عنه إذا ربطناها بقوله: «والعلم بأفعاله في عباده وخلقه لأن هذه الاكتشافات العلمية إنما هو جزء من معرفة أفعال الله في خلقه، وهي سننه الكونية، ولكن لا بد من الإشارة إلى أمر هام ذكره الغزالي نفسه في سياق حديثه عن العلم وفضائله حيث يقول: «مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة ومنزلًا»[٣]، ثم يقول بعد ذلك بقليل: «فتعليم

(١) ساسي سفيان مقال بعنوان الحوار المتمدن عدد ١٠٥٧ تاريخ ٢٤/ ٢٠٠٤ إيميل.
(٢) إحياء علوم الدين الغزالي (١/ ٩٩-١٠٠) بتصرف.
(٣) المرجع السابق (١١/ ٥٩) بتصرف.

العلم من وجه عبادة لله تعالى ومن وجه آخر خلافة لله تعالى، وهو من أجلِّ خلافة الله تعالى»[١].

بناءًا عليه نستطيع القول بأن مفاهيم العلم لدى الفلاسفة وغيرهم من المعاصرين لا تخرج عما أشار إليه الغزالي ولكن الفارق هو – ربط طلب العلم – أو البحث العلمي بمعرفة الله وزيادة الإيمان وهذا فارق هام جدًّا حتى لا يصبح الاكتشاف العلمي سببًا في تدمير البشرية قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١].

لأن من قرأ العلم وبحث فيه بغير اسم الله، لن يُخلص في استخدام ما توصل إليه من نتائج في الخير، ونفع الإنسانية، ولننظر إلى غالبية أسباب الرفاهية في حياة البشر اليوم تحولت إلى أسباب شقاء، واستخُدِمَتْ الاكتشافات العلمية في تطوير السلاح ليقتل الإنسان أخاه الإنسان.

المحور الثاني: وظائف العلم ومقومات البحث العلمي:

والمراد بالعلم هنا ما سبقت الإشارة إليه أعني به العلم الذي يوصل البشرية إلى اكتشافات كونية يستفيد منها الإنسان، وقد ذكر بعض الباحثين عن وظائف العلم بقوله:

يضطلع العلم بوظيفة أساسية تتمثل في النظام السائد في هذا الكون، وفهم قوانين الطبيعة والحصول على الطرق اللازمة للسيطرة على قوى الطبيعة والتحكم فيها، وذلك عن طريق زيادة قدرة الإنسان على تفسير الأحداث والظواهر والتنبؤ بها وضبطها.

وتنحصر وظائف العلم في تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي:

١- الاكتشاف والتعبير: وتتمثل هذه الوظيفة للعلم في اكتشاف القوانين العلمية العامة والشاملة للظواهر والأحداث المتشابهة والمترابطة والمتناسقة عن طريق ملاحظة

(١) المرجع السابق (١/ ٦١).

ورصد الأحداث والظواهر وتصنيفها وتحليلها عن طريق وضع الفرضيات العلمية المختلفة، وإجراء عمليات التجريب العلمي للوصول إلى قوانين علمية موضوعية عامة وشاملة؛ تفسر هذا النوع والوقائع والأحداث.

٢- التنبؤ العلمي: بمعنى أن العلم يساعد على التنبؤ الصحيح لسير الأحداث، والظواهر الطبيعية وغير الطبيعية المنظمة بالقوانين العلمية المكتشفة، مثل التوقع والتنبؤ بموعد الكسوف والخسوف، وبمستقبل حالة الطقس، وبمستقبل تقلبات الرأي العام سياسيًا واجتماعيًا؛ إلى غير ذلك من الحالات والأمور التي يمكن التنبؤ العلمي بمستقبلها وذلك بغرض أخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة ذلك.

ولا يقصد بالتنبؤ هنا، التخمين أو التكهن بمعرفة المستقبل، ولكن المقصود هو القدرة على توقع ما قد يحدث إذا سارت الظروف سيرًا معينًا، مع التذكير بأن التنبؤات العلمية ليست على نفس الدقة في جميع مجالات العلم، ففي العلوم الطبيعية، تكون أكثر دقة منها في مجالات العلوم السلوكية، ومجالات المعرفة الاجتماعية.

٥- الضبط والتحكم: يساهم العلم والبحث العلمي في عملية الضبط والتحكم في الظواهر والأحداث ووقائع الأمور والسيطرة عليها، وتوجيهها التوجيه المطلوب، واستغلال النتائج لخدمة الإنسانية، وبذلك تمكن الإنسان بفضل العلم من التحكم والضبط «مثلًا» في مسار الأنهار الكبرى، ومياه البحار والمحيطات، والتحكم في الجاذبية الأرضية واستغلال ذلك لخدمة البشرية، كما أصبح اليوم بفضل العلم، التحكم في الأمراض وسلوكيات البشر؛ وضبطها وتوجيهها نحو الخير؛ وكذلك التحكم في الفضاء الخارجي واستغلال ذلك لخدمة الإنسانية جمعاء[١].

(١) ساسي سفيان – الحوار المتمدن العدد ١٠٥٧ / ٢٤ / ١٢ / ٢٠٠٤.

مقومات البحث العلمي: وإذا كانت تلك هي وظائف العلم، فإن البحث العلمي في حاجة إلى عدد من المقومات حتى يصل إلى مطلوبة من الاكتشافات العلمية والتي هي بدورها تكون سببًا في تطوير حياة البشر وعمارة الكون.

وسنشير هنا إلى ثلاث مقومات هي مهمة جدًّا وعلى أساسها يقوم البحث العلمي وبه تتم الاكتشافات:

أولًا: التمويل الكافي: إذا لم يوجد المال الكافي لأي باحث أو مكتشف أو عالم متخصص، فهذا يعني عدم الإنتاجية أو ضعفها بقدر ضعف التمويل، وبالتالي هذا يعني التخلف عن ركب الحضارة العالمية.

وبنظرة سريعة إلى حال العالم العربي والإسلامي، نجد أن البحث العلمي قد هُمِّش تهميشًا تامًا حتى أصبح نسيًا منسيًا؛ وهذا ما يفسِّر لنا حالة التخلف التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم.

ولإلقاء الضوء على قضية تمويل البحث العلمي في عالمنا الإسلامي يقول الباحث الاستاذ محمد مسعد ياقوت[١]: استطاعت الدول المتقدمة أن توجد آليات وتعتمد على وسائل تمكنها من توفير الميزانيات اللازمة للإنفاق على البحث العلمي وتنويع مصادره، إضافة إلى الإنفاق عليه بسخاء من ميزانياتها، بينما في البلدان العربية تواجه المؤسسات البحثية والجامعية الكثير والكثير من المعوقات والتحديات، ومن أهمها انخفاض مستويات التمويل، وتدني إسهام القطاع الخاص في شؤون التعليم العالي والبحث العلمي، إذ إن نسبة تمويل البحث العلمي تكاد لا تصل إلى ١٪ من الموازنات العامة.

(١) الأستاذ محمد مسعد ياقوت: كاتب وباحث مهتم بشأن البحث العلمي وأزمته في العالم العربي وله كتاب عن هذا الموضوع تحت عنوان (أزمة البحث العلمي في مصر والوطن العربي) مجلة المعرفة – الرياض – العدد ١٣٦.

وتختلف الأقطار العربية فيما بينها من حيث حجم الإنفاق على البحث العلمي. والملاحظ أن نسبة الإنفاق على البحث العلمي بالنسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي لم تتعد ٠،٥ ٪ في الأقطار العربية كافة لعام ١٩٩٢م، وهي نسبة ضئيلة عند مقارنتها بمثيلاتها في السويد وفرنسا حيث بلغت ٢،٩٪ و٢،٧٪ على التوالي(١).

وتحت عنوان مقارنة محرجة يقول الأستاذ محمد ياقوت: في حين نلاحظ أن الإنفاق على البحث العلمي في إسرائيل (ما عدا العسكري) حوالي ٩،٨ مليارات «شيكل» أي ما يوازي ٢،٦٪ من حجم إجمالي الناتج الوطني في عام ١٩٩٩م، أما في عام ٢٠٠٤ م فقد وصلت نسبة الإنفاق على البحث العلمي في إسرائيل إلى ٤،٧ ٪ من ناتجها القومي الإجمالي؛ علمًا بأن معدل ما تصرفه حكومة إسرائيل على البحث والتطوير المدني في مؤسسات التعليم ما يوازي ٣٠،٦٪ من الموازنة الحكومية المخصصة للتعليم العالي بكامله، ويصرف الباقي على التمويل الخاص بالرواتب، والمنشآت، والصيانة، والتجهيزات... على العكس تمامًا ما يحدث في البلدان العربية، إذ أغلب الموازنة المخصصة للبحث العلمي تصرف على الرواتب والمكافآت والبدلات وغيرها. والجدير بالذكر أن المؤسسات التجارية والصناعية في إسرائيل تنفق ضعفي ما تنفقه الحكومة الإسرائيلية على التعليم العالي(٢).

* هذا الكلام إن دل فإنما يدل على أن الأمة التي أمرها الله بالنظر في الكون والبحث عما يفيد الإنسانية في أطرافه غفلت عن هذه المهمة؛ وإن شئت قل تغافلت عنها، ولكن يبدو أن السنوات الأخيرة بدأت بعض الدول تبدي اهتمامها بالبحث العلمي؛ ولكن لم يصل إلى المستوى الذي يذكر.

---

(١) مجلة المعرفة الرياض – العدد ١٣٦ وموقع صيد الفوائد باختصار.

(٢) المرجع السابق: نفس المكان.

ثانيًا: الجامعات التي تخرج المؤهلين للبحث العلمي المتطور:

وأبادر بالقول أن من الطبيعي أن يكون ضعف التمويل هو السبب الأساس في ضعف الجامعات في العالم العربي والإسلامي، ومن المفيد أن أذكر كلامًا هامًا للدكتورة ليلى بيومي لإعطاء صورة عن وضع الجامعات من عدة جوانب مالية وغيرها مما له دور أساس في تطوير الجامعات وخريجيها حيث قالت: «هذه الجامعات لم تكن مجالًا للبحث العلمي قط؛ فقد انهمكت بعد حصول بلداننا على الاستقلال في تكوين الكوادر من أطباء وحقوقيين ومدرسين ورجال إدارة؛ ليحلوا محل الكوادر الاستعمارية، واستمرت هذه الوضعية ردحًا من الزمن، وبعد ذلك عند دخول هذه الدول فيما يسمى بالتقويم الهيكلي الاستعماري الذي أملاه صندوق النقد الدولي، قَلَّتْ الاعتمادات المالية والنفقات الاستثمارية في التعليم؛ وفي سائر القطاعات؛ فبدأت ظاهرة بطالة الخريجين التي ما زلنا نعانيها: طوابير من المتعلمين والكفاءات معطلة عن الإنتاج، لا تتاح لها فرصة القيام بدور منتج، مشلولة مهمشة، رغم الحاجة الوطنية الملحة إلى المتعلمين كافة وفي سائر التخصصات»[(١)].

* وبالرغم من إقرار الجميع أنَّ البحث العلمي هو السبب الرئيس في تقدم البلاد وتحضرها؛ إلا أن النظر إلى وضع الجامعات العربية والإسلامية حاله كما وصفت الدكتورة ليلى بيومي بقولها: «يلاحظ بعض الباحثين أن جامعاتنا لا تقر سياسات البحث العلمي، ولا تحدد أهدافًا استراتيجية على المدى القصير، ولا على المدى الطويل، ولا المتوسط، ولا تضم البرامج السنوية للجامعات برامج بحوث بالمفهوم العالمي إلا نادرًا، وغالبًا ما تكون مشاريع البحوث المنجزة من تلقاء مبادرة فردية أو مجموعات بحث صغيرة»[(٢)]، أي من الطلاب والطالبات.

(١) من مقال للدكتورة ليلى بيومي على موقع المسلم، إشراف الأستاذ الدكتور العمر بتاريخ ٧/ ١٠/ ١٤٢٧هـ.
(٢) موقع المسلم – بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر سليمان العمر.

* وهذا يكفي في التعبير عن الحالة التي تعيشها جامعاتنا وبالتالي الحالة التي يمر بها البحث أو الاكتشاف العلمي، ولا أدري إذا كان مقصودًا من بعض الدول أم لا؟!!

* «ولعل فيما قالته الدكتورة ليلى بيومي إشارة إلى الإجابة عن هذا السؤال وهو قولها في ذات المقال.

* ولعل أهم أسباب التخلف المعرفي في العالم العربي ترجع إلى وضع الحريات وحقوق الإنسان في الدول العربية، مقارنة بدول العالم، فالقمع والتهميش في معظم البلدان العربية أسهما في قتل الرغبة في الإنجاز والسعادة والانتماء، ومن هنا ساد الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي؛ ومن ثم ابتعاد المواطنين عن المشاركة في إحداث التغيير المنشود؛ وبسبب غياب التنافس والتداول تخضع المؤسسات العلمية في أحيان كثيرة للاستراتيجيات السياسية، وتتقدم مقاييس الولاء في الاختيار للإدارة والترقية بدلًا من الكفاءة والمعرفة، وأدى التقييد على البحث والإبداع العلمي إلى تكبيل العقول، وإخماد جذوة المعرفة، وقتل حوافز الإبداع في غالب الدول الإسلامية والعربية»[1].

ثالثًا: التعريف بالباحثين والعلماء المتخصصين وجهودهم العلمية:

* إن الأمة إنما تقدم وتعطي عطاءًا نافعًا على قدر اهتمامها بالعلماء، والمهتمين بالبحث العلمي والباذلين فيه جهودًا مضنية، خاصة أولئك الذين أفنوا أعمارهم في العلم، وبين جدران المعامل أو غيرها من مراكز الاكتشافات العلمية، أو أولئك الذين قضوا حياتهم في التنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن العلم أو في سبيل البحث عن اختراع جديد يفيد البشرية.

* أقول إن التعريف بأمثال هؤلاء والترويج لبحوثهم واكتشافاتهم يعد أحد مقومات البحث العلمي وتشجيع الآخرين عليه؛ مما يؤدي إلى زيادة أعدادهم وبالتالي

(١) المرجع السابق: نفس المكان.

الزيادة في اكتشافاتهم أو على الأقل تجويد ما توصلوا إليه من اكتشافات؛ ثم تبنِّيها مِن قِبَل الممولين أو المهتمين بإنتاج وإخراج تلك البحوث والاكتشافات، وسأنقل هاهنا كلامًا لبعض الباحثين عن تقييم ما يتعلق بهذا الموضوع يقول الأستاذ محمد ياقوت: «أظهرت إحدى الدراسات أن ما ينشر سنويًا من البحوث في الوطن العربي لا يتعدى ١٥ ألف بحثًا. ولما كان عدد أعضاء هيئة التدريس نحو ٥٥ ألفًا، فإن معدل الإنتاجية هو في حدود ٠،٣٪ وهو وضع يرثى له من حيث الإمكانات العلمية والتكنولوجية في مجال الإنتاجية العربية، إذ يبلغ ١٠٪ من معدلات الإنتاجية في الدول المتقدمة»[١].

* وتقول الدكتورة ليلى البيومي: «أما عملية ترويج نتائج البحث والتطوير فتواجه صعوبات وعقبات أساسية، بسبب ضعف الروابط بين مؤسسات البحث والتطوير وقطاعات الإنتاجية، وقصور ملحوظ في ممارسة النشاطات الابتكارية، وبقي الجزء الأكبر من الإنجازات البحثية والتطويرية والإبداعية التي تتم في مؤسسات البحث والتطوير العربية غير مكتمل من حيث الوصول إلى حيز الاستثمار»[٢].

* ويكشف الأستاذ محمد ياقوت عن أسباب عدم الترويج للاكتشاف العلمي في الدول العربية بقوله: «وهذا الإسهام الضعيف من قبل القطاع الخاص للمؤسسات البحثية يرجع إلى عدم تقدير القطاع الخاص لقيمة البحث العلمي وجدواه.

إضافة إلى عدم كفاية الميزانيات التي ترصدها المراكز والجامعات ومؤسسات المجتمع للبحث العلمي، وإلى الفساد المالي والإداري الملحوظ في الجامعات ومراكز البحوث العربية.

---

(١) مجلة المعرفة – الرياض – العدد (٣٦) وموقع صيد الفوائد.

(٢) موقع المسلم بإشراف الأستاذ الدكتور ناصر العمر.

ومن النماذج العربية الجيدة في دعم البحث العلمي، نموذج دولة الكويت، التي فرضت نسبة معينة من أرباح الشركات لدعم «مؤسسة الكويت للأبحاث العلمية» تقدم كمعونة من القطاع الخاص، كمورد إضافي لحركة البحث العلمي في جامعاتها ومراكزها البحثية»[١].

المحور الثالث: جملة من الاكتشافات العلمية ونفْعها إلى البشرية:

* يتضح مما سبق ذكره حول مفهوم الاستكشاف «العلمي» أن الاستكشاف العلمي هو طلب الكشف عن طريق التفكير المنظم نحو تجميع كل الظواهر الممكن إدراكها حسيًا في هذا العالم، من ارتباط شامل قدر الإمكان، وهذا بدوره يؤدي إلى الوصول إلى كشف علمي جديد يفيد البشرية في حياتها؛ كما يؤدي إلى تسهيل بعض جوانب المتاعب التي نعاني منها في بعض جوانب الحياة.

ولكن ليس كل اكتشاف علمي تم عن طريق الاستكشافات بل إن بعضها قد حصل عن طريق الصدفة – دون قصد – وأصبح اكتشافًا علميًّا أمَدَّ البشرية بفوائد غاية في الأهمية ولعقود من الزمن بل وبعض تلك المصادفات في عصرنا الحالي.

ولهذا نحن في هذا المجال سنذكر بعض الكشوفات العلمية التي حصلت عن طريق الصدفة والأخرى التي حصلت عن طريق القصد وبذل الجهد للوصول إليها:

(أ) الكشوف العلمية عن طريق الصدفة[٢]: ونكتفي بذكر ثلاثة أمثلة:

١ – «وجدتها... وجدتها..» هكذا نطق وصرخ «أرشميدس» حينما قادته الصدفة البحتة لاكتشاف قانون الطفو وكثافة الأجسام، وكذلك فعل «نيوتن» عندما سقطت فوقه «تفاحة» فخرج إلى العالم بقانون الجاذبية.

---

(١) مجلة المعرفة – الرياض العدد (١٣٦).

(٢) موقع دي ون جي تحت عنوان أهم الاكتشافات العلمية ظهرت بالصدفة.

٢- كلمة «اختراع» تعني أساسًا قدرة العقل على تفسير المواقف الغامضة والاستفادة من الأحداث غير الواضحة للتوصل إلى نتيجة لم يتم التوصل إليها من قبل هذا ما حدث بالضبط مع «الكسندر فلمنج» عند اكتشافه «البنسلين»، ففي أحد الأيام من عام ١٩٢٨، تطايرت بعض الأتربة التي تحمل فطرا يحدث عفنا ودخلت من نافذة مفتوحة في مستشفى بلندن وسقطت في صحن زجاجي، كان فلمنج يستخدمه في إجراء إحدى التجارب وكان يحتوي على «مكور عنقودي» البكترياء نظر «فلمنج» في الصحن بالميكروسكوب جيدًا، فوجد أن العفن الفطري يدمر الجراثيم والبكتريا، فتوصل هو واثنان من زملائه إلى اختراع البنسلين الذي يدخل اليوم في الكثير من تركيبات الأدوية التي تدخل في علاج العديد من الأمراض المستعصية، أحدث البنسلين طفرة في عالم الطب الحديث، واستحق مكتشفوه الحصول على جائزة نوبل عام ١٩٤٥ وهذا الاكتشاف واضح جدًّا أنه تم أيضًا عن طريق الصدفة.

٣- وآخر مثال: من بين الأشياء الطريفة في عالم الاختراعات أن هناك بعض المخترعين حاولوا ابتكار اختراع معين، أو التوصل إلى نتيجة محددة، لكنهم فوجئوا بنتيجة مختلفة تمامًا وابتكار جديد لم يخطر ببالهم من قبل، وهذا ما حصل مع أحد الطلاب في لندن يبلغ من العمر ١٨ عاما، حاول التوصل إلى عقار ضد مرض الملاريا، فقادته تجاربه إلى اكتشاف أول أنواع الصبغات التركيبية تعتبر مادة «التيفال» من أعظم اكتشافات القرن الماضي التي تم التوصل إليها عن طريق الصدفة أيضًا.. بل عن طريق «الخطأ».

حدث ذلك عام ١٩٣٨، عندما اجتمع الكيميائي روى بلانكت -٢٧ عامًا- مع المهندس الفني جاك ريبوك في معمل جاكسون ديبونت بولاية نيوجرس، لاختراع نوع جديد من المبردات عن طريق إضافة غاز يسمى فلورنيلين الرباعي أو «تيف» إلى حامض

الهيدروليك، في صباح أحد الأيام من شهر إبريل، خطأ ما قد حدث قام بلانكت بتخزين مجموعة من العلب التي تحتوي على الخليط السابق على ثلج جاف لمنع الغز من الانفجار، وعندما قام بلانكت بفتح غطاء إحدى العلب لم يخرج شئ منها، ثم قام بهزها بشدة فلم يخرج شيء أيضًا سوى قليل من مسحوق أبيض ناعم[١].

(ب) الكشوف العلمية التي تمت عن قصد مع بذل جهد كبير فيها:

وهذا هو الغالب على الكشوف العلمية: أن يكون المكتشف قد عرضت له مشكلة ما فيبحث عن حل لها فيبدأ في عمل التجارب حتى يصل إلى مراده، ومن هؤلاء مكتشف الكهرباء «أدسون» الذي استطاع إضاءة المصباح بعد ألف محاولة فاشلة أو قريبًا منها.

وفي هذه العجالة سأكتفي بذكر جزء يسير من الاكتشافات العلمية في القرن العشرين، فمن ذلك:

١- في مجال الطب: قام الطبيبان الاستشاريان بتجربة وهما Shinya Yamanaka من جامعة Kyoto University وJames Thomson من جامعة Wisconsin يعلنون عن نجاح تجربتهم خلال شهر نوفمبر في برمجة الخلايا الجلدية دون الحاجة لقتل الأجنحة للحصول على أجزاء منها[٢].

٢- وفي مجال الفلك والفضاء الخارجي: العلماء البريطانيين يعلنون عن اكتشافهم لـ٣ كواكب جديدة خارج مجموعتنا الشمسية أثناء دراسة البحث عن كوكب شبيه بالأرض؛ وتم تسمية هذه الكواكب بـ WASP3.WASP4.WASP5 ويقترب الكواكب الثلاثة من الشمس[٣].

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع.
(٢) المرجع السابق نفس الموضع.
(٣) المرجع السابق نفس الموضع.

٣- في مجال علوم البحار وما فيها من الغرائب:

* العلماء يعلنون عن اكتشاف أكثر من ٧٠٠ مخلوق جديد من بينهم اسفنج شائك وعنكبوت ضخم يعيشون في قاع المحيطات على عمق ما بين ٢٣٠٠ إلى ١٩،٧٠٠ قدم بالقرب من قارة Antarctica.

* أيضًا أعلن العلماء عن اكتشاف ٢٤ مخلوق جديد في منطقة نائية بمنطقة Suriname حيث تم اكتشاف عنصر الـ bauxite المستخدم في صناعة الألمونيوم.

* أعلن العلماء عن اكتشاف ٦ أنواع من الأسماك ونوع جديد من النمل و٥ أنواع ضفادع جديدة منهم واحدة من ال Fluorescent و١١ نوع من النباتات في منطقة بفيتنام وقرد في أوغندا و وطواط مصاص للدماء في مدغشقر ونمر ذو جلد سحابي الشكل في Sumatra وBorneo ونبات الخيار بساحل تايوان وقد سمي Little Strawberry[1].

* لعل فيما سبق ذكره ما يوضح لنا أن الإنسان – مؤمنًا كان أو كافرًا – إذا بذل الجهد المطلوب، في الطريق الصحيح للوصول إلى معرفة ما في هذا الكون من سنن إلهية؛ فإنه سوف يصل إلى مطلوبه.

* ولكن من المؤسف المخزي أنّ الأمة الإسلامية تأخرت تأخرًا كبيرًا عن ركب الحضارة والبحوث العلمية والاكتشافات التي كانت هي أولى بها من تلك الأمم الأخرى، لكي تعيش قوية بدينها قائدة لأمم الأرض في الدين والدنيا، وقد سبقت الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى الوصول الذي نعيشه اليوم.

* ولكن بالرغم من هذا سنذكر في الفصل القادم من الأسباب والحلول ما يؤدي إلى تغيير هذه الحال إذ المؤمن لا ييأس مهما أظلمت الدنيا في عينه ومهما كانت الظروف ضد مراده والله أعلم.

---

(١) المرجع السابق: نفس الموضع.

المبحث الرابع

علاقة الكشوف العلمية بالتكاليف الشرعية

إن تلك الكشوف العلمية آنفة الذكر، وما بذل فيها من جهد ووقت؛ إذا كانت من مسلم فهو إنما يفعل ذلك طاعة لله تعالى، بل يؤدي فرضًا قد فرضه الله على المسلمين في مجملهم، وهذا الذي يُسمَّى عند الفقهاء بفروض الكفايات؛ ومن خلال هذا المبحث سألقي الضوء على الواجب الكفائي والنظرة المعاصرة له، وذلك في إطار النصوص الشرعية، من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الواجب الكفائي يتعلق بجميع المكلفين عند الجمهور، فالقادر عليه يقوم بنفسه به؛ وغير القادر يحث غيره على القيام به، لأن الخطاب موجه لكل مكلّف، وأن التأثيم يتعلق بالكل عند الترك، لكنه يسقط بفعل البعض لحصول المقصود[1].

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

ثانيًا: الواجب الكفائي يشمل جميع ما تحتاجه الأمة الإسلامية من أمور دينها ودنياها فهي كما أنها في حاجة إلى معرفة العلوم الشرعية التي نصت عليها الآية الكريمة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ فهي كذلك - أعني الأمة - في حاجة إلى معرفة أمور دنياها، بل رفع الحرج عنها بالعمل الجاد لتحصيل علوم الدنيا دون استثناء بكافة أنواعها؛ إلى غير ذلك مما لا بد منه في حياة الإنسان، إذ كافة أمور الدنيا لا يخلوا إما أن تدخل في الضروريات أو الواجبات كما هو تعبير علماء الأصول.

---

(١) مختصر منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل - للعلامة جمال الدين أبي عمر عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب - دراسة وتحقيق الدكتور نذير حمادو - دار ابن حزم - بيروت - ط٢ - ٢٠٠٠ (١/ ٢٩١) «من كلام المعلق».

وقد أشار الأستاذ عمر عبيد حسنة إلى هذا اللون من الفروض عندما تحدث عن ضرورة الوراثة الحضارية المأمولة وشروطها حيث قال:

«هذه الشروط الموضوعية لا يمكن تحصيلها، وضبط نسبها، وتحديد موقعها، ودورها بدقة، وتقويم نتائجها، واكتشاف إصاباتها، وأسباب عدم بلوغها أهدافها بدون إدراك أهمية التخصيص في شُعَب المعرفة المتعددة.. وليس إدراك ذلك فقط، وإنما الانخراط فيه وممارسته واعتباره دينًا من الدين، ووسيلة من وسائل إظهار الدين، وأن الفقه به من الفقه في الدين – بمدلوله الواسع – استجابة لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾.

وهذه التخصصات المتنوعة التي تعتبر من فروض الكفاية على الأمة جميعًا، تتحول مسؤوليتها لتصبح من الفروض العينية لمن يختارها، بحيث يدرك أنه إنما يحقق مقاصد الدين في الحياة، فينمو وينبغ ويتقن ويكتشف فيها، وهو مستشعر أنه يترقى بالثواب كلما ترقى بتخصص»[(١)]، وختم ذلك بقوله:

«وهذا يقتضي إعادة النظر في فقه فروض الكفاية وتصويب مفهومها»[(٢)].

ثالثًا: إن الخوض في البحوث العلمية فيه من الثواب والأجر الشيء العظيم؛ وذلك لما يترتب عليه من آثار في نفع الإنسانية، وقد يكتشف المسلم اكتشافًا في الطب أو الفيزياء أو غيرهما فيظل نفعه إلى قرون متتابعة، وعلى سبيل المثال كم يا ترى سيكون ثواب مكتشف الكهرباء لو كان مسلمًا؛ وقل ذلك في كلٍّ من الصناعات التي لا حصر لفوائدها ومنافعها للبشرية.

---

(١) الوراثة الحضارية – لعمر عبيد حسنة – المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠٣ (ص٥٦–٥٧) بتصرف.

(٢) المرجع السابق (ص١٥٧).

وفي ذات الموضوع يقول الدكتور صبحي الصالح: «ما دامت الثمرة العظمى من ثمرات العلم وهي التكنولوجيا قيمة من القيم وكان العلم هو الذي ابتدعها وانتهى إليها، وما دام الإنسان حتى في النظرة العلمية التكنولوجية جزءًا لا يتجزأ من هذا الوجود، ولا يمكن تجاهل دوره العظيم في تنمية الحياة والأحياء، فإن التعارض المتوهم هو بين إنسان العصر الحديث وتكنولوجيا العصر الحديث، وليس بين العلم والدين»(١).

ويقول في موضع آخر: «إن موقف الدين من هذا كله لواضح صريح، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وما من ريب في أن العلم المقصود في هذا المقام شامل كل الشمول لا يقيده شيء من القيود، وأنه أيضًا قابل باستمرار للتقدم والزيادة والتطوير، كما قال تعال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، وهو صريح في أن مسيرة العلم لا تتوقف»(٢).

رابعًا: إذا كانت النقاط السابقة يُفهم منها أن البحث العلمي أو الكشوف العلمية ضرورة واقعية، وفريضة إسلامية، فينبغي أن يضاف إلى ذلك أن يقال: تلك الكشوف وإن كانت في المقام الأول هدفها دنيويًّا بحتًا - عند غير المسلم - فإنها بالنسبة للمسلم تعني أشياء كثيرة منها:

١ - وصول المسلم إلى الكشوف العلمية يعني عدم احتياجه إلى الآخر ومن ثم يعتز بدينه وبنفسه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، بخلاف ما لو تخلف عنها ولم يصل إليها، فقد يضطر إليها؛ وحينها يقع فيما لا تحمد عقباه، وهذا هو الواقع

(١) معالم الشريعة الإسلامية - للدكتور صبحي الصالح - دار العلم للملامين - بيروت - ط٣ - ١٩٨٠ - (ص١٥٨-١٥) بتصرف.
(٢) المرجع السابق (ص١٥٢-١٥٣).

الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وللأسف الشديد، حيث احتاجت إلى عدوها فذلت وهانت وتنازلت عما لا يجوز التنازل عنه، وهذا لا يخفى على أحد.

٢- حينما يكتشف المسلم في دنيا العلم شيئًا جديدًا أو يتوصل إلى اختراع جديد؛ فإنه بذلك يدعو إلى الإسلام دعوة عملية، ولذلك كان من واجب المسلمين الاهتمام بهذا الجانب.

٣- أن التطور والتقدم الذي نشهده اليوم لا ينتظر أحدًا، فالمتوقف في مكانه يعتبر راجعًا إلى الوراء وليس واقفًا في مكان واحد، ومن هنا كان من واجب المسلمين الاهتمام بالكشوف العلمية، والسير في الأرض لينظروا ماذا خلق الله في هذا الكون، وذلك ضروري من ناحيتين: تنفيذ أمر الله تعالى، ومسايرة للواقع الذي نعيشه لئلا نسقط من حسابات البشر.

خامسًا: ما دام أنه قد ثبت جليًا أن البحث العلمي والكشوف العلمية من واجبات الأمة الإسلامية اليوم، فمن المناسب أن نذكر هنا جزءًا من هذا الواجب؛ ألا وهو بيان الوسائل التي من خلالها يمكننا الارتقاء إلى مصاف الدول المتقدمة في هذا المجال، وما لا يتم الواجب إلا فهو واجب.

ومن تلك الوسائل ما يأتي[(١)]:

١- إعادة النظر في أنظمة التربية والتعليم في البحث العلمي: وذلك بهدف إصلاحها إصلاحًا جذريًا يراعي التقدم العلمي والتكنولوجي في العالم، ويرفع من المستويات الدراسية الحالية إلى مصاف التعليم في البلدان المتقدمة؛ ولا بد أن نستهدف خططًا للقضاء على الأمية في مدة زمنية محددة، وإتاحة مجانية التعليم، وإلزامية التعليم مع

(١) المشروع الحضاري لإنقاذ القدس - الأستاذ محمد عبد الفتاح حلفاوي - كتاب الأمة العدد (١٣٠) لعام ١٤٣٠ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر (١٠٥-١٠٨) بتصرف وزيادة.

تعزيز الولاء للوطن والانتماء للأمة، وترسيخ الهوية الإسلامية، إذ النهضة لدى أي أمة تقاس بالمستوى العلمي والثقافي لمجموع أفراد الشعب؛ وليس بأعداد المدارس أو الطلبة الذين يدرسون بها.

٢- اعتماد المنهجية العلمية في التفكير والعمل والتنمية: إذ من المعلوم أنَّ اعتماد هذه المنهجية يساهم بشكل كبير في التحرر من التخلف الذي تعيشه الأمة، وربط العالم بالمجتمع وبحاجاته وحل مشكلاته يقتضي ذلك تبني الترشيد، والنظرة العقلانية، غير المتعارضة مع الدين، في مجابهة المشكلات وتحليلها ووضع الحلول لها، وممارسة النقد العلمي والنقد الذاتي في كل خطوة تخطوها.

٣- القضاء على التبعية والتخلف: إن إنهاء حالة التبعية وردم الهوة الحضارية بين مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ومجتمعات «الآخر» لا يكون بتقليد هذا «الآخر» بل بإبداع نظامنا الخاص دونما اعتماد على تجارب الآخرين، ويبدأ ذلك من خلال سيطرتنا على مواردنا الطبيعية والإنسانية والاعتماد على النفس، فقد سحقت التبعية إنسانيتنا بما فيه الكفاية، ولا شك أن الاعتماد على النفس يحتاج منا إلى جهد كبير، ومتابعة دقيقة لكل عمل نقوم به.

وأختم هذا المبحث بما قاله عمر عبيد حسنة: «والسؤال الذي لا بد من طرحه إلى متى تبقى الطاقات العلمية للمسلمين مطاردة تعيش في حالة من القلق والضياع، وتبقى العقول العلمية المهاجرة مبعثرة دون أي مردود؟ وقد يكون المطلوب اليوم مزيدًا من المراجعة، وعلى أكثر من مستوى؛ لنعلم أن بناء الحضارة الإنسانية هو قيم دينية تعطي الحياة هدفها، وترسم لها مسارها، وتضمن لها أخلاقها، وعلم يُسخِّر الكون ويرتاد الآفاق، وأنَّ الاختلال في فهم مدلولات القيم الدينية سوف يعطل الحس السوي بضرورة اكتساب المهارات والتخصصات العلمية، وقد يكون توفير المناخ العلمي هو

الأساس الذي نشكو من فقده، وذلك أن الكثير من المسلمين يبدعون في أوربا وأمريكا ويُلغى وجودهم وتطفأ فاعليتهم في عالمنا الإسلامي»[١].

(١) تأملات في الواقع الإسلامي – لعمر عبيد حسنه – المكتب الإسلامي – بيروت – ط١ – ١٩٩١ (٩٠-٩١) باختصار.

بين الحضارة الإسلامية والسنن الإلهية

المبحث الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية وأسسها.

المبحث الثاني: مظاهر الحضارة الإسلامية.

المبحث الثالث: السنن الإلهية ودورها في بناء الحضارة الإسلامية قرون الخلافة.

المبحث الأول

مفهوم الحضارة الإسلامية وأسسها

* إن الحضارات الإنسانية قامت على عدد من الأسس والمفاهيم وهي بلا شك كثيرة جدًّا؛ ومنها ما عمر طويلًا ومنها ما اختفى أثره واندثرت معالمه في فترة وجيزة من تاريخ قيامه،

* ولله تعالى سنن في تلك الحضارات ولها أمد ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

* وكلما اختلفت المدة أعني مدة البقاء بين حضارة وأخرى اختلفت مظاهرها قوةً وضعفًا من حيث العمران ومن حيث رغد العيش وسهولة الحياة.

* وكذلك كانت الأمة الإسلامية عبر تاريخها السابق وعاشت فترات مد وجزر وقوة وضعف، وغنى وفقر، عاشت فترة تمكين واستقلالية ثم عاشت فترة ضعف حيث سقطت الخلافة وسقط بيت المقدس ثم عادت إلى قوتها من جديد وهذا كله مما لا يخفى على أحد.

ولكن نحن في هذا الفصل نريد إلقاء الضوء على مفهوم الحضارة وفق الشرع الحنيف والأسس التي تُبنى عليها؛ وكيف استفاد المسلمون من تلك الأسس وكيف كانت مظاهر حياتهم.

وذلك من خلال ثلاثة مباحث هذا أولها وهو يحتوي على محورين:

أحدهما: حول مفهوم الحضارة الإسلامية.

والثاني: حول الأسس التي بُنيت عليها.

المحور الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية:

* قبل بيان مفهوم الحضارة الإسلامية نحن في حاجة إلى توضيح مفهوم الحضارة على سبيل العموم أي الحضارة الإنسانية وذلك ليتبين الفرق بين حضارة الإسلام والحضارات الأخرى.

* أما مفهوم الحضارة، فهو مأخوذ في اللغة العربية: من مادة حضر وهي تعني الإقامة، والحضارة ضد البادية يقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية[١]؛ وفي تاج العروس الحضارة والحضرة هي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[٢].

* وأما مفهوم الحضارة باعتباره مصطلحٌ متداول فقد كثرت فيه الأقاويل ولسنا بصدد استقرائها أو نقدها وإنما سننقل بعضًا منها لنصل إلى مفهوم الحضارة عند البشرية جمعاء.

* مفهوم الحضارة عند الكاتب رول ديورانت قريب جدًا مما ذكره صاحب تاج العروس، حيث قال: «إن الحضارة أو المدنية في وجه من وجوهها هي رقة المعاملة، ورقة المعاملة هي ذلك الضرب من السلوك المهذب الذي هو في رأي أهل المدن – وهم الذين صاغوا حكمة المدينة – من خصائص المدينة وحدها»، ويضيف قائلًا: «إن المدينة تبدأ من كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن»[٣].

وقال أيضًا: «الحضارة: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»[٤].

(١) لسان العرب – مادة حضر.

(٢) تاج العروس – للسيد محمد مرتضى الزبيدي – دار صادر بيروت (٣/ ١٤٦) بتصرف.

(٣) قصة الحضارة – رول ديورانت – ترجمة د. زكي نجيب محمود – القاهرة (١٩٧٣) (١/ ٥).

(٤) المرجع السابق نفس المكان بتصرف.

* وقد علق الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقوق بقوله: «فالحضارة إذن نقلة تقدمية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى: تقدمية في الفكر وفي السلوك وفي أسلوب التعامل مع الناس والأشياء وهذا كله في إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلي الضيق إلى دائرة الإنسانية الأوسع والأرحب»(١).

* ولعلي أكتفي بما ذكره رول ديورانت كمثال من الغربيين حول فهمهم للحضارة الإنسانية لئلا يطول بنا البحث في غير طائل.

* وأما مفهوم الحضارة الإسلامية: يقول الدكتور محمد سعيد البوطي: «خير للقارئ من هذه الإطالة أن أضعهُ أمام نقطتين:

النقطة الأولى: أنَّ مدار الحضارة على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، والحضارة تزداد اتساعًا وعمقًا كلما ازدادت إيغالًا في العمران.

النقطة الثانية: أن الحضارة يمكن أن تُعرَّف انطلاقًا من هذا الأساس؛ بأنها ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة»(٢).

ثم يقول: «ومدار الإسلام على النهوض بعمارة الأرض على خير وجه، وإنما شرع الله ما شرع من جزئيات الأحكام السلوكية أو الالزامات الاعتقادية تيسيرً للنهوض بهذا الواجب المقدس على النحو الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ»(٣).

---

(١) الحضارة فريضة إسلامية – للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقوق – مكتبة الشرق – القاهرة – ط١ (١١٩) بتصرف.

(٢) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن – للدكتور محمد سعيد رمضان السيوطي – دار الفكر المعاصر – بيروت – ٢٠٠٣ (ص١٩) بتصرف.

(٣) المرجع السابق (ص٢٦).

* ولقد بحث موضوع مفهوم الحضارة عدد ليس بالقليل من الكتاب من المفكرين الإسلامين وإليك طرفًا من أقوالهم:

* حاول تحديدها سيد قطب الذي جاء بتعريف هو أقرب للشعار، عندما كتب فصلًا في كتابه «المعالم» تحت عنوان «الإسلام هو الحضارة»[١]، مؤكدًا بما لا يدع جدلاً أن الإسلام وحده الحضارة ودونه تخلف، وبالتالي لا يجوز إطلاق لفظ حضارة على ما سواه من أمم، وقد شابهه بذلك شقيقه الأستاذ محمد قطب عندما أنكر جواز إطلاق مصطلح الحضارة على أمم الإغريق والفرس والرومان وأهل الغرب باعتبار أن هؤلاء عاشوا ويعيشون جاهلية منكرة[٢].

* وأما مالك بن نبي فقد حاول أن يربط الحضارة بالوحي الهابط من السماء «فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجًا؛ فكأنما قُدِّرَ للإنسان ألا تُشرِقْ عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية»[٣].

* ويفرق تقي الدين نبهاني بين الحضارة والمدنية، فيعِّرف الأولى بمجموعة المفاهيم عن الحياة، بينما تقتصر الثانية على الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شئون الحياة.

* من هنا فالحضارة الإسلامية «هي التي تقوم على أساس الإيمان بالله»، وعلى «أساس العقيدة الإسلامية»[٤].

---

(١) معالم في الطريق – سيد قطب – فصل الإسلام هو الحضارة [نقلًا عن الإسلام والحضارة والشباب – لأبحاث الندوة العالمية للشباب المسلم – ٢٧ ربيع الثاني – ١٣٩٩ الرياض (٢/ ٥٤٠)].

(٢) محاضرة الأستاذ محمد قطب في المؤتمر الثالث للندوة العالمية للشباب المسلم (٢/ ٥٤٠).

(٣) محاضرة لمالك بن نبي في مؤتمر الشباب الإسلامي المنعقد في الرياض [نقلًا عن الموضع السابق: نفس المكان].

(٤) نظام الإسلام – لتقي الدين النبهاني (ص٥٩–٦٠) بتصرف [نقلًا عن الموجع السابق: نفس المكان].

* تلك هي أقوالهم ولكن الذي أراه هو تعريف الدكتور محمد سعيد البوطي المذكور أولًا.

المحور الثاني الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية:

* من الضروري بمكان قبل إبراز الحضارة الإسلامية عبر التاريخ أن نضع التصور الصحيح للأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية وذلك بعد أن أشرنا إلى مفهومها من خلال المحور السابق.

* أما الأسس التي ينبني عليها التصور الصحيح للحضارة الإسلامية يمكن تلخيصه فيما يلي:

أولًا: العقيدة الصحيحة في الله وفي الكون وفي مصير الإنسان وفي أهداف وجوده في الحياة: إذ أي خلل في أي جانب من هذه الجوانب قد يجنح بالإنسان إلى تصرف لا يليق بحضارة الإسلام أو على الأقل يؤدي تشويه إلى صورة المسلم «المتحضر» الذي سوف يساهم في بناء الحضارة الإسلامية.

* وها هنا كلام حسن حول العقيدة الصحيحة - في جميع ما ذكرناه - للأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة حيث يقول: «إن الإسلام، في حقيقته، دين الإيمان بالتوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة، فالله هو الخالق الذي لا خالق غيره، بيده ملكوت كل شيء، خلق كل شيء بالحق أي بحكمة وقانون، وهو دين الإيمان بالتنزيه الكامل لله عن كل شيء مشابهٍ لما يعرفه الإنسان أو يتصوره، والله يدبر هذا العالم بالحكمة والرحمة المحيطة بكل شيء، ومفهوم الألوهية في الإسلام، كما يتعقله المؤمن المفكر، في ضوء ما ذكره القرآن لله من صفات الكمال والجلال والإكرام والجمال، هو أعلى مفهوم في العقل، بل فوق كل ما يخطر له»[1].

(١) مجلة الهداية - تصدرها وزارة العدل بدولة البحرين - العدد (١١١) سنة ١٩٨٧ (ص٢٣).

* وهذا كلام رائع جدًّا في إجمال العقيدة الإسلامية التي جاءت دون تعقيد ولا تشتيت للذهن والفكر، ثم يقول الدكتور أبو ريدة إكمالًا للموضوع: «وعلى أساس الإيمان بالإله الواحد الحق الذي يمسك بقدرته نظام السماوات والأرض، والإيمان بالدين الذي جاء من عنده محكمًا بأدلته وبرسالة الإنسان على الأرض، كان من الطبيعي أن تلتقي عقول المسلمين وقلوبهم على عبادة الله، وأن تتضافر إرادتهم على عمران الدنيا وإنشاء الحضارة فيها، في ضوء الإرشاد الإلهي، فقد كان الإيمان هو أساس الحضارة، وهذا لا يحتاج إلى دليل، وروح الإسلام سارية في حضارته، وقد لاحظ هذا باحثون من غير المسلمين، فيقول أحدهم في حديثه عن حضارة المسلمين: «إنها كانت حضارة متكاملة في ذاتها، لأن طرازها اتخذ صورته من الفاعلية الخُلُقية لاجتماع المسلمين على عقيدتهم، وتتجلى في نظمهم تلك السمات المميزة لعقيدتهم»[(١)].

ثانيًا: الربط بين الوحي الإلهي والعقل البشري:

* وتلك خصوصية أخرى تحسب للحضارة الإسلامية؛ حيث لم تؤلِّه العقل وتجعله هو المرجع في كل شيء دون حدود وقيود؛ ولم تهمله إهمالًا كاملًا بل جعلته هو الآلة التي بها يتم حمل رسالة الإسلام، والوسيلة التي بها يحصل تطبيقه في الواقع في الحياة الإسلامية، ومن الذين أشاروا إلى هذا المعنى الأستاذ عمر عبيد حسنة حيث يقول: «ولعل من أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية أيضًا: أنها اعتمدت العقل سندًا للحقيقة الدينية، ووسيلة لإدراكها وإثباتها، واعتمدت قناعة الإنسان سبيلها للإيمان، وطريقها لحصول اليقين.. فالدين التزام، وليس إلزامًا.. والتدين اختيار، وتحقيق لإنسانية الإنسان، واستجابة لنزوع داخلي، وميل فطري، وليس استسلامًا، وتلقيًا بدون قابلية ومناقشة، وتعطيلًا لملكات الإنسان، ومدارك عقله؛ فرسالة النبوة هي إيصال

(١) المرجع السابق (ص٢٤).

البذرة الطيبة للنفس، التي تتوافق مع قابليتها، فتنبت الشجرة الطيبة، الممتدة في أنماط السلوك، وشعب الحياة المثمرة للحق والخير، في سائر نشاطات الإنسان؛ والتدين تهذيب للنفس وارتقاء بها، وليس تعذيبًا، وعنتًا وإرهاقًا لها وغاية التكليف: بذل الاستطاعة وبلوغ الوسع»[١].

ثالثًا: التوازن بين متطلبات الروح وحاجيات الجسد:

* حيث لا إفراط ولا تفريط في جانب، فلا ميل للجسد وملذاته بالكلية ولا التفات إلى الروح وإهمال للجسد، بل يعطى كلًا من الجانبين حقه، وحول هذا المعنى يقول الدكتور محمد ظفر الله خان ما نصه[٢]: «إن أساس حضارة الإسلام ليس هو تمجيد العقل كما هو الشأن عند الإغريق، ولا تمجيد القوة وبسط النفوذ والسلطان كما كان عند الرومان، ولا الاهتمام بالملذات الجسدية والقوة الحربية والسطوة السياسية كما هو الأمر عند الفرس، ولا الاعتداد بالقوة الروحانية كما عند الهنود وبعض الصينين، ولا الافتتان بالعلوم المادية، والاستفادة من ذخائر الكون وبالمادية الطاغية كما هو منهج الحضارة الحديثة المتوارثة عن اليونان والرومان؛ وإنما أساس حضارتنا هو فكري علمي نفسي يشمل جميع شعب الحياة الإنسانية؛ وبهذا كانت حضارة الإسلام مستقلة كاملة، ذات دستور محدد شامل، تختلف به اختلافًا جذريًّا عن مبادئ الحضارة الغربية، وتصطرع معها كما تصارعت مع الحضارات القديمة فصرعتها بسبب سيطرة الدين على القوى الفكرية والعلمية، ولقوة روح الجهاد والاجتهاد؛ لأن الإسلام لا يمنع العلم – طريق الحضارة – وإنما يضع له المنهج الملائم لمبادئه.

* وهذا كلام غاية في الحسن والجمال والوضوح وهو متوافقًا تمامًا مع روح الإسلام والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

(١) من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي – لعمر عبيد حسنة – المكتب الإسلامي – بيروت ط١ – ١٩٨٦ (ص١١١).

(٢) من مقال له بعنوان الحضارة الإسلامية بين الحضارات موقع البلاغ.

رابعًا: من أهم أسس الحضارة الإسلامية: مبدأ فعل الخير والعمل على نشره وترك الشر والعمل على قمعه:

* ولتوضيح مفهومي الخير والشر يقول العلامة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ما ملخصه[١]:

١- الخير: هو ما يكسب الإنسان بإرادته في الحياة الدنيا من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي يحقق له عند الله خيرًا باقيًا، ولو كان ذلك العمل شاقًا أو فيه تعرض للضرر والأذى في الحياة الدنيا؛ ويلحق بالخير المباحات الشرعية الممتعة النافعة التي لا ضرر فيها ولا أذى يأتي مِن قِبلها، كما يدخل فيه أيضًا كل عمل يتم به تحقيق منافع ومصالح أو دفع مضار ومفاسد للفرد والجماعة.

٢- الشر: ما يكتسبه الإنسان بإرادته في الحياة الدنيا من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي، يستحق عليه عند الله جزاءًا سيئًا، ولو جلب له من الدنيا متعة أو منفعة أو لذة.

ويلحق بالشر المباحات الشرعية إذا اقترنت اقترانًا ملازمًا بما يفضي إلى معصية الله تعالى. اهـ.

* ثم وضع أسسًا فكرية لمفهومي الخير والشر، بعد أن أوضح الناحية العلمية حيث قال ما ملخصه:

* ويدخل في مفهوم الخير كل أنواع الترقي في مراتب الكمال الإنساني ومن أنواع الكمال الإنساني: الكمال الفكري والخلقي والسلوكي والإبداعي، والتعايش الجماعي وشرح ذلك كله شرحًا تفصيليًّا.

---

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها - لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - دار العلم - دمشق - ١٩٨٠ (ص٥١-٥٨).

* ويدخل في مفهوم الشر كل أنواع الهبوط في دركات النقص الإنساني، ويدخل في ذلك: المفاسد التي لا تتضمن مصالح راجحة عليها ولا سبيل لتحقيق هذه المصالح الراجحة إلا بارتكابها.

* ومن باب أولى المضار التي لا تتضمن منافع راجحة عليها ولا سبيل لتحقيق هذه المنافع إلا بارتكابها[1].

* قلت: هذا الكلام كله يندرج تحت عدد من الآيات القرآنية ويمكن الإشارة إلى بعضها فمنها قوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

* وأيضًا يشير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهمية فعل الخير يشمل ذلك جميع الكائنات «**في كل كبد رطبة أجر**»، «**وإماطة الأذى عن الطريق صدقة**» إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة مما هو مشهور معلوم.

(١) المرجع السابق (ص٦١- ٨٨) بتصرف يسير.

المبحث الثاني

مظاهر الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية

بناءًا على تلك الأسس الحضارية الإسلامية انطلق المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يبلغون الإسلام، ويؤسسون للبشر حياة مشرقة متقدمة متطورة، ويقدمون لهم طوق النجاة من الطغيان والتجبر والاستعلاء في الأرض، ليس ذلك كاملًا نظريًّا بل هو واقع عملي سوف نأخذ مقتطفات من تاريخنا الحافل بمظاهر الحضارة الإسلامية وذلك عبر النقاط الآتية:

أولًا: نبذة مختصرة حول ظهور الإسلام وانتشاره السريع:

ظهر الإسلام سنة ٦١٠م بين قبائل جاهلة بعيدًا عن حواضر شعوب الحضارات القائمة آنذاك، وانتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٢م، ولكن بعد مرور مئة سنة فقط وقفت الجيوش الإسلامية تحت أسوار باريس في معركة بويتيرسا سنة ٧٣٢م! فلنتأمل بركان الحياة هذا، ولننظر إلى ما جرى في هذه الوثبة العملاقة في غضون مئة عام فقط.

* لقد قامت حضارة متكاملة مغايرة لجميع الحضارات المعروفة ووُضعت أسسُها على مدى مئة عام من الحركة الدؤوب والهدم والبناء، وتمّ احتواء شعوب متحضرة كاملة في هذه الرقعة الشاسعة بقوة الدين والعلم فقط يقول هـ غ ويلز في كتابه «تاريخ العالم» [هزمت البحرية الإسلامية بحرية البيزنطيين في معركة قرب اللاذقية سنة ٦٥٥م، ويظل إلى الآن غير واضح من أين حصل العرب على تلك السفن؟] ويحاصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان مدينة القسطنطينية سنة ٦٦٢و٦٦٧م، بينما تمتدّ الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك وابنه الوليد (٦٨٥ -٧١٥م) من جبال بيريني غربًا حتى الصين شرقًا.

ثمّ إنّ الدول الإسلامية في الأندلس والشرق الأوسط والهند، مع مراكزها في قرطبة وبغداد ودلهي تمتدّ مدّة ألف عام[١]! ولا شك أنَّ مائة عام لا تسوي شيئًا في أعمار الأمم ولا الحضارات ولكن في هذا الدين سر عظيم بسببه كان ذلك الانتشار السريع.

ثانيًا: تعامل المسلمون مع حضارات الأمم التي دخلت في الإسلام أو هم دخلوها داعين إلى دين الله أو محاربين للطغاة من البشر: «لم يهدم المسلمون شيئًا في الأرض الخاضعة لسلطانهم، بل استوعبوا العلوم التي ازدهرت بين الشعوب الواقعة تحت حكمهم، وأثروها ونقلوها إلى الشعوب الأخرى. ولا شكّ أن الفضل في هذا التصرف العام يعود إلى روح وتعاليم الإسلام. إن أحد قياصرة بيزنطة لم ينقطع عجبه أمام إصرار «القائد الهجميّ» على إدخال بند يضمن له «حقّ شراء المخطوطات اليونانية» من ضمن بند اتفاقيّة السلام.

وكان هذا «القائد الهجميّ» قائدًا عربيًّا مسلمًا».

«لقد استوعب الإسلام إبداعَ الفينيقيين في مجال معالجة الزجاج، ومن المصريين في مجال النسيج، ومن السورين في مجال القطن، ومن الفرس في مجال الحرير. يقول ريسلير: لقد كان نسيج البيزنطيين والأقباط والساسانيين ذائع الصيت في ذلك الوقت، ولكنّ المسلمين استطاعوا الحفاظ على مستوى روعته»[٢].

* هذا في مجال إعمار الأرض وأما في مجال حرية العقيدة التي منحوها لتلك الشعوب فيحدثنا التاريخ عن كيفية ذلك التعامل بما يأتي: «في عهد الخليفة المأمون كان في أنحاء الخلافة الإسلامية أكثر من أحد عشر ألف كنيسة، ومئات المعابد اليهودية ومعابد عبدة

---

(١) عوائق النهضة الإسلامية - مجموعة مقالات للرئيس الأسبق علي عزت بيفوفيتس - نشر جمعية قطر الخيرية - ط١ - ١٩٩٧ (ص١٠) باختصار.

(٢) المرجع السابق (ص١١).

النار»[١]، ولعل هذا يغني عن كثير من الكلام، إذ هذا احترام عملي لما كان عليه أصحاب تلك الديانات؛ وقد ذكرت عند الكلام على حرية العقيدة ما يدل على أن هذا كان من منطلق إسلامي وليس سياسيًّا.

ثالثًا: ومن مظاهر الحضارة الإسلامية اهتمامها بالعلم أيًّا كان مصدره:

«وكان الإسلام يحكم العالم خمسمائة سنة (٧٠٠-١٢٠٠م) بمحض تفوّقه الحضاريّ على الأمم الأخرى: كان الخليفة الناصر في مدينة مرّاكش يتباحث مع الفيلسوف ابن رشيد في فكر أرسطو وأفلاطون، في وقت كان أمراء ونبلاء الدول الغربية يتفاخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة»[٢].

وهذه إحصائية تبين ما كان يمتلكه المسلمون من الكتب في مختلف أنواع العلوم «كان الخليفة الحاكم[٣] الأموي يملك مكتبة تحتضن ٤٠٠ ألف مجلد، وكان ملك فرنسا كارلو الخامس الملقّب بـ «المعلم» يفتخر بعد ذلك بأربعمائة سنة بمكتبته التي تكوّنت من «أكثر من ألف مجلّد». ويذكر اليعقوبي أنّه أحصى سنة ٨٩١م أكثر من مئة مكتبة في بغداد وحدَها. ويضيف ي. ريسلر: «لم يجرؤ أحد من أغنياء المسلمين على إمساك ماله عن الإنفاق في العلم والأدب والفنون وحوت خزانة مكتبة النجف الصغيرة في العراق ما يزيد على أربعين ألف مجلد، ولكن أضخم مكتبة وقتئذ وجدت في العالم كانت مكتبة العزيز في مدينة القاهرة، وحوت مليون وستمائة ألف (١,٦٠٠,٠٠٠) مـجلد، منها ٦,٥٠٠ مجلد في الرياضيات، و١,٨٠٠ مجلد في الفلسفة؛ وأمّا مكتبة مدينة بخارى فقد وصفها الفيلسوف الشهير ابن سينا بقوله: «رأيت فيها كتبًا لا وجود لها في أي مكان في العالم»[٤].

(١) المرجع السابق (ص١٢).
(٢) المرجع السابق (ص١٣).
(٣) عوائق النهضة الإسلامية (ص١٣).
(٤) المرجع السابق (ص١٩) بتصرف.

وأختم بهذه المقارنة العجيبة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية آنذاك حيث يقول العالم الهولندي دوزي ما نصه: «إن جميع سكان الأندلس الإسلامية كانوا يحسنون القراءة والكتابة، في وقت كانت الكتابة حكرًا على عدد من رجال الكنيسة»، ويضيف: «لقد جذبت هذه الحضارة المزدهرة رجال الكنيسة وعامة الناس في الغرب النصرانيّ ورحلوا بكل حرية إلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ليحضروا محاضرات مشاهير العلماء المسلمين في الجامعات الإسلامية».

رابعًا: مظاهر الحضارة الإسلامية في بعض جوانب الحياة الموسومة بالرفاهية والراحة:

لقد اهتم المسلمون بكل ما يؤدي إلى رفاهية البشر أو ما يخفف عنهم بعض مشاق الحياة أو يرفع عنهم شرورها أو يجلب لهم المصالح الهامة في حياتهم، كالطب والهندسة والزراعة والصناعات الهامة: أما في مجال الطب والمستشفيات وكل ما له علاقة بالنظافة: «وصل الطبّ والصحة إلى مراحل متقدّمة جدًا، وهذا ما يهمّنا بشكل خاصّ، لأن هذا الجانب – بدون شك – يدخل ضمن النتائج المباشرة لأوامر وفروض الإسلام. لأن عدد الأحاديث التي تتحدث عن الطب والصحة تزيد عن ٣٠٠ حديث، وقد جُمعت في كتاب الطب النبويّ؛ والنتيجة المباشرة لهذا أنّنا نجد في كافة المناطق التي خضعت يومًا ما للسلطة الإسلامية، عناية خاصة بشبكة المياه والحمّامات والمستشفيات، هذه هي الوظيفة العامة للحكومة الإسلامية. نجد أربعة وثلاثين مستشفىً في أنحاء الدولة الإسلامية سنة ٨٥٠م، وقد كان مستشفى (بيمارستان) دمشق يدار من تبرعات الدولة السخية، وكان مجهّزًا تجهيزًا فائقًا ومفتوحًا أمام الأغنياء والفقراء، ويديره فريق مكوّن من أربعة وعشرين طبيبًا مختصًا. يقول نيوبورغر Neuburger – أستاذ تاريخ الطبّ: «إن جميع الرحّالين

في القرون الوسطى – وهم جمّ غفير – متّفقون في إعجابهم بمستشفيات الشرق، وكان تنظيم وإدارة المستشفيات يمثل أحد أروع منجزات الحضارة الإسلامية»[١].

١- وأما في مجال الزراعة وتحسين المحاصيل الزراعية وأنواع الفواكه: كانت الزراعة بلغت مستوى عاليًا من التقدم في أرجاء بلاد الخلافة؛ لأنها كانت تحت تأثير مباشر لمعطيات العلوم. ونظرًا إلى ضيق المساحة للاسترسال في هذا الموضوع، فإننا سنسرد بعض الحقائق الموجودة في متناول أيدينا: «عيّنت الدولة موظفًا رسميًا مسؤولًا عن شبكة الريّ في جميع أقاليم الدولة الإسلامية... وقد ظهرت بحوث علمية في مدينة إشبيلية تناولت تفاصيل زراعة ما يزيد على خمسين نوعًا من الفواكه وذكرت أمراض النباتات وأساليب علاجها»[٢].

٢- وأما في مجال الأقمشة: فيكفي أن تعلم أنه «كان إنتاج الحرير في بلاد فارس قد ارتقى إلى مستوى الإنتاج وفق الحقائق العلمية، لذلك استطاعت فارس تغطية احتياجات السوق الأوربية من الحرير لمدة تزيد على مائة عام»[٣].

وسوف أختم حديثي حول مظاهر الحضارة الإسلامية بما قاله الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة حول تأثر الأمم بتلك الحضارة، ومسارعتهم للدخول في الإسلام حيث يقول: وفي ظل حضارة الإسلام؛ نشأ الفكر العلمي والفلسفي وازدهر ازدهارًا كبيرًا عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل عند غيرهم من أتباع نحل دينية وفلسفية سابقة، كالحرانيين، وكان ممثلوا ذلك الفكر موضع التقدير والاحترام.

وفي هذه الظروف كلها، وفي وجود هذه الحضارة الزاهرة، كيف لا تدخل الأمم في الإسلام وتشارك في حضارته وكيف لا يتسابقون، بل يتنافسون، في ذلك!؟

---

(١) عوائق النهضة الإسلامية للرئيس الأسبق علي عزت بيفوفيتش (ص١٤).
(٢) المرجع السابق نفس الموضع.
(٣) المرجع السابق: نفس الموضع.

فالإسلام يحتوي على كل حق في عقائد أهل الكتاب، وهو متفتح لكل علم حق وفكر صحيح ومتقبل بكل ما يرقى بالإنسان رقيًا حقيقيًا في هذه الحياة.

وكان من نتائج سعة الدولة الإسلامية الشاسعة وتنوع البلاد والأمم فيها أن تنوعت مظاهر الحضارة بحسب التراث السابق وتنوع البيئات. وقد بلغ أن بعض المدن خارج العالم العربي بمعناه التقليدي صارت حواضر للثقافة تضاهي بغداد والقاهرة ودمشق، وفيها كبار العلماء في العلوم كلها، وفي العلوم الإسلامية بمعناها الخاص، إلى جانب فنون الحضارة.

وكانت الحدود مفتوحة في طول البلاد الإسلامية الشاسعة، والعلماء وطلاب العلم والحجاج والتجار والرحالون والصوفية السواحون، جميعًا يجوبون البلاد، كلٌ فيما يريد، وكانوا أينما ذهبوا يجدون عقيدة واحدة وشريعة واحدة وأخلاقًا وعادات وآدابًا واحدة ولغةً واحدة أيضًا، إلى جانب لغة محلية هي أيضًا لغة حضارية إسلامية[1].

(١) مجلة الهداية – من وزارة العدل والشؤون الإسلامية – دولة البحرين – العدد (١١١) لعام (١٩٨٧) (ص٣٢) باختصار.

المبحث الثالث

أسباب التخلف الحضاري للأمة في عصرنا ومحاولة تلافيها

لا شك أننا أصبحنا بعيدين جدًّا عن ركب الحضارة المعاصرة، وأصبحنا أمة لا تحسد على التخلف والتراجع في شتى مجالات الحياة، وما من ثورة صناعية أو الكترونية أو معلوماتية أو تعليمية أو تربوية أو دراسات في علوم النفس الإنسانية أو غير ذلك إلا ونحن في مقام المتلقي الذي يندهش مما يرى، وكأنه غير متوقع لهذا الشيء الذي رآه.

إننا نستهلك ولا ننتج، نتقبَّل الأفكار ولا ننتقد، نأخذ ما عند الآخرين ولا نعطي ما عندنا؛ وإن كان عندنا شيء يستحق العطاء فهو أعظم شيء لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي التي بها الإسعاد الروحي للبشرية.

إنَّ الدنيا تنظر إلى العالم الإسلامي كسوق يباع فيه كل شيء حتى الأفكار الهدامة والشهوات الفاضحة المخزية، يعطى كل ذلك كما يُعطى السلاح والمواد الغذائية وأثاثات البيت كما يُعطى السيارات والطائرات بل حتى ما يستر عورته.

أليس هذا عجيب من العجائب أن تصل الأمة الإسلامية إلى هذه الحال، وهي تحمل في قلبها وعقلها أعظم أسباب التقدم والبحث العلمي والاكتشاف والسعادة بل الأهم من ذلك تحمل مكارم الأخلاق، وما يشحذ الهمم، وأسباب البقاء في الدنيا والخلود الأبدي في الآخرة.

كل ذلك لم يُفِد شيئًا فصرنا على الحال التي ذكرنا، وقد طال ذلك إلى أمد لم نكن نظن أن نصل إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ما هو السر وراء تخلفنا الحضاري الذي نعيشه اليوم، إن وراء ذلك أسبابًا عديدة، قد يكون الكلام جرنا إلى الحديث حولها في صفحات سابقة من هذا الكتاب[١] ولكن تلك كانت أقرب إلى خصوصية كل فرد في نفسه وما سنذكره هنا عام في الأمة الإسلامية عامة وفي الأكثرية منها.

أقول قبل الخوض في تلك الأسباب؛ إنها ليست وليدة اللحظة، ولا جاءت على حين غِرة، بل هي أسباب تراكمت عبر تاريخنا القريب - نحو قرن - في الغالب إلى أن وصلنا إلى هذه الحال.

ويمكننا أن نقول: إن الأسباب على كثرتها ترجع إلى أمور تاريخية فكرية عقائدية تصورية في الغالب؛ وبعضها يرجع إلى نواحٍ تطبيقية عملية، وقد حصرتها في ثمان نقاط، ذكرت فيها كل سبب مصحوب بعلاجه، وقد يكون سرد السبب في حد ذاته نوعًا من العلاج لما فيه من التنبيه على خطورته.

أولًا: أسباب تاريخية في العهد القريب: يقول الدكتور محمد عمارة موضحًا هذا السبب بقوله: «اتخاذ الترك المماليك قوة ضاربة للدولة، بحسبانهم الأكثر طواعية للخلافة من العرب ومن الفرس؛ فلما تضخمت مؤسستهم العسكرية، أصبحت الخلافة لعبة في أيديهم، فتعسكرت الدولة وامتدت - العسكرة - إلى الفكر وبدلًا من الوسطية التي كانت تجمع ما بين العقل والقلب، وتؤلف بين الرأي والأثر أثمر الصراع والفصام النكد بين الفقهاء والصوفية؛ ثقافة إسلامية قاصرة أو مغشوشة، عرفنا فيها: فقهاء لا قلوب لهم، وصوفية لا عقول لهم، وفقهًا وَقَفَ عند شكل الشعائر والعبادات، وتصوفًا باطنيًا منفلتًا من ضوابط الشريعة وحدودها؛ وإذا كانت دول العسكر الزنكية والأيوبية والمملوكية قد حفظت الوحدة لأغلب دار الإسلام، ونجحت في كسر شوكة الغزوة المغولية،

(١) كالمباحث التي بحثت مواضيع القدر والتدين المغشوش وحرية التعبير عن الرأي وغيرها.

واقتلاع الاستعمار الاستيطاني الصليبي، فإن فقرها الفكري والحضاري- بسبب غربتها عن لسان الإسلام وعقلانية فكريته - قد وقف بانتصاراتها عند ميادين القتال على حين نهض الفرنجة - بعد هزيمتهم العسكرية - حضاريًا فأعادوا كرة الغزو لديار الإسلام بعد أن ضموا إلى قوتهم المقاتلة عافية الثورة الصناعية، والنهضة الأوربية الحديثة فكانت دورة غزوة الخمسمائة عام التي ما زلنا نعاني آثارها حتى الآن؛ فبعد اجتياح غرناطة (١٤٩٢م) واقتلاع الإسلام من غربي أوربا، بدأ الفرنجة الالتفاف حول عالم الإسلام العربي بغزوة بونابرت لمصر والشام (١٢١٣هـ-١٧٩٨م)؛ ولقد أضافت هذه الغزوة الغربية الحديثة إلى المأزق الحضاري الذي تعانيه الأمة العربية والإسلامية تحديًا جديدًا، هو تحدي التغريب والاستلاب الحضاري، ونسخ وتشويه الهوية الإسلامية؛ فأصبحنا نواجه مأزقًا حضاريًا انضم فيه التغريب الوافد إلى التخلف الموروث»[(١)].

ولا شك أن هذا الكلام بين خطورة انشغال الأمة بالترميم والبحث عن إصلاح ما تم هدمه عن البناء والتقدم الحضاري، ومما له صلة بالموضوع ولكنه - مع بعده التاريخي - قد لعب دورًا هامًّا بحكم الوراثة؛ ما أشار إليه الشيخ محمد الغزالي بقوله: «من الرذائل المنكرة التي انتشرت في تاريخنا حب الرياسة وطلب الإمارة مع أن الإسلام رَهّب ترهيبًا شديدًا من هذه الخلة وبيّن أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ويحرص عليه ويتوسل بما أمكن ليبلغه وهناك أناس يتعشقون الصدارة كي يفرضوا ذواتهم على المجتمع، أقلهم يملك المواهب التي تسعفه، وأكثرهم مريض بحب الظهور، وتجاوز الآخرين، والأمم السعيدة هي التي تمنح قيادها مَنْ يقلق لتحمل المسئولية، ومَنْ ماتت في نفسه غرائز الأثرة والاستعلاء»[(٢)].

---

(١) موقع: الموقع العربي العملاق - مقال بعنوان «أسباب التخلف وسبيل النهوض» للدكتور محمد عمارة - باختصار.

(٢) بحث بعنوان عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية - للشيخ محمد الغزالي - ضمن - بحوث: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم (٢/ ٢٧٠).

ثانيًا: التصور الجزئي للإسلام: وهذا السبب إنما هو واقع تعيشه الأمة إلى اليوم، ومما لا شك فيه أن المسلم عندما يتصور الإسلام تصورًا جزئيًا؛ ستكون له تصرفات غير سديدة لعلنا أشرنا إلى بعضها عند الحديث حول التدين المغشوش، وانحرافات في باب الإيمان بالقدر، لكن ما سنذكره هنا النتائج السيئة التي تصيب الأمة كلها بسبب هذا التصور الجزئي للإسلام.

وقد تحدث الشيخ محمد الغزالي عن هذه القضية الهامة حيث قال: «والشبكة التي تُكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات، وهناك مديرون وهناك مساعدون وهناك فعلة وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقة مرسومة، ونظم إرسال واستقبال وتنفيذ وإنتاج.

إن شُعَب الإيمان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته ومرتبته.

وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي، فقاتلوا عليًّا أو يتبرأ من التحكيم، وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية.

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكانًا لمعان أخرى شيء لا يستساغ»[1].

* وحول خطورة هذا التصور الجزئي للإسلام يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: «هذه الظواهر السلبية، من انتقاص في التدين، وانحسار في الفهم، وغياب في الفقه، وإدراك وظيفة الدين في الحياة، ليست جديدة، ولا مبتكرة، فهي موجودة ومستمرة،

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٧٢) باختصار.

لكنها تضيق وتتسع، بحسب درجة الوعي الإسلامي وهي في النهاية، لون من العلمنة الذاتية للإسلام، أي علمنة الإسلام على يد أهله، وعزله عن الحياة وتقويمها بقيم الإسلام، ليصبح شأنًا فرديًا، وعلاقة بين العبد وربه، بعيدًا عن هموم الناس، وهذا مبتغى الظلمة ومحل تشجيعهم وإطرادهم»[١].

* وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة في الحديث عن التصور الجزئي للإسلام فإننا نقول: إنه قد يزداد حتى تصبح العبادات لا أثر لها في حياة المؤمن، فلا صلاته تؤثر في نظافته العامة ولا في انضباطه بالمواعيد مع الآخرين، ولا صومه يؤثر في صبره وجلده على العمل أيًا كان دينيًا أو دنيويًا، وهكذا صار الدين عند البعض نوع من الشكليات، وقد أشار إلى وجود هذا النوع من التصور في الواقع الإسلامي اليوم – أيضًا – الأستاذ عمر عبيد حسنة يقول: «لا بد من الاعتراف، أننا نعيش اليوم مرحلة جديدة من قراءة الإسلام، بأبجدية علمانية، ولئن كانت في الماضي، تأتي من الخارج الإسلامي، فتشكل تحديًا، واستفزازًا، يستنفر الأمة، ويجمع طاقاتها، ويقضي على الجوانب الرخوة في حياتها، وتتسلل على يد طبقات من المخرفين، والصوفية المنحرفة، والمرجئين الجدد، بعيدًا عن أية مسؤولية تجاه الأمة، فتستوعب هذه الصور من التدين، وتغري السذج والبسطاء، الذين يخادعون أنفسهم بهذا اللون من التدين الخادع، والاطمئنان الكاذب، البعيد عن أية تبعة، أو على يد مجموعة من فقهاء العصر، أصحاب العقل المستنير!! الذين يحاولون تقطيع الرؤية الإسلامية والانتقاء منها، ومحاصرتها في أسباب النزول من حيث الزمان والمكان»[٢].

---

(١) في النهوض الحضاري بصَائر وبشائر – لعمر عبيد حسنة – المكتب الإسلامي بيروت– ط١ – ١٩٩٦ (ص١٠٩).

(٢) المرجع السابق (ص١١٢).

ثالثًا: التصور الخاطئ للتعامل مع الدنيا والنصوص الواردة في ذمها:

كما أن من أسباب التخلف الحضاري التصور الجزئي للإسلام، كما أسلفنا، فكذلك التصور الخاطئ للدنيا وكيفية التعامل معها، وقد وردت الآيات الكثيرة التي تذمها كقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ [محمد:٣٦]، وغيرها من الآيات.

* فهناك من يقول: كيف بعد هذه النصوص أشتغِلُ بالدنيا وأَحمِلُ هم تعلُّم العلوم الدنيوية كالطب والهندسة وعلوم الحاسوب وغيرها – إذن – سأكون مخالفًا لصريح هذه النصوص.

* والجواب عن هذا أن يقال: إن جميع النصوص الواردة في ذم الدنيا إنما هي في حق من اتخذ العمل لها هدفًا في حياته ولم يتذكر آخرته، الدنيا ليست مذمومة في حد ذاتها، كيف تذم وقد كان فيها الأنبياء والرسل، وفيها الأولياء والصالحون إلى اليوم، لولا الدنيا ما عُرِف الله ولا شَاهَد الناسُ قدرتَه في بديع صنعه، إنما الذمُّ منصبًا على مَنْ نسي آخراه وانشغل بدنياه، وقد تحدث الشيخ محمد الغزالي حول هذا الموضوع، وأسهب فيه؛ ولكن سأحاول هنا تلخيص كلامه؛ لأنه مهم جدًّا حيث يقول: «الذي أبدع هذا العالم الكبير يُعرَف أنه أبدع شيئًا يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله ووساقة بنائه فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته.

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان، ويستوي على الطريق!! والثقافات الإسلامية المبتدعة والمنحرفة سر هذا العوج، وفي مقدمتها التصوف الدخيل. إن الله جل شأنه لما خلق البشر خلق لهم كل ما في الأرض؛ ليستمتعوا بها ما داموا على

ظهرها أحياءًا، ومعنى ذلك أن يعرفوا ما هيأ لهم معرفة شاملة، فمن الغباوة أن يأكل المسلمون ما زرع غيرهم، أو يستهلكوا وينتج غيرهم.

وقد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء، ما جعل أيديهم باطشة وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟.

لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها وبناء التربية الدينية على أفكار غبية شاعت بين فريق من المتصوفة والزهاد والفقهاء الصغار»[1].

* قلت: ومما يدل على أن هذا التصور لم يكن موجودًا في العصور السابقة ما سبقت الإشارة من التفوق الحضاري للأمة الإسلامية عبر التاريخ.

رابعًا: الجهل بالسنن الإلهية:

وسواء أكان ذلك الجهل فيما يتعلق بالسنن الكونية أو الاجتماعية، وهذا وإن كان داخلًا في جملة التصور الخاطئ للإسلام إلا أنه كان لا بد من جعله سببًا منفردًا لبيانه، والكشف عن صلته بالحضارة الإسلامية وأيضًا؛ لأن إهماله سيجلب على المسلمين في مستقبلهم كثيرًا من الويلات والخسائر الحضارية التي تؤثر عليهم تأثيرًا سيئًا في عقائدهم وأخلاقهم ودعوتهم إلى الإسلام.

* وممن أشار إلى واقعية الجهل بالسنن الإلهية الأستاذ عمر عبيد حسنة حيث يقول: «واعتقد من أعظم الخلل الذي لحق بالعقل المسلم المعاصر، ما يكمن في عدم التأصيل، والتأسيس، لعلم السنن، من خلال نضح الرؤية القرآنية، وتنزيلها على الواقع، في السيرة والسنة، ومن خلال استقراء محركات الصراع، في تاريخ البشرية، وعوامله

(١) عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية – للشيخ محمد الغزالي (٢٧٧-٢٨١).

وأسبابه، ونتائجه إن هذا الخلل، هو غياب عن الوعي تطيش معه السهام، وتضل معه العقول، ويقع الإنسان معه فريسة للمفاجآت، والعجز عن التعامل معها، لأنه عجز ابتداءًا عن فهم المقدمات، والأسباب الموصلة لها.

والذي يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه، وميادينه، وأسلحته، ومساراته، يصبح قادرًا على حسن تسخيره، والفقه بنتائجه، ويمتلك القدرة على المداخلة، والتحكم، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر يمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف وإيجاد مساحات لزرع الحقيقة، وتنميتها»[١].

* ثم يقول بعد ذلك بصفحات قليلة: «وقد يكون من المفارقات العجيبة، والمؤرقة حقًّا، في الحالة الإسلامية اليوم، أنَ المسلمين ما يزالون يمتلكون الخطاب الإلهي السليم، دون سائر الأمم، يمتلكون معرفة الوحي، التي توقفهم على تاريخ الحضارات، نهوضًا وسقوطًا، وخلاصة التربية البشرية، والسنن التي حكمتها في التدافع، والسقوط والنهوض، لكنهم يعجزون عن الإفادة منها.

لقد قامت معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، والخلاصات، والنماذج المطلوبة، من قصص الأنبياء، التي تعتبر منجمًا زاخرًا بالعبر والدروس، وعطاءًا لا ينفد للتدافع، والصراع بين الخير والشر، والنتائج والمآلات التي تحققت وفق هذه السنن الإلهية في التاريخ، الذي يعتبر المختبر البشري الدقيق لفاعلية هذه السنن، حتى لقد جعلت معرفة الوحي السير في الأرض والنظر في أحوال الأمم السابقة، وإدراك السنن والقوانين، التي حركت مسار التاريخ، أو تحرك التاريخ في مسارها، من العلوم المطلوبة للمسلمين، والتي بدون العلم بها سوف يخرجون من التاريخ، وينقلبون من وسيلة محركة فاعلة قائدة مسخِّرة إلى أداة معطلة مسخَّرة»[٢].

---

(١) من فقه التعبير ملامح من المنهج النبوي – لعمر عبيد حسنة (ص٨٩-٩٠) باختصار.
(٢) المرجع السابق (ص٩٣-٩٤) باختصار.

* وأقول زيادة على كلام الأستاذ عمر عبيد حسنة: إن الأمة اليوم ليست في العير ولا في النفير، وليس لها رأي في شيء له علاقة بالحضارة الإنسانية القائمة؛ فضلًا عن أن يكون لها دور في إدارة صراع بين حق وباطل أو خير وشر، والله المستعان.

خامسًا: شيوع الفكر الجبري والتفريط في الأخذ بالأسباب:

* إن الفكر الجبري القاتل بأن الإنسان لا خيار له فيما يأتي ويذر فكر معمول به في الواقع وإن لم يصَّرح به، وإذا أضيف إلى ذلك إهمال قانون السببية – الذي أشرنا إليه سابقًا – وجدت أن الفكرة الصحيحة حول الاكتساب غابت عن عقول الكثيرين، فلا هم في شيء من هم الدنيا ولا هم في عملٍ للآخرة.

* هذا السبب لعله من أقوى الأسباب التي أدت إلى التخلف الحضاري الذي نعيشه؛ ووجود هذا الفكر من قرون بين المسلمين، ولكن كان من واجب العلماء العمل على إزالته من عقول العامة قولًا وعملًا.

* يقول الشيخ محمد الغزالي: «ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسيّر لا مخيّر؛ ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية»[(١)]، ثم يضيف: «ولا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط، بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدرًا من الاستغلال يُسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها»[(٢)].

* وأما فيما يتعلق بعدم الأخذ بقانون السببية في حياة المسلمين وينضم إلى ذلك شيوع مبدأ الخبر ضعف الصلة أو انقطاعها بين الأسباب والمسببات؛ فعدد كبير من

(١) عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية (ص٢٨٢-٢٨٣).
(٢) المرجع السابق: نفس المكان.

المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع، وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية – على الإجمال – غير ملزم ولا مطرد»[١].

* ثم يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خطورة هذا المسلك على حياة المسلمين بقوله: «وهذا التصور المخبول لا ينضج معه علم ولا يصح فيه بحث، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحًا عمليًّا في هذه الحياة، والمقرر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون»[٢].

* والعجيب في هذه القضية أن علماءنا السابقين لم يألوا جهدًا في بيان ضرورة الأخذ بالأسباب في شؤون الحياة الدنيا، بل وكذلك الحياة الآخرة، فهذا ابن القيم يبين هذه القاعدة قائلًا: «وقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب، والحدود والكفارات، والأوامر والنواهي، كل ذلك مرتبطٌ بالأسباب قائمٌ بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسَّببات، والشرع كله أسباب ومسَّببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جارٍ عليها متصرف فيها، فالأسباب محل الشرع والقدر»[٣].

* وقد رد ابن تيمية على مَنْ لم يعتبر بالأسباب وينكر أن تكون مسبباتها ناتجة عنها فقال: «ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل وهو أيضًا طعن في الشرع فالله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وأمثال ذلك من الآيات، فمن قال يفعل الله عندها أي عند هذه الأسباب لا بها فقد خالف لفظ القرآن، مع أن

(١) المرجع السابق: نفس المكان.
(٢) المرجع السابق: نفس المكان.
(٣) شفاء العليل – لابن القيم (ص٣٨٠).

الحس والعقل يشهدان أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجبهة والعين في اختصاص أحدهما بقوة ليس في الآخر، ويعلم الفرق بين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر»[١].

سادسًا: الانبهار بالحضارة الأوربية في أوائل القرن العشرين واستمراره لدى بعض المسلمين إلى اليوم إلى جانب التغني بالماضي التليد دون السعي للتغيير:

* وما حدث للمسلمين من هزة عند رؤيتهم ما وصلت إليه أوربا على حين غفلة منهم – أيام الخلافة العثمانية – أدى ذلك إلى ذهول، أوشك أن يفقدها عقلها وهويتها؛ بل قد حدث هذا بالفعل لدى الكثيرين في ذلك الوقت، والبعض لا يزال يعبد العقل الغربي ويتخذه أسوة وقدوة في كل شيء، هذا مما أدى إلى امتداد فترة التخلف الحضاري وتأخر النهضة الحضارية الإسلامية والعمل على بناء الذات وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمود محمد سفر ما سنلخصه في الأسطر التالية:

من هذا نخلص تحديدًا إلى أن محنة الإنسان المسلم مع حضارة عصره تتركز في دوائر ثلاثة متصلة، هي في تقديرنا:

*** أولها: الانبهار بحضارة العصر لدرجة الغشاوة، واللهث خلفها حتى الإعياء:**

وكل هذا دافع إلى التقليد والمحاكاة ليجد نفسه في نهاية المطاف منقادًا طواعية إلى الرضوخ لسلطان تلك الحضارة فيصبح تابعًا لها. تأمره فيطيع.

لا بأس أن ينبهر الإنسان بالجديد عليه، ولا تثريب أن يندهش بالغريب عنه، فتلك جِبِلّة الإنسان أينما كان، فالانبهار بالحضارة الغربية المعاصرة صورة واقعية وحقيقية لا تنكر من شعوب العالم النامي ولا عيب في هذا بذاته، إنما العيب في نظرنا أن يسيطر

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ١٧٥).

الانبهار على الفرد والأمة، فتغشى الأبصار، ولا ترى إلا بمنظور تلك الحضارة، وتتوقف العقول، إلا اعتمادًا على عقول تلك الحضارة، فيسقط التبصر، ويمحى التفكير، وتلهث الأنفاس خلف «عالم الأشياء» في الحضارة الغربية، ولا تهدأ، حتى تنال بغيتها منه، دون أن تسهم في صنعه أو تشارك في إنتاجه.

*** ثانيها الإفراط في التغني بالماضي التليد كرد فعل غير مباشر لذلك الانبهار:**

* مما يقود المسلم المعاصر – في عمومه – إلى الاتكاء على مخدة التراث فيروح في ثبات عميق، لا يحس بما حوله ومن حوله، من متغيرات، وما يحيط به من تحديات، وعندما يستيقظ – إذا شاءت إرادة الله أن يستيقظ والثقة بالله كبيرة – سوف تجده مندهشًا للتطورات التي أخذت بعناق مجتمعة، وأحاطت به من كل جانب، ولأن تلك التطورات حدثت أثناء فترة نومه، فإذا لم يستطع أن يستوعبها يبدأ في مقاومتها، والقدح فيها، بدلًا من أن يحتويها، وينقيها عن شوائبها.

*** ثالثها: خمول العقل المسلم وغيابه عن مجريات الأحداث:**

إن ما أصاب العقل المسلم من ركود وخمول، بل وغياب تام، عن مجريات الأحداث في المجتمعات المسلمة، ترتب عليه خروجه من دوائر التحدي، والاكتفاء بالمشاهدة، فأسقط بذلك عن نفسه المسلمة واجب التكليف، الذي فرضه الله على الإنسان لعمارة الأرض عندما استخلفه فيها. إذ أن ما نلحظه بوضوح في مسيرة مجتمعاتنا اليوم أنها تعيش بالحد الأدنى من التفكير والتنظيم، وأن أفرادها – في مجموعهم – يتعايشون مع واقعهم بشيء من اللامبالاة، وبقدر من عدم الاهتمام، إلى جانب الأنانية الفردية، التي عادة ما تقود الشخص إلى التمسك بما يملك من فكر، أو رأي، أو خبرة، أو حتى متاع الدنيا، ويحرص على الاكتفاء بأدنى ما يستطيع من المشاركة في إنتاجية مجتمعه[1].

(١) دراسة في البناء الحضاري – للدكتور محمود محمد سفر – كتاب الأمة من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر – العدد (٢١) (ص٤٦-٤٩) باختصار.

* ما دام الدكتور محمود محمد سفر سمى هذه القضايا الثلاثة محنة فهي بلا شك سبب من أسباب تخلفنا؛ لأن المصاب لا يكاد يهتدي إلى الصواب.

* ويزداد الأمر سوءًا عندما نلحظ – أو نجد بالفعل – أنه لا يزال النخبة من أبناء الأمة يسيرون وراء الغرب في كل صغيرة وكبيرة، مع أنه من المفترض أن يكونوا قد أفاقوا من دهشتهم وثابوا من انبهارهم وعاد إليهم رشدهم.

ثامنًا: من أهم أسباب التخلف الحضاري الذي نعيشه هو عدم اعتماد الإسلام دستورًا ومنهاجًا للحياة في معظم الدول العربية الإسلامية:

* وهذا مما لا يحتاج إلى برهان، ولكن الذي أريد إثباته هنا هو أنه قد سبق وأن ذكر طرفًا من مظاهر الحضارة الإسلامية في عصورها المختلفة؛ ولا شك أن تحضرها وتقدمها إنما هو بسبب تمسكها بالإسلام واتخاذه منهاجًا للحياة.

* إن إقصاء الإسلام باعتباره مصدرًا وحيدًا لتنظيم حياة المسلم في جميع جوانبها، من تشريعات وقوانين أو تربية وتعليم، أو اقتصاد، أو اجتماع، إلى غير ذلك، إنما هو سبب أساسي في تخلف الأمة الإسلامية اليوم وإلا فلماذا سقطت الخلافة العثمانية؟ إنما كان ذلك خوفًا من أن يعود الإسلام لحياة الناس بعدما بعدوا عنه تقصيرًا منها وتفريطًا.

* وها هنا حقيقة ذكرها الدكتور يوسف القرضاوي أحب أن أثبتها لروعتها وأهميتها يقول: «وهنا حقيقة بارزة يجب الالتفات إليها، والتأكيد عليها، وهي: أن المتتبع للمد والجزر، والامتداد والانكماش، والنصر والهزيمة في تاريخ الإسلام، يتضح له بيقين أن فلاح هذه الأمة وقوتها وعِزّها مرتبطان بمدى تمسكها بشريعتها، فإذا أعرضت عنها أصابتها الويلات من كل ناحية، جزاءًا وفاقًا، وليس يجهل أحد ما كان عليه المجتمع العربي في الجاهلية، وما ذا كان حاله بعد أن هداه الله إلى الحق وحكمته شريعة الإسلام»[1].

(١) الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد – نخبة من الباحثين – من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة (ص٣٤٩).

* ومن أعظم أسباب سقوط الخلافة العثمانية إنما هو تركها للعمل بالشرع الحنيف؛ ليس تركًا من حيث التقنين، وإنما من حيث التطبيق، حيث كثر الظلم وانتشر الجهل، وبَعُدَ العامة والخاصة على حد سواء عن الإسلام، فلما كان ذلك أُصبنا بهذا التخلف الذي نعيشه إلى اليوم.

* ولا رجوع لنا إلى سابق عهدنا إلا بالرجوع إلى الإسلام بكامله في جميع جوانب الحياة وأسبابها.

* وأختم هذا المبحث بكلمة موجزة للدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي لخَّص من خلالها أسباب التخلف الحضاري حيث يقول: «لقد نزلت بالأمة عوامل وأسباب كثيرة أدت في مجموعها إلى ركود العقل، ووصوله إلى مرحلة العقم الذي عجز بسببه عن الإبداع والابتكار، كما عجز عن مواجهة المستبدات والتحديات، كما أصيب أيضًا بالعجز عن مواكبة الجديد في الفكر الإنساني، حتى أصيبت الثقافة بركود وجمود، وكل ذلك بدأ واضحًا بعد أن انهارت الخلافة الإسلامية، وانحسرت سيادتها، وتمزقت الأمة الإسلامية إلى أشلاء، وظهرت القوانين الوضعية في ديار المسلمين، فطغت على شريعة الإسلام، وبرزت النعرات الجاهلية، واصطنعت الحدود بين المسلمين، وارتفعت دعوات القوميات، وأصبح الحكم في أيد تلوثت بالولاء للغرب أو للشرق، وتنكرت لأبناء جلدتها، واستخدمت كل وسائل البطش للوصول إلى الحكم والاستئثارية به والاستمرار عليه».

* ثم يقول بعد ذلك بقليل: «لقد أصيبت الأمة بانتكاسات في أخلاقها وقيمها فغلبت عليها الأنانية، وأصيبت بداء حب الدنيا والخلود إليها، وتملكها حب الرئاسة والملك والتهالك عليه، حتى ماتت فيها الغيرة التي كانت في أسلافها، وانتهت في نفوسها الحمية على الإسلام، فلا يستثير غضبها حرمة تنتهك، ولا عرض يستباح، ولا

أرض تسلب، ولا شعوب تُشَّرد من ديارها، ولا مجازر تحل بأبناء دينها، ولا ديار تهدم على شيوخها وأطفالها ونسائها، واكتفت في كل أحوالها بحضور المؤتمرات والندوات، وإصدارات القرارات والتوصيات التي ضاقت بها مخازنها دون أن يكون لها أثر في واقع الأمة المخزي وهذه العوامل كانت كافية لاستئصال الأمة الإسلامية، والقضاء عليها.

ومع ذلك كله خرجت هذه الأمة العظيمة في فترات مضت من تاريخها من تحت هذا الركام، ومن بين هذه العواصف سليمة، معافاة، قوية، نشيطة، تنفض عن نفسها آثار غبار الموت وتراب القبر واستأنفت سيرها في طريق الإيمان من جديد في عزم وثقة»[1].

سابعًا: ترك الجهاد وإعداد القوة لمجابهة محاولات الاعتداء المتوقعة من الكفار ومن باب أولى مولاتهم:

* إن الله جعل الجهاد في سبيله سببًا في بقاء الأمة فهو سنة إلية وحكمة ومخالفتها يعني ذوبان الأمة واضمحلالها واستبدالها بغيرها، ومن الآيات التي أشارت إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

* ولعله من الواضح جدًّا في الآيتين أن الله توعد بالاستبدال عند ترك الجهاد بالنفس وفي الثانية توعد بالاستبدال حال ترك الجهاد بالمال، وإذا حصل الجبن والبخل في أمة فلا تسأل عن حالها من الذل والهوان عياذًا بالله تعالى من ذلك.

* «ويرى الدكتور عبد الحليم عويس أن من أهم أسباب سقوط الخلافة الإسلامية ترك الجهاد، ولم يكن مبدأ الجهاد الدائم حماية لهذه الدولة المترامية أحد أركان السياسة

(١) المرجع السابق: نفس المكان.

العثمانية، وقد كانت الحاجة ماسة لرفع راية الجهاد، ولكنهم لم يفعلوا ذلك؛ وغزوا في عقر دارهم، فذلوا وصدق عليهم قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما غزي قوم في عقر دارهم، إلا ذلوا»(١).

* وإذا كان قتال أعداء الإسلام واجبًا، فإن موالاة أعداء الإسلام والركون إليهم جريمة نكراء، فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ الذين يوالون الكفار كفارًا مثلهم، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]، والولاء هو النصرة والمعونة والمحبة(٢).

ويبين لنا أن هذا الولاء لا يجوز، ولو كان لأقرب الأقربين، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤]، ففي هذه الآية وعيد للمؤمنين بالعقوبة العاجلة أو الآجلة، وهذه آية شديدة لا ترى آية أشد منها فهي تنعي كل الناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين(٣).

ويقول تعالى محذرًا من اتخاذ الكافرين بطانة من دون المؤمنين، ومن اتخاذهم أصفياء وأخلاء، لأن هؤلاء لا يريدون الخير للمؤمنين فهم منطوون على الغش والخيانة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

«وهذه سنة ثابتة أن الأمة التي تستعين بأعدائها وتتخذهم بطانة لها سيكون مصيرها الانحطاط والهلاك، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده: من تتبع التواريخ التي

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٤٢٢).
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان لابن تيمية (ص٢٩-٣٠)، والولاء والبراء في الإسلام - لمحمد سعيد القحطاني (ص٩٢).
(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢/ ٤٢).

تمثل لنا أحوال الأمم الماضية، وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته، وتصريفه لشؤون عباده؛ رأى أن الدول عزها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون حقها، كما تعرف حقهم، وما كان شيء بيد أجنبي عنها، وإن تلك الدول ما انخفض مكانها إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها؛ فإن ذلك في كل دولة آية الخراب، والدمار وخصوصًا إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها مقاس منافسات وأحقاد وعداء»[1].

(١) تفسير المنار (٢/ ٨٤-٨٧).

تسخير السنن الإلهية
للبناء الحضاري للأمة الإسلامية

المبحث الأول: ضرورة توعية الأمة بالسنن الإلهية.

المبحث الثاني: خلق الله الكون وسخره للإنسان.

المبحث الثالث: النظرة الإسلامية لتسخير الكون لصالح الإنسانية.

المبحث الرابع: دور السنن الإلهية الاجتماعية والكونية في بناء الحضارة المعاصرة.

المبحث الأول

ضرورة توعية الأمة بالسنن الإلهية

إن موضوع توعية الأمة الإسلامية على أهميته وشدة الحاجة إليه في هذه المرحلة من عمر الأمة إلا أنني لم أجد من تحدث عنه على كثرة المواقع في الشبكة العنكبوتية، وعلى كثرة المؤلفات التي تدعو إلى الإصلاح والتغيير لكن الكلام عن السنن الإلهية مغيب تماما من الساحة الفكرية والدعوية والإعلامية إلا في حالات نادرة لا يكاد يسمع صوتها، وسط الضجيج الهائل من الغيورين على الأمة،الساعين في إصلاحها ولهذا رأيت أنه من الضروري التقديم لهذا الفصل بهذا المبحث حتى نكون على وعي بالخطى المطلوبة في سبيل البناء الحضاري ثمة شيء آخر ألا وهو أن المشروع الحضاري يمثل مسؤولية عظيمة لا يمكن أن يقوم بها مجموعة أفراد في الأمة الإسلامية، وإنما تقوم بها جميع الشرائح المجتمعية وبجميع التخصصات: علماء روحانيون، ومفكرون، وعلماء تربية، وتجار، وإعلاميون، وغيرهم.

وتحمل المسؤولية طبيعة فطرية وحركة جوهرية في الإنسان السوي، وإن اختلفت درجات التفاعل تبعًا لدرجات الصفاء الروحي عند الأفراد، ولهذا لم نجد إنسانا في الحياة بدون حركة وعمل، بغض النظر عن نوع العمل وقيمته، فإنه يختلف باختلاف البصيرة لدى الأفراد.

ويعتبر الشعور بالمسؤولية الطريق إلى النهوض والمجد والارتقاء، والمجتمع الذي يكثر فيه الاتكاليون لا يمكن أن يصلح ويتطور، فإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تنهض حضاريا، يجب أن يرسخ الشعور بالمسؤولية لدى عامة أبنائها، وما لم يرسخ الشعور بالمسؤولية لدى عامة أبنائها لن تجد الطريق إلى النهوض الحضاري والرقي، ولن تجد لها مكانا بين شعوب العالم والأمم الحية على الأرض.

ومن الحالات التي تعيق تقدم العالم الإسلامي، أن الذين يفكرون من النخبة في أوضاع العالم الإسلامي وأزمته الحضارية من المسلمين، لا دور لهم في تحمل مسؤولية الإصلاح، فأدوارهم تنتهي عند حدود التفكير، ثم يقفون على التل للتفرج على مسرح الأحداث والصراع بين مختلف الأطراف وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد.

وقد جاء هذا المبحث في سبيل التوعية بالسنن الإلهية ملخصا في الخطوات الآتية:

الخطوة الأولى: فرز السنن الإلهية إلى أبواب على سبيل المثال الباب الأول: وحدة الأمة،الباب الثاني هو باب النصر، الباب الثالث: سد الثغرات التي يأتي منها الفشل.. وهكذا نجمع ونستكشف مجموعة من الأبواب وكل باب نجد آية أو آيتين أو ثلاث وحديث قدسي أو نبوي أو ثلاث ثم نستخلص حكمًا ستكون أهم من المنهج الذي استخلصه حكماء صهيون.

وعلى سبيل المثال باب: هلاك الأمة وضعفها: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦].

ومن هنا يجب بناء منهج رصين قوي تأمر الأمة بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتلافى الشبهات دون تشدد أو مخالفة للسنن فهذا الباب الشرعي لا يعطي أفراد الحسبة مضايقة الناس.

الخطوة الثانية: خطوة على طريق الشفاء أن تعلم بأنك مريض، فاعترافك بالمرض يُسهّل عليك أمر البحث عن الطبيب المختص بدل المكابرة بالتنكر لوجود العلل التي تعترض الجسد بحجة المعافاة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإذا كان المناخ المحيط بالجسد موبوءًا، أو أن هناك فيروسات تتحين الفرصة للانقضاض على الجسد فإنك لا تملك أن تغير المناخ – اللهم إلا أن تذهب إلى كوكب آخر فإن الحل الوحيد المتبقي هو

التحصين الداخلي للجسد من خلال التغذية الصحيحة بالفيتامينات والمضادات الحيوية وغيره من الأساليب المدروسة طبيًا والتي ثبت بالتجربة التاريخية نجاعتها، وهذا ما أشار إليه الخطاب القرآني بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فالاستعداد الثقافي والفكري والإداري أساس لا مفر منه لمواجهة الحراك التاريخي، وإن أي تجاوز لسنن الله في الأرض ستكون عاقبته الحرمان من الثمرات الدنيوية للخالق، للجادّين العاملين، وهو عين ما قصده الشارع منبهًا العقل المسلم الذي قد يحسب أن إيمانه بالله دون العمل الحقيقي بالسنن الكونية سيوصله «مأمنه»، فقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

فإيمان مسلمي بنغلادش -على سبيل المثال- لا ينفعهم بالتفوق على مسلمي ماليزيا ولو كانوا أكثر منهم طاعة، لأنهم لم يُتبعوا إيمانهم بالعمل في سبيل إعمار بلدهم، والتجربة تكون أقسى لو قلنا إنهم لن يتفوقوا في الحياة الدنيا على اليابانيين مالم يأخذوا بسنن الله في الأرض من حيث إدارة مواردهم بشكل سليم، وبالطرق العلمية وبالاستفادة من تجارب الآخرين بعقل منفتح شعاره حديث المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها**».

والجدير بالذكر أن التجربة الماليزية والتي قادها بذكاء واقتدار محاضير محمد كان شعارها «النظر شرقًا» بمعنى الاستفادة من التجربة اليابانية والآسيوية وأضيف إليها نظرة دقيقة لموقع ماليزيا ضمن المنطقة الآسيوية كشريك آسيوي مع بقية النمور بما عرف بـ«سرب الإوز» حيث يطير السرب بشكل رقم ثمانية فالأخت الصغرى ماليزيا تمشي في ركاب الأخت الكبرى اليابان ضمن سرب واحد مستفيدة من عظمة التجربة الإدارية اليابانية، دون أن تفقد ماليزيا خصوصيتها الثقافية، والإسلامية على وجه الخصوص.

الخطوة الثالثة الاحتياطات المستقبلية:

١- الإعداد والاستعداد للطوارئ: فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

٢- الابتعاد عما يمكن أن يولد الخلل للأمة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا تبعتم أذناب البقر، و تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلًّا لا يرفعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**». بهذا فمن الاحتياطات أن نبني المنهج على توعية الأمة من خلال خطب الجمعة والنصح بالمساجد وتعليم الطلاب بالمدارس عن أسباب الخلل، وبهذا نحشد الأمة نحو التغيير الإيجابي فإذا تغيرت الأمة تغيرت الأمور واستجابت للسنن فبتطبيقها لتلك القوانين تم حشد الأمة نحو طريق النصر.

وبعد تنظيم الأمة نظم علاقات الأمة مع اليهود والآخرين.ومن هنا فيجب:

١- حصر أمراض الأمة التي تؤدي إلى ضعفها وتشرذمها ودخول الشيطان عليها لمزيد من الضعف.

٢- وضع منهج علمي وعملي وديني شامل لعلاج هذه الأمراض الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ولنبدأ بالممكن فقط.

٣- التغيير من القاعدة وعدم انتظار تغيير القيادات لأن هذا مخالف للسنن الإلهية وكأننا نقول لله سبحانه -حاشا أن نقول- سنفرض رأينا ونغير السنن، لن نستطيع فالسنة الإلهية تؤكد «كما نكون يكون رئيس الدولة أو سلطانها بل ربما كان السلطان أفضل» أي أن القاعدة فيها ما فيها من الخلل، فلننسى السلطان لأن السلطان في السماء وفي الأرض هو لله سبحانه الواحد القهار ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

لننسى إمكانية تغيير السلطان فكرًا لا عملًا وعلينا العمل على تغيير الأمة من القاعدة فإذا كنا مسلمين ملتزمين نؤثر الأخ على النفس، نؤدي الفرائض، نبتعد عن الحسد وهكذا...

أصبح السلطان الذي لم يحكم إلا بأمر الله وبملك الله؛ قادر ربه الله ملك الملوك أن يجعله يتغير فجأة من الشاكلة الأولى التي كانت عليها الأمة إلى الشاكلة الثانية التي أصبحت عليها الأمة.

وبهذا فنفس السلطان بشخصه وشحمه ولحمه سيكون ممتثلًا لأمر الله وسيقود الأمة للنصر، حين نطبق السنة الإلهية فنكون كما يريدنا ربنا وحيثما نكون كذلك سيولى علينا رجل مثلنا أو خير منا، ومن هنا فيجب أن نتأكد أن السنن الإلهية لا تستجيب لنا إلا بعد أن نحقق أسباب تلك السنن فنحصد تلك النتائج. فدعونا نبدأ بحصر السنن الإلهية التي لم تطبقها عوام الأمة ونحصرها في كل اتجاه ثم نبدأ بعمل منهج تجريبي واضح.

المبحث الثاني

خلق الله الكون وسخره للإنسان

لقد دلت الآيات القرآنية دلالة واضحة على أن الله تعالى سخر الكون للإنسان وأباح له الاستفادة والاستمتاع بكل ما فيه إلا ما جاءت الشريعة بالمنع منه، وهذا المنع إنما هو لصالح الإنسان أيضًا.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠]. وما شابههما من الآيات.

ومما هو واضح من الآيتين الإجمال فيما سُخر للإنسان ولكن وردت آيات أخر فصلت لنا هذا التسخير وهي كثيرة جدًّا، ولهذا رأيت أن أختار بعضها لبيان نعمة التسخير بشي من التفصيل ولكن قبل ذلك أجيب على سؤال قد يخطر على بال البعض: ما علاقة هذا المبحث بالسنن الإلهيـة؟

والجواب: أن العلاقة واضحة جدًّا؛ لأن من السنن الإلهية ما سبق ذكره ألا وهو أن الله جعل لهذا الكون قوانين مطردة ثابتة لا تتغير وينطبق ذلك على جميع الكائنات، ولهذا كان انتفاع الإنسان مما في الكون مبني على اطراد تلك السنن، والآن إلى تفصيل ما سخر لنا، وذلك عبر المحاور الآتية:

المحور الأول: آيات النباتات وما فيها من الفوائد والعجائب:

منها قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

يقول الشيخ عبدالرحمن بن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآيات السابقة: «ثم أرشده إلى النظر والتفكر في طعامه وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عدة ويسر الله له، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ أي نزل المطر على الأرض بكثرة ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ للنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافًا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾: وهذا هو شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾: وهو القت ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾: وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها (وانتشارها) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ أي بساتين فيها الأشجار الكثيفة الملتفة، ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ الفاكهة ما يتفكه به الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك، والأب ما تأكله البهائم والأنعام ولهذا قال: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب عليه شكر ربه وبذل جهده في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتصديق لإخباره»[1].

ويقول الأستاذ الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى: من يقرأ الآيات السابقات قراءة علمية نباتية إيمانية يشعر أن الآيات تأخذنا في جولة علمية عقائدية نرى من خلالها مراحل تكوين النبات والثمار حتى تصل إلى مائدة الإنسان ومعالف الحيوان. وتبدأ الآيات بداية علمية منطقية في عالم النبات فيقول تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ فنرى مياه المطر الغزير تهطل على الأرض الهامدة والأرض الخاشعة والأرض المزروعة والجافة فتبدأ العمليات الأرضية الفيزيائية والكيميائية والإحيائية لتسرب وتشرب الماء في التربة وتشققها للبذور والحبوب والجذور، وتبدأ عمليات إنبات الحبوب والبذور لتكون الجذور والسيقان والأوراق في البادرات، التي يخضر لونها لتكوين الخضر أو اليخضور المسمى بالكلوروفيل كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام:٩٩]، وتبدأ عملية

(١) تفسير السعدي (ص١٢٨٤-١٢٨٥).

البناء الضوئي فيتكون الغذاء للنبات وينمو النبات ويتفرع ويحمل الأوراق والأزهار والثمار فترى نباتات القمح والشعير والأرز قد اخضرت سنابلها وامتلأت بالحبوب وتدرج لون النبات من الأخضر إلى الأصفر، والحبوب من الليونة وعدم النضج إلى اليبوسة والنضج عندما يحين وقت حصادها. وترى نباتات العنب وقد مدت جذورها في الأرض وسيقانها الضعيفة في الهواء فوق التعاريش أو من دونها ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٤١]، ثم أخرجت أزهارها في نورتها المعجزة الجميلة، ويتم تلقيحها وإخصابها، وتعقد ثمارها التي تبدأ صغيرة خضراء حامضية ثم تنمو ويتغير لونها إلى الأصفر أو الأحمر أو الأسود أو القرمزي، وقد تدلت عناقيدها كثريات جميلة يسهل قطفها ونقلها وتخزينها وأكلها وتجفيفها وصناعة المشروبات غير المحرمة منها. ونرى الأرض وقد نبتت فيها نباتات الأعلاف العشبية ذات السيقان القائمة الضعيفة والأوراق البسيطة أو المركبة المتعددة الوريقات، التي تستخدم علفا للأنعام، ثم تبدأ في إنتاج الأزهار والنورات ـ مجموعة الأزهار ـ ذات الألوان البيضاء والصفراء والقرمزية، لتعطي الحبوب والسيقان الهوائية التي تجف أو تجفف لتعطي أعلاف الحيوان الجافة[١].

وعلى الجانب الآخر نجد أشجار الزيتون بسيقانها الخشبية القوية ذات الفروع المتعددة والأوراق البسيطة الخضراء الرمحية الداكنة اللون الأخضر ثم تزهر وتثمر لتعطي ثمار الزيتون المحتوية على دهن الزيتون بفوائده العظيمة، وما يتبقى بعد العصر من الثمرات يستخدم في علف الدواب والوقود وطلاء الجدران، وتخلل ثمار الزيتون الخضراء والسوداء لها لتعطي الثمار المخللة المغذية والمفيدة[٢].

(١) أ.د. نظمي خليل أبو العطا موسى أستاذ علوم النبات في الجامعات المصرية – مملكة البحرين (موقع الفرقان).

(٢) المرجع السابق.

وبجانب هذه الأشجار نجد أن أشجار النخيل ذات السيقان الوحيدة الطويلة والأوراق المركبة الريشية المكونة لأجمل تاج نباتي في العالم، وعند الإثمار تعطي النخلة الأزهار القشدية اللون كأنها حبات اللؤلؤ الأبيض، التي تعطي بعد تلقيحها وتخصيبها ثمار البلح الصغيرة الخضراء، التي تنمو في الحجم ويزداد طولها ووزنها لتظهر متراكبة كأنها عقد من الزمرد الأخضر، وبعد مدة يمتد اللون الأحمر أو الأصفر رويدًا رويدًا لتتحول الثمرة إلى اللون الأحمر الاقواتي أو الأصفر الكهرماني، ثم تسود لتكون كاللؤلؤ الأسود الجميل نادر الوجود.

وكل هذه النباتات وغيرها عندما تتجمع في مكان واحد وبتنظيم وتخطيط تكون الحدائق الغناء المتكاثفة الأشجار، والمتباينة الأطوال والحجوم والأزهار والثمار وتعطي الفاكهة والثمار الجميلة التي تزرع بينها النباتات الحولية العشبية[1].

المحور الثاني: آيات الله في الشمس والقمر والكواكب وما فيها من نفع للإنسان:

ومما هو معلوم أن هذه المخلوقات تكرر ذكرها في القرآن كثيرًا ولهذا يكفي الإشارة إلى موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٣].

تقول الباحثة زهرية محمد الساعاتي: في السماء الكواكب العجيبة، والشمس التي يستفيد منها الإنسان والحيوان، وفيها القمر الذي يحقق للبشرية الكثير من الفوائد، سواء منها ما يعود للإنسان مباشرة، أو ما يعود عليه من خلال إفادة النباتات التي يتغذى منها الإنسان والحيوان، أو ما يكتسب منه في المجال الضوئي وغيره. وهذا كله: يؤدي حتمًا إلى

(١) المرجع السابق.

إزالة تبلد الحس عند صاحبه، ويحرك مشاعر الإيمان والفطرة السليمة، التي تقر بوجود الله الخالق، وعظمته، ووحدانيته لأنه المستحق وحده للعبادة، دون شريك، ولا ند[١].

وتتابع الباحثة زهرية الساعاتي:إن الشمس في حقيقتها نجم متواضع من نجوم السماء، يبلغ متوسط قطرها حوإلى ١. ٣٩٣. ٤٠٠كم، وتشع ضوءها في الفضاء المتسع منذ نشأتها، لذلك فإنها تفقد من طاقتها في الثانية الواحدة ما يعادل خمسمائة وثمانية آلاف مليون حصان؛ إذ هي كوكب ناري ملتهب في كبد السماء يشع الضوء والحرارة والطاقة، وعليها تتوقف الحياة، وجميع الظواهر الطبيعية في الغلاف الغازي متوقفة عليها أيضًا، فمن أشعتها تكتسب جميع الكائنات الحية عناصر نمائها وإكسير حياتها.

كما إنها تجري في مسار لا تحيد عنه في رحلة دائمة مصطحبة معها جميع أعضاء الأسرة الشمسية في السماء، وفي حركتها تلك فوائد جمة ومصالح عظيمة، وهي تفيد الإنسان في معرفة الأزمنة والشهور والسنين، وأوقات الصلاة، ومعرفة المواسم الزراعية، وتعمل فيما تعمل على نضج الثمار والحبوب التي يتغذى منها الإنسان، وفيها الدفء والحرارة التي لا غنى للإنسان عنهما، ولقد تكرر لفظ الشمس في سورة النحل، تنبيها لما فيها من الفوائد والعجائب التي لم يكتشفها علماء العصر إلا قريبا، ومن الثابت إن ضوء الشمس نور ذاتي ينبعث من جسم ناري مشع، فيه حرارة متوقدة، وجعلنا سراجًا وهاجًا، وما ينـزل منها من الحرارة يتلاءم ومصالح البشر، وتستقيم به الحياة على الأرض، فلو زادت حرارتها لأحرقت الأرض وما عيها، ولو نقصت لأدت إلى تجمد كل ما على الأرض، كما كشف العلم.

أن من العوامل التي تساعد على تخفيف درجة حرارة الشمس الواصلة إلى الأرض وجود مياه البحار التي تعكس جزءًا من الحرارة، وتمتص جزءًا آخر منها، إذ يسلط الله

(١) تسخير ما في الكون للإنسان على ضوء سورة النحل وأثر ذلك في توحيد الخالق – رسالة ماجستير ـ جامعة أم القرى ـ ١٩٨٨ ـ الأستاذة زهرية محمد بن صالح الفاداني الساعاتي (موقع مجلة الإعجاز العلمي).

ضوء الشمس على المسطحات المائية، فتبخر جزءًا من المياه، فتتصاعد إلى طبقات الجو وتتجمع على شكل سحاب، ثم ينزل المطر بإذن الله.

وأشعة الشمس تحتوي على فيتامين (د) بكمية كبيرة، يحمي الأطفال من الإصابة بالكساح، وتمد الإنسان من طاقات كهربائية يستفيد منها في تشغيل بعض الآلات والأجهزة.، كما أن الشمس هي: المسئولة عن عملية التمثيل الضوئي في النباتات، وبضوء الشمس تتم التفاعلات الكيميائية في أوراق الشجر، وينتج الغذاء، وينمو النبات ويثمر، فهي مصدر الضوء والطاقة؛ لإفادة كل الكائنات الحية فوق سطح الأرض، والضياء والطاقة عاملان لازمان لحياة الإنسان والحيوان والنبات... وكل ذلك يوجب على الإنسان توحيد الله – سبحانه – وإفراده بالعبادة دون سواه. والقمر كذلك جرم سماوي من المجموعة الشمسية التي تتكون من أربعة وثلاثين قمرًا[1].

القمر يفيد المسلم في معرفة أوقات الصيام، والحج، وغير ذلك، وبما أن ضوء القمر منعكس عن ضوء الشمس، فهو نور لطيف، وضوء خافت يبعث على الراحة والهدوء ليلًا، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، وقد أكد العلم الحديث هذه الحقيقة بعد هبوط رواد الفضاء على سطح القمر، واكتشافهم وجود صخور تشمل على بلورات شفافة عاكسة للضوء، مثل بلورات الكوارتز، الذي يستخدم في صناعة الزجاج وسباكة المعادن، وفي الأجهزة الكهربائية وغيرها، ويكون الكوارتز ٠٣٥/ ٠ من القشرة الأرضية.

كما أكد العلم الحديث أيضًا: أن القمر يسبب حدوث عمليتي المد والجزر حسب منازله وبعده وقربه عن الأرض التي يستفيد منها الملاحون (البحارة)، قبل الدخول أو الخروج من أي ميناء، وكذلك صيادو الأسماك والمحار وغيرهم. تطهر عملية المد والجزر

(١) المرجع السابق.

وفي اختلاف الليل والنهار مظهران من مظاهر التدبر في الخلق لأنهما مسخران لمنفعة الإنسان وغيره من المخلوقات قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

ومما يستفيد الإنسان من الليل والنهار: معرفة عدد السنين والحساب، وذلك عن طريق معرفة عدد الأيام، كي يعرف المسلم أوقات الصلاة والصيام والحج والسكون والراحة ووقت الزراعة قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]، فالنهار للعمل والنشاط والبحث والإنتاج، والليل للسكون والنوم والراحة، وقد اكتشف العلماء حديثا فائدة صحية من العمل في النهار، وبخاصة إذا كان مبكرا، وذلك أن العامل يتعرض لأشعة الشمس في الصباح الباكر الغنية بالأشعة فوق البنفسجية التي تحتوي على فيتامين (د) الذي يكسب الجسم حيوية ونشاطا، ويقوي العظام. كما أن هذه الأشعة – التي لا تتكون إلا في النهار – علاج مطهر من الجراثيم العالقة بجسم الإنسان. وقد أكد العلم الحديث: أن أعلى نسبة لغاز الأوزون (O3) في الجو تكون عند الفجر، وتقل تدريجيًّا حتى تضمحل عند طلوع الشمس، ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبي، ومنشط للعمل الفكري والعضلي في الصباح الباكر، كما ثبت علميا أن أعلى نسبة للكورتيزون في الدم هي وقت الصباح، وهذه المادة تعمل على زيادة فعاليات الجسم، وتنشط استقلاباته بشكل عام وتزيد نسبة السكر في الدم الذي يزود الجسم بالطاقة اللازمة له[1].

وفي تعاقب الليل والنهار: استمرار حياة النبات واختلاف أنواعه حسب اختلاف الحرارة والبرودة، ووجود أنواع معينة من النبات في مناطق معينة من الكرة الأرضية. حيث إنه في النهار تستفيد أوراق النباتات الصغيرة والكبيرة بشكل كبير من الطاقة

(١) المرجع السابق باختصار.

المنبعثة من الشمس وذلك بسبب ما تحتويه من مادة اليخضور، للقيام بعملية التمثيل أو البناء الضوئي، ومن خلال عمل الطاقة التي يبثها اليخضور يتم دمج ثاني أكسيد الكربون مع الماء لتكوين المواد العضوية غذاء النباتات - وهذه العملية لا تتم إلا نهارًا.

أما الليل فهو سكون للنفس بهدوء الخواطر والأفكار، وفيه تلطيف للجو بعد غياب الشمس بحرارتها وفيه طلوع القمر بنوره الخافت، وتنقطع خلاله الحركة، وينام الإنسان والطير والحيوانات والهوام.

ومعلوم أن جسم الإنسان ينال من النوم ليلا راحة وفوائد عظيمة تفوق أضعاف ما يناله أثناء النوم نهارا - كما كشف علماء الطب حديثًا- حيث يقولون: إن الغدة الصنوبرية في الدماغ، تقوم بإفراز مادة الميلاتونين، ويزداد إفراز هذه المادة في الظلام، بينما يثبط الضوء إفرازها، وقد وجد أن للميلاتونين تأثيرا مباشرا على النوم. قال - تعالى -: ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون.

والغدة الصنبورية التي تنشط في الظلام تخفض ضغط الدم حوالى ١٥ ٣٠ ملليمتر، وترفع عن القلب بعض الحمل والمتاعب. وفي الإغفاء - قبل القيام بأي مجهود بدني أو عقلي أو بعده- فوائد بالنسبة للإنتاج العضلي والذهني، وللحالة الصحية عامة. وكما أن الكائنات الحية تخلد للنوم ليلا فان الأوراق تنام ليلا كذلك، ويظهر ذلك في وريقات نبات «الترمس» حيث يكون أفقيًّا أثناء النهار، فإذا اقبل الليل بدأت تنسدل شيئًا فشيئًا حتى تضم أوجهها السفلى بعضها إلى بعض، ثم تعود في الصباح سيرتها الأولى، وتسمى هذه الحركات بالحركات النعاسية[1].

(١) المرجع السابق.

المبحث الثالث
النظرة الإسلامية
لتسخير الكون لصالح الإنسانية

إن من أهم ما يجب على المسلمين في هذا العصر أن يكون لهم دور فيما يتم اكتشافه في هذا العصر، سواء أكان ذلك في اكتشافه ابتدءًا أو في نشره واستعماله،وأن يكون مرجعهم في ذلك القرآن الكريم، وذلك ليكون لهم دور فاعل في النهوض بالحضارة الإسلامية لئلا يقعوا في التبعية المقيتة التي تؤدي إلى محو الهوية الإسلامية، مع أهمية هذه القضية ووضوحها نرى أهمية بحثها ومعالجتها، وذلك من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: موقع المسلمين من الاكتشافات الحديثة:

ويمكننا توضيح ذلك من خلال النقاط الآتية:

١ - إن معظم الاكتشافات والاختراعات العلمية يقوم بها غير المسلمين في عصرنا الحاضر؛ والسبب في بذلك أن هؤلاء أخذوا بالأسلوب الصحيح في البحث والاستقراء والتمسك بقواعد وأصول البحوث العلمية الجادة، ووفرت لهم حكوماتهم بيئات علمية مناسبة، وسخرت لهم كل الإمكانيات المادية والوسائل المعينة، فانتقلت إليهم الريادة العلمية في شتى الميادين والمجالات العلمية، في حين أن المسلمين تخلفوا في هذا المضمار، فكانت النتيجة الطبيعية طبقًا لسنة الله في الكون، وتمشيًا مع قاعدة «ولكل مجتهد نصيب» - وتلك عدالة الله بين خلقه - أن وهب لهؤلاء العلمانيين ثمرة جهدهم وإخلاصهم لتلك العلوم التجريبية، وأعطاهم ما يستحقونه من سبق كشف وتقدم ونبوغ في الحياة الدنيا.

٢ - وإذا أراد المسلمون أن يعودوا إلى الصدارة في العلوم، ويحتلوا مكانتهم الريادية التي كانت في أسلافهم، فعليهم أن يعودوا إلى الإصلاح ومنهجه القويم، ويبحثوا عن

أسباب التخلف العلمي ومواضيع النقص والخلل، لأن تشخيص الداء هو أول خطوة لمعالجة المرض. ولن يكون الدواء نافعًا إلا بعد معرفة الطبيب لنوع المرض وأسبابه؛ ولهذا فإن الدراسات التي تكشف عن مواطن الداء في بنية علماء الأمة، وتبين العلاج لها فائق الأهمية وكبير الأثر في النهوض بالأمة، وخروجها من التخلف العلمي، لتأخذ مكانتها اللائقة في الحياة، وتؤدي دورها الريادي الخالد في قيادة الأمم وأستاذية البشرية، خاصة في العصر الذي انكشف فيه زيف المناهج والمذاهب الوضعية والمادية التي أعلنت عن فشلها وإفلاسها في إسعاد البشرية أو وضع حد لمعاناتها المتزايدة بسبب بعدها عن منهج الله تعالى.. ويومئذ يستحقون نصر الله وتأييده، ليس فقط في المجال العلمي بل في قيادة الأمم والشعوب إلى الفلاح والنجاح وشاطئ الأمان.

٣- الخطر يكمن في سلوكيات علماء غير المسلمين - العلمانيين- إذ أن معظمهم لا يتقيدون بآداب الديانات، ولا بالتعاليم السماوية، ولا بأهداف شريفة لتسخير العلم لصالح البشرية، بل إنهم ينحرفون بالعلم إلى تطبيقاته المدمرة، ويعملون لصالح استعلاء جنس على جنس، أو حضارة ضد أخرى، أو للسيطرة السياسية والهيمنة الاقتصادية على الشعوب الضعيفة، واحتلال بلدانها، وفرض القيم والثقافات المعينة عليها، كما نلاحظ ونشاهد في أكثر من بقعة من بقاع العالم الإسلامي. أرأيت كيف تكون الأمور لو أن قيادة العلوم والتقنية تمسك بها أيدي مسلمة مؤمنة، تخشى الله واليوم الآخر، وتعمل على تسخير العلوم للبناء لا الهدم؟

٤- إن من أهم وأسمى المبادئ في الإسلام الربط الوثيق بين تحصيل العلوم وتطبيقاتها بتقوى الله تعالى وطاعته والالتزام الدقيق بما أحله وبما حرمه، وتبعًا لذلك فإن العلوم واستخداماتها تستثمر لصالح الإنسان وسد حاجاته، والأخذ بيده إلى ما يصلح دينه ودنياه. والإسلام ينهى عن استخدام العلوم للإضرار بالخلق، مثل إفساد البيئة

والحياة الحيوانية والنباتية والطبيعية، وإثارة الحروب، والنزاعات الشريرة في التسلط والظلم والاستعلاء في الأرض واحتلال الأوطان.

وقد كان علماء الإسلام في أيام مضت يتصفون بضبط السلوك، والموضوعية، والبعد عن السيطرة على الآخرين، مع أنهم كانوا روادًا للعلوم التجريبية والكونية، ويحملون رصيدًا ضخمًا من المعارف التطبيقية والأبحاث العلمية، التي تعد الأساس المتين لتطور الحضارة الأوروبية والغربية، بشهادة العديد من المنصفين الغربيين،

وإذا كان الأمر كذلك، وعالمنا الإسلامي يملك ثروات اقتصادية وعقول علمية، كان على علمائه أن يدلو بدلوهم في صنع حضارة إنسانية شريفة، ويقوموا باجتياز الصعاب واختراق الحواجز وتذليل المعوقات، لبناء قواعد ومراكز علمية وتقنية، تخدم أهداف أسلمة العلوم التطبيقية، وتخرج العالم الإسلامي من دائرة الهوان والهزائم المتلاحقة.

٥- إن على الحكومات الإسلامية وأولياء أمورها أن تقوم برعاية الموهوبين، وتعتني بالعقول العلمية، وتوفر لهم البيئة المناسبة لممارسة التجارب والأنشطة العلمية، وتقدم لهم الدعم المادي والمعنوي، وتحثهم على البقاء في أوطانهم وعدم الخروج إلى العالم الآخر، وعدم تسخير طاقاتهم ومواهبهم لخدمة الغير.

حينئذ نكون قد أخذنا بالمنهج الصحيح، وانتقلنا من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوة مصداقًا لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

المحور الثاني: الاهتداء بهدي القرآن في الحكم على القوانين العلمية:

حرص كثير من علماء المسلمين، على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية، الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة من القوانين والقواعد الثابتة، أما

الفروض والنظريات فلا يجوز تحديمها في فهم ذلك وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظا مبالغا فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية ولا يجدون حرجا في ذلك العمل الذي يقومون به في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نري أنه لا حرج علي الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم علي ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوي الحقائق الثابتة، وذلك لأن التفسير يبقي جهدًا بشريًّا خالصًا ـ بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وحدود القدرة، ـ ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون علي نظرية ما. لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة القاعدة أو القانون، وقد لا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوي أبدا، فمن أمور الكون العديدة مالا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبدا، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين علي بلورة نظرية من النظريات، ويبقي العلم التجريبي مسلما بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبدا، والأمثلة علي ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد محدود من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية علي أخري، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك، فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالا بعيدا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف:٥١]، وذلك لأنه علي الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، في عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون مالا يمكن إخضاعه لذلك من مثل قضايا الخلق: خلق الكون، وخلق

الحياة وخلق الإنسان. وهي قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبدا بغير هداية ربانية، ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشافها،... ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم ـ خاصة في فهم كتاب الله ـ الذي أنزل لهم، ويسر لتذكرهم لقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم فيه أن الله لم يشهد الناس خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية قاطبة اذ يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت:١٩-٢٠]، مما يشير إلى أن بالأرض سجلا حافلا بالحقائق التي يمكن أن يستدل منها علي كيفية الخلق الأول، وعلي إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله تعالى إلى رسوله الكريم ليدع الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية (البحتة والتطبيقية) في الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان. وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإشارات اللطيفة ما يمكن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات أو فرض من الفروض والارتقاء بها أو به إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها أو له في كتاب الله أو في سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإني أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولا، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر

فبالفرض العلمي المنطقي المقبول، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما، لأن التفسير ـ كما سبق أن أشرت يبقي اجتهادًا بشريًّا خالصًا من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد، قابلا للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل[1].

المحور الثالث: الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر،وعلى الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين:

١- الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر:

إن في كون القرآن الكريم بيانًا من الله تعالى إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه ـ كل في حقل تخصصه ـ على ضوء ما تجمع له من معارف بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة، فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تأويل آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجا على القرآن بالمعارف المكتسبة، ولا انتصارًا له بها، فالقرآن بالقطع ـ فوق ذلك كله، ولأن التأويل على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفرا للناس من قبل، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل، من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق. وذلك لأن الله تعالى قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد يمكن حواس الإنسان المتأمل لها، المتفكر فيها، المتدبر لتفاصيلها من إدراك أسرارها (على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس)،

(١) منتديات ستار تايمز بتصرف.

ويعين عقله على فهمها (على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل)، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -وهو صاحب الفضل والمنة- بهذا التسخير الذي هو من عظم نعمه علينا نحن العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع في الكون صغر أم كبر، أدلة مدونة في صفحة الكون وفي صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح، فما من انفجار حدث في صفحة الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخور الأرض، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون كذلك في صخور الأرض، وما من هبوط نيازك أو أشعة كونية على الأرض إلا وهو مسجل. في صخورها.

ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل انطلاقا من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقي ـ دوما ـ مهيمنا عليها، محيطا بها لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذي هو أدري بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتًا على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين، وحتى

لو أخطأ المفسر في فهم دلالة أية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعد علي المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبدا، والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطئوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهما كاملا، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود أطرها اللغوية وحدها.

٢- الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين:

إن القول بأن عددًا من المعطيات الكلية للعلوم التجريبية ـ كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة ـ قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة ـ قول على إطلاقه غير صحيح لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات كما كان الحال في مطلع هذا القرن، والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو في الجزء المتأخر منه عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم، فإنه لا يجوز: اليوم حين بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حدًّا لم تبلغه البشرية من قبل وقد أصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء، وعلى ضرورة التسليم بالغيب وبالوحي وبالبعث وبالحساب، فمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي: ـ أن هذا الكون الذي نحيا فيه متناه في أبعاده مذهل في دقة بنائه، مذهل في إحكام ترابطه وانتظام حركاته.ـ أن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها. ـ أن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية حاول العلم التجريبي قياسها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة ـ لو استبعدنا الأخطاء

التجريبية. إن هذا الكون عارض أي أنه لابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية تشير إليها كل الظواهر الكونية من حولنا، إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.ـ إن هذا الكون المتناهي الأبعاد. الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام الذي يدور كل ما فيه في مدارات محددة وبسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة(١).

هذه المعطيات السابقة تفضي إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة. فلابد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوافر لشيء من خلقه بل ما يغاير صفات المخلوقات جميعا فلا تحده. حدود المكان ولا الزمان ولا قوالب المادة أو الطاقة، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين، لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة علي إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

إن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم، وحدة بناء كل من الذرة والخلية الحية والمجموعة الشمسية والمجرة وغيرها، ووحدة تأصيل العناصر كلها وردها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروجين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل المخلوقات، هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في

(١) منتديات ستار تايمز.

أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الأحياء والجمادات تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية، واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية والربوبية الذي لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه على سلطانه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

إن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيبًا قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء، لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد نمت نتيجة للبحث الدءوب عن هذا الغيب.

تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سرًّا لا نعرف كنهه، لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا أنسانًا عن غير الطريق الفطري لإيجاده.

إن النظر في أي من زوايا هذا الكون ليؤكد حاجته ـ بمن فيه وما فيه ـ إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده.

إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها ـ وعلى غير قصد منها ـ لتؤكد حقيقة الآخرة، بل وعلى حتميتها، والموت يتراءى في مختلف جنبات هذا الكون في كل لحظة من لحظات وجوده، شاملا الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته المشاهدة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع ما يقدر بحوالى٤،٦ مليون طن في كل ثانية وانها إذ تستمر في ذلك فلابد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وبنطفي أوراها، وتنتهي الحياة علي الأرض قبل ذلك، لاعتمادها في ممارسة أنشطتها الحيوية علي أشعة الشمس وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة

مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون ولابد أن تنتهي بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا، وليس معني ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود، لأن الآخرة قرار الهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقي الله تعالى لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعًا للأمر الإلهي كن فيكون وأن الإنسان الذي يحوي جسده في المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد فيها في كل ثانية ما يقدر بحوالي ١٢٥ مليون خلية تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريبًا، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد، وتكفي في ذلك أيضًا الإشارة إلى أن انتقال الإلكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار وخلق جديد في مدار آخر.

كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء (أي حوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية) وتخلق المادة في المسافات الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمد بطريقة لا يعلمها إلا الله، وتباطؤ هذا التباعد الناتج عن ظاهرة الانفجار العظيم مع الزمن مما يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية علي عملية الدفع إلى الخارج مما يؤدي إلى إعادة جمع مادة الكون ومختلف صور الطاقة فيه في جرم واحد ذي كثافة بالغة مما يجعله في حالة من عدم الاستقرار تؤدي إلى انفجاره علي هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون، فيتحول هذا الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسماوات غير السماوات. كما وعد ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بقوله عز من قائل:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

وتكفي في ذلك أيضا الإشارة إلى أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيبًا يساريًّا في أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيبًا يمينيًّا بمعدلات ثابتة محددة يمكن باستخدامها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته، ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!! فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها في أزهي عصور ازدهارها – تتصادم مع قضية الإيمان بالله، وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة كتابه المستقبل للإسلام ما نصه: إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق.

المبحث الرابع

دور السنن الإلهية
في بناء الحضارة الإسلامية

* لقد بينا من خلال المباحث السابقة كيف نهضت أمتنا حضاريًا وكيف سبقت أمم الأرض طوال الخلافة الراشدة والخلافتين الأموية والعباسية، وردحًا من عقود الخلافة العثمانية ثم تعرضنا إلى ما أصاب أمتنا بعد سقوط الخلافة العثمانية من تخلف حضاري وانهزام نفسي، وبينا أسباب ذلك كله.

* ولذا كان من المناسب في هذا المبحث بيان الدور الذي قامت به السنن الإلهية في النهضة الحضارة للأمة الإسلامية إبّان تفوقها الحضاري الذي أشرنا إليه؛ ونحن سنذكر هاهنا نماذج من البحث العلمي؛ والكشوف العلمية التي قام بها المسلمون اعتمادًا على تطبيق السنن الإلهية، وأكتفي هنا بالإشارة إلى سنتين احدهما كونية والأخرى اجتماعية:

السنة الأولى: سنة النظر فيما خلق الله في الكون ولكي تتضح الصورة التي كان عليها المسلمون مع هذه السنة الإلهية لا بد من توضيح شيئين:

الأول: مقارنة بين مناهج العلم في الحضارات السابقة للإسلام ومناهج العلم التي وضعها المسلمون وساروا عليها في بناء حضارتهم الشامخة:

«كانت طبيعة المناهج العلمية في الحضارات السابقة مخالفة لما هي عليه اليوم، فأسلوب المناهج العلمية عند اليونان وغيرهم كان أسلوب الجدل اللفظي العقيم، والتخيلات العقلية، فقد برع مفكرو ذلك العصر في إقامة الحجج والبراهين اللفظية الخاصة وتلاعبوا بالاستدلالات الشكلية والمغالطات التي تتخذ في ظاهرها صبغة منطقية، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي منهج في البحث يعين على المعرفة المباشرة».

* وإذا أردنا حصر مصادر معارفهم يمكن القول أنَّ تقسيم العلوم عندهم إلى علوم عليا، وعلوم دنيا، أو علوم شريفة، وعلوم وضيعة بحسب قرب العلوم من المنهج العقلي الصِرْف، فالفلك مثلًا علم رفيع، لأنه يبحث في كائنات علوية وهي الأفلاك، والرياضيات علم رفيع أيضًا، لأنها تحتاج إلى العقل وأما الكيمياء فهي علم وضيع لأنه معتمد على الممارسة اليدوية وقِس على ذلك بقية العلوم[١].

* وفي المقابل نجد أن انطلاق المسلمين إلى الآفاق العلمية، كان ينبعث من أعماق عقائدية، وتفكير حضاري سليم، يختلف عن غيره من الثقافات اختلافًا كبيرًا فقد ظهر الإسلام في جزيرة العرب، في أعماق الصحراء، بعيدًا عن الحضارات والمدنيات والعلوم والحرف والصناعات التي كانت تقوم عليها الأمم المرموقة في ذلك الوقت من الزمان؛ ولم يكن عند العرب في ذلك الزمان علم ولا حضارة ينطلقون منها[٢]. فدل ذلك على الإسلام هو الذي فجر تلك الطاقات ودعا إلى العلم وإلى البحث العلمي والآيات في هذا الباب أشهر من أن تذكر.

* وأما المنهج التجريبي الذي اكتشفه المسلمون يقول عنه الأستاذ الدكتور توفيق يوسف الواعي: «إن أعظم ما يمكن أن يفخر به العالم الإسلامي في عصر ازدهاره، هو أنه أضاف بالتدرج إلى مفهوم العلم معنى جديدًا، لم يكن يلقي اهتمامًا عند اليونانيين، وهو استخدام العلم في كشف أسرار عالم الطبيعة، وقهر الإنسان للمادة، والسيطرة عليها، واستخدم المسلمون الرياضيات في حل المشكلات الواقعية التي تواجه الإنسان، وبرعوا في علوم المادة، واخترعوا علومًا مساعدة لذلك، فمثلًا برعوا في استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب، الذي يمكن تطبيقه في حياة الناس اليومية، وكان اختراعهم

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية – للأستاذ الدكتور توفيق يوسف الواعي (١/ ٣٤٩).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٠) بتصرف يسير.

للجبر، وتفوقهم في الهندسة التحليلية، وابتكارهم لحساب المثلثات، إيذانًا بعصر جديد تستخدم فيه الرياضيات للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي، وعلى هذا فقد وضعت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج التجريبي، بما يقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات، ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقيق من صحة هذه الفروض»[(١)].

الثاني: ذكر أمثلة عملية لتطبيق المنهج التجريبي في حياة المسلمين ومساهمة ذلك في بناء حضارتهم: وذلك بناء على قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

وأكتفي هنا بذكر مثالين لإفادة المسلمين فائدة عملية من المنهج التجريبي في التعامل مع الأشياء من حولهم:

المثال الأول: اختيار المكان المناسب لبناء مستشفى على يَدى الفخر الرازي بناءًا على تجربة عملية: يقول الأستاذ الدكتور توفيق الواعي ما نصه: «ودرج المسلمون على ذلك في علمهم، فلم يقتنعوا إلا بالتجربة العملية، في أبسط الأشياء، وفي أعقدها، فنرى عندما شرع السلطان عضد الدولة في بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الفخر الرازي اختيار أنسب مكان وأصحه، فاستدعى الرازي بعض غلمانه، وأعطاهم قطعًا من اللحم وأمرهم بتعليقها في أماكن متفرقة من نواحي بغداد، ثم مرّ بعد وقت على قطع اللحم المعلقة، واختار المكان الذي لم تتغير فيه قطع اللحم بسرعة ولم يعتريها التلف، فبنى فيه المستشفى، ونرى بهذه التجربة البسيطة أن الفخر الرازي اختار المكان الصحي، الخالي نسبيًا من الجراثيم والأجواء الفاسدة»[(٢)]، ولعلي لست في حاجة إلى التعليق على هذه التجربة الفريدة التي تدل على ذكاء الفخر الرازي الخارق.

(١) المرجع السابق (١/ ٣٥٠).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٣).

المثال الثاني: إبطال ابن الهيثم نظرية لعالمين جليلين سبقاه في كون العين هي التي ترسل أشعة عند النظر، وذلك عن طريق التجربة:

أشار إلى هذه التجربة أيضًا الأستاذ الدكتور توفيق الواعي حيث قال: ولقد أدرك الحسن بن الهيثم الخطأ الذي وقع فيه العالمان بطليموس وأويقليد. فقد قال كل منهما أن العين ترسل أشعة بصرية على الأشياء المراد رؤيتها، فأعلن ابن الهيثم خطأ تلك النظرية بعد ملاحظته وتجربته.

وقال إن العين لا ترسل شعاعًا، وإن هذا الشعاع ليس هو الذي يسبب الرؤية، ولكن العكس هو الصحيح، فإن الأجسام المرئية هي التي ترسل الأشعة إلى العين، وإن عدسة العين هي التي تستقبل تلك الأشعة فترى بها الأشياء.

وهذا لأن ابن الهيثم جلس في حجرة مظلمة فلم ير شيئًا، فسقط شعاع على بعض ما في الحجرة، فرأى ذلك الشيء الذي سقط عليه الشعاع فقط. إذ لو كانت العين هي التي ترسل الأشعة لرأينا الأشياء في الظلام، ولكننا لا نراها إلا إذا وقع عليها الضوء، وانعكست منها الأشعة وأكمل تجاربه، وأخرج القانون[١].

ثالثًا: اعتراف الغربيين بابتكار المسلمين للعلم التجريبي:

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن قضية توصّل المسلمين إلى المنهج التجريبي في العلم أو بعبارة معاصرة في الاكتشافات العلمية اعترف بسبقهم إليها حتى الغربيون الذين درسوا تاريخ العرب والمسلمين، وممن اعترفوا بهذه الحقيقة غوستاف لوبون[٢] حيث يقول: «إنَّ أول من قام بالتجربة والترصد في الغرب هو بيكن[٣]،

(١) المرجع السابق (١/ ٣٥٥).

(٢) غوستاف لوبون عالم نفسي واجتماعي فرنسي كان متعصبًا للعنصرية، وهو من الكتاب الغربيين الذين ألفوا عن الإسلام والحضارة العربية، له في ذلك كتاب حضارة العرب.

(٣) بيكن فرنسيس؛ فيلسوف وأديب انجليزي، ولد بلندن وله مقالات رائعة من أروع تراث الأدب.

ولكنه يجب أن يُعترَف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أبدى هذا الرأي مع ذلك جميع العلماء الغربيين الذين درسوا مؤلفات العرب، ولا سيما همبولد العالم الشهير الذي بنى بحوثه على التجربة والترصد الذي هو أرفع درجات العلوم، قال إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبًا وقال مسيو سيديو: إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها الصحيحة، التي كانت سائدة لأعمالها، فكان استخراج المجهول من المعلوم، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة، كان ذلك كله مبادئ قال بها أساتذة من العرب، والعرب في القرن التاسع الميلادي كانوا حائزين لهذا المنهج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أجمل الاكتشافات، فمنهاج العرب قائم على التجربة والترصد، وأما درس الكتب والاقتصار على تكرار رأي العلم فقد صارت عليه أوربا حتى نهاية القرون الوسطى والفرق بين المنهجين أساسي، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق[1].

وهذا الكلام لا شك يرد على كل غربي متعصب من كون العرب لا فضل لهم على الحضارة الغربية القائمة اليوم فما أجمل الإنصاف وما أعدله.

السنة الثانية: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧].

إن عقاب الله تعالى للأمم السابقة التي كذبت الرسل وكفرت بالله تعالى أخذ مساحة واسعة من القرآن الكريم، وقد أفاد المسلمون من هذه السنة الإلهية الاجتماعية في بناء حضارتهم، وذلك بإقامة شرعه والعمل على نشره في الأرض، بل والجهاد في سبيل

(١) حضارة العرب – لغوستاف لوبون – مطبعة عيسى الحلبي – القاهرة – ١٩٥٦ (ص٨) نقلًا عن الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية (١/ ٣٥٤).

ذلك وإنفاق الغالي والرخيص بل بذل النفوس والأرواح في سبيل ذلك، حتى غيروا مجرى التاريخ وبدَّلوا وجه الأرض وغيروا خارطة العالم في عصرهم في فترة وجيزة.

ويكفي التدليل على ذلك التذكير بأن الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ابتدأت منذ عصر الخليفة الراشد الأول أبي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستمرت إلى فتح القسطنطينية، وهذا فيه دلالة على عدم التعرض إلى السنن الإلهية التي تتسبب في الانهزام أو التراجع إلا في حالات نادرة أو قليلة يتم بعدها مراجعة الأخطاء وأسباب الهزيمة.

يدل على هذا كله دلائل من أقوال الخلفاء الراشدين وغيرهم، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في رسالته الشهيرة إلى أبي موسى الأشعري: «ليكن خوفكم من ذنوبكم أشد عليكم من خوفكم من عدوكم».

وهذا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في إحدى خطبه بعد إحدى المعارك: «إن هؤلاء انتصروا باجتماعهم على باطلهم وأنتم هزمتم بتفرقكم على الحق حقكم».

لقد كان المسلمون الأولون يعملون بسنة: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، ولهذا قال بعض قادة الكفار في ذلك: «إنّ هؤلاء لو أرادوا هدَّ الجبال لهدوها».

ومعنى نصرتهم لله: أن يلتزم العبد بدينه ويتقي ربه ويبذل جهده في الدفاع عن حرمات الإسلام والمسلمين وإلا فسيكون الخطر.

ومعنى نصرتم لله أيضًا: أن يبتعد العبد عن الظلم المادي والظلم المعنوي ليعيش آمنًا في نفسه مأمون الجانب في تعامله مع الآخرين، فلا يغش في بيع ولا شراء، ولا يكذب في حديث، ولا يخلف في وعد، ولا يخون الأمانة، وهكذا.

بهذا استحقوا مقولة لقائل: «لو أرادوا هدَّ الجبال لهدوها»، لأن الله نصرهم عندما نصروه، ودافع عنهم عندما دافعوا عن دينه.

فلما قلَّ نصرنا نحن لله تعالى قل نصر الله لنا وضعفت معية الله لنا، يقول الدكتور البوطي: «إن التبصرة الذاتية التي أخذت بها أمم وأجيال؛ فَسارت ومتعها الله متاعًا حسنًا؛ طبقًا لما وعد في قرآنه وأعرض عنها أمم جاءت على أعقابها، على الرغم من أنهم يتلون كتاب الله ويسمعون عظاته، ويوقنون - ظاهرًا - بما فيه فذلَّت وهانت وتمزقت بين قوى من سلطهم الله عليها»(١).

وأختم بهذه الرواية التي يتجلى فيها بوضوح أن الصحابة كانوا يتعاملون مع سنن الله في المجتمعات والأمم تعامل العالم البصير بخبايا الأمور تقول الرواية: «جبير بن نفرلما فتحت قبرص، فُرِّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: لي: يا جبير، ما أهون الخلق على الله عَزَّوَجَلَّ، إذا أضاعوا أمره بينما أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك؛ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»(٢).

لقد فهم أبو الدرداء سبب انهزام النصارى وسبي نسائهم وصبيانهم وأخذ أموالهم مع أنهم أصحاب دين سماوي، إنما كان السبب هو تحريفهم لدينهم وكثرة مخالفتهم له، إذ لو أطاعوا ما جاء في كتابهم، لأدى ذلك إلى إسلامهم واتباعهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولسلمت لهم أموالهم ونساؤهم وأولادهم، وبالمقابل انتصر المسلمون وغنموا الغنائم الكثيرة بسبب سيرهم على منهج الله تعالى ويوشك أن إذا خالفوا، أن يصيبهم ما أصاب هؤلاء؛ لعل هذا هو السر في بكاء أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ والله أعلم.

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن - للبوطي (ص٧٣) الهامش.
(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - لابن قيم الجوزية (ص٢٧).

الخاتمة

لقد احتوى هذا الكتاب على فصول هامة من علم هام، وإنما تبرز أهميته في كونه -إن صح التعبير- علم العصر الذي يجمع بين الأخذ بتطبيق الشرع والترقي بالدنيا ومحاولة النهوض الحضاري بالأمة على وفق سنن الله في خلقه، وذلك على بصيرة واضحة وبخطى ثابتة، تمامًا كالمؤسسات التي تضع خططًا تسير عليها في التطوير والنمو والانتشار.

وهذا بناء على شيئين أحدهما: الأخذ بالسنن الاجتماعية المراد بها الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى البشر بناءًا على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة. وبهذا يتم تامين الأمة من الضياع والخسران الدنيوي والأخروي.

والآخر هو الأخذ بالسنن الإلهية الكونية والتي هي مجموعة من القوانين التي سنها الله تعالى لهذا الوجود واخضع لها مخلوقاته جميعًا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها، وبهذا يتم للأمة المضي قدمًا نحو الترقي والنهوض الحضاري المنشود.

ولا بأس أن نعطي صورًا من التطبيق العملي للسنة الاجتماعية:

* من ذلك العمل على تصحيح مفاهيم طالما كثر الخطأ فيها وجرَّ ذلك الخطأ علينا ويلات نحن في غنى عنها، كمفهوم حرية العقيدة وتطبيقاته وحرية الرأي والتعبير عنه في صور من التناصح فيما بيننا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح فيما بين الشعوب وحكامها بالتي هي أحسن.

* ومن تلك المفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بالإيمان بالقضاء والقدر، حيث وجد من المسلمين من ترك العمل باسم لو أراد الله شيئًا لكان تاركًا لسنة الله في السباب والمسببات، والبعض عاش في وهم من الخيالات المستقبلية بناءًا على قول الكهنة والعرافين..الخ.

* ومن أسوأ المفاهيم لدى بعض المسلمين ما وقع فيه البعض فيما يتعلق بتوبته وتطبيق الدين في حياته، حيث وجد القلب الفارغ من معاني الإيمان الحب والرجاء والخوف والخشية والإنابة وحل محل ذلك الكبر باسم الدين والاستعلاء على الآخرين، كل ذلك نجم عن ترك الأخذ بالسنن الاجتماعية.

كما أنه لا بأس من إعطاء بعض ما يتعلق بالسنن الكونية وهذه حالنا معها أسوا من حالنا مع سابقتها، لأن الأخذ بها قد ترك منذ ما يزيد على قرن من الزمان، ذلك هو السبب في تخلفنا الحضاري، ولا زلنا نعاني منه، فلقد ترك المسلمون النظر في الكون والبحث عن أسراره، كما ترك إجراء التجارب التي من شأنها التوصل إلى اكتشافات علمية أو حتى نظريات علمية تكون سببًا في مواصلة التقدم الحضاري الذي بدأه المسلمون منذ أيام الخلافة الأموية أو العباسية.

لقد ظن المسلمون أنَّ الزمان سوف ينتظرهم وأن شعوب الأرض لن تتقدم حتى يتقدموا وبقوا على تلك الحال ردحا من الزمن فخاب ظنهم ثم أفاقوا فوجدوا أنفسهم في ذيل الركب الحضاري، وكأنهم جهلوا أو نسوا أن عطاءات الله الكونية عامة لكل البشر، كل من يبذل جهدًا ويأخذ بأسباب الكون يجد النتيجة المرجَّوة، لأن الله تعالى خلق الكون وما فيه لجميع البشر لا المؤمنين به خاصة قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠].

وينتقل البحث إلى فصول أخرى تتعلق بالسنن الإلهية الاجتماعية وذلك لترسيخ بعض السنن التي لا بد منها لإيقاظ الأمة من غفلتها ولإصلاح حالها مع ربها جَلَّوَعَلَا، ومن ذلك سنة الله في ابتلائه لخلقه بالتكاليف الشرعية والتفاوت فيما بينهم، وسنة الجزاء من جنس العمل، ثم جاء بيان سنة التغيير الاجتماعي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]، وهذه السنة سبب أساسي في أن يغير

المسلمون حياتهم في هذا العصر إلى ما يوافق الشرع أنْ أرادوا أن يغير الله حال الذل والهوان الذي يعيشونه، وجاءت بعدها مباشرة بيان الخطوات التي من شأنها أن تحدث التغيُّر المطلوب في الأمة وهو تغيُّر يأتي بعد التغيير نحو الأصلح.

وعاد البحث بنا إلى بيان نماذج من سنن الله الاجتماعية في الأمم السابقة بنحو مختصر ثم بيان سنن الله في هذه الأمة أبَّان عصور ازدهارها وكيف كانت سببًا في إسعاد البشر عن طريق اكتشافاتهم العلمية وجهودهم المباركة التي لا يزال الغرب يستفيد منها أو قد أفاد منها مما كان سببًا في تغيير حضارتهم من التخلف والرجوع إلى التقدم والتطور والازدهار، ثم تراجع الحال بنا عندما تركنا ما أخذ به أوائلُنا عملًا بشرع الله وأخذًا بسننه الكونية والاجتماعية، لقد تم توضيح ذلك في فصل تناول الكلام على حضارتنا السابقة ومظاهرها وأسسها التي بُنِيَتْ عليها وجرنا الحديث إلى إعطاء صورة واضحة في الفرق بين حضارة الأمة الإسلامية ـ منذ الخلافة الراشدة وإلى أواخر الدولة العثمانية ـ وبين حضارات أخرى عاصرت حضارة الخلافة الإسلامية، لقد كان الفرق شاسعًا والبون بعيدًا حيث كان أولئك في تأخر وتراجع حتى وصل الحال بهم إلى أن يتفاخر سادتهم بأنهم لا يحسنون القراءة والكتابة، وكان حال الأمة الإسلامية أن توجد بين ربوعه وعلى جنبات مدنه آلاف المكتبات -الخاصة والعامة- التي تحتوي على مئات الآلاف من الكتب والمجلدات التي تحتوي على شتى العلوم ومختلف الفنون، ولا شك في أنهم أنفقوا الشيء الكثير من أوقاتهم وأموالهم حتى وصلوا إلى هذا المستوى في العلم بمختلف تخصصاته.

وإذا نظرنا إلى حالنا اليوم وجدنا أن الموازين قد انقلبت حيث صارت أمم الأرض تنفق على التعليم والتأليف والكشوف العلمية والبحوث العلمية أضعاف ما تنفقه الدول العربية والإسلامية اليوم، لقد مر بنا في ثنايا هذا الفصل أن الدول العربية مجتمعة

لا تصل ميزانيتها التي تنفقها على البحث العلمي ١٪، وهذا ما لا يوجد في أي دولة أخرى بما في ذلك دولة العدو المحتل الجاسم على صدر الأقصى.

ثم جاء في مباحث الكتاب الخيرة بيان السنن الاجتماعية والكونية الذي بسببه تمت الفتوحات الإسلامية حيث تلقاهم شعوب الأرض بالترحاب والدخول في دين الله أفواجًا بل وتحولوا من أعداء إلى مجاهدين ودعاة إلى الله تعالى، فتوسعت الدولة الإسلامية خلال فترة وجيزة -لا تعد في أعمار الأمم شيئًا- توسعًا مذهلًا جعل المؤرخين بالشأن الإسلامي في حيرة ودهشة من ذلك إلى اليوم.

وأخيرًا تناول الكتاب بيان أربعة من السنن -كونيات واجتماعيات- إن أخذ المسلمون بها يتم لهم الوصول إلى مبتغاهم من النهوض الحضاري، والتربع على كرسي المجد والوقوف على منصة القيادة والريادة لأمم الأرض وذلك هو مقامها اللائق بها ليس أمنية ولكن عن استحقاق بجدارة.

أما السنتان الاجتماعيتان فهما: الإيمان بالله والتقوى مع الأخذ بالاعتبار تجديد مفهومهما، والتدافع بين الناس.

وأما الكونيتان فهما: سنة النظر في كيفية بدء الخلق وبالتالي استمراري على ما سبق بيانه، ثم التسخير والتعمير بما في الكون لصالح البشر.

وإن كان لي من توصيات في ختام هذا البحث فألخصها في النقاط الآتية:

أولًا: إيصال الفقه بالسنن الإلهية إلى العلماء العاملين في ساحة الدعوة وإصلاح المجتمع، لأنه قد تبين لي من خلال الاطلاع على كثير من مؤلفات العلماء والدعاة أن هذا العلم غير واضح عندهم إن لم يكن معدوما بالكلية، وإذا كان هذا من الناحية النظرية فإن الناحية العملية التطبيقية أسوأ حالًا، وأعني بالناحية العملية عدة أشياء:

منها: عدم ذكر هذا العلم في الخطب والمحاضرات والمواعظ والدروس العلمية على كثرتها يستوي في ذلك ما كان منها في المساجد أو في وسائل الإعلام المختلفة إذ فيما هو نادر جدًا أن تذكر سنة من سنن الله ولو بصورة عابرة على لسان احدهم.

ومنها: عدم التخطيط لأي مشروع دعوي على مستوى الجماعات ولو وجد فإنه لا يكون مبنيًا على مراعاة السنن الإلهية بل هو مجرد أفكار تنظر إلى الواقع دون المستقبل أعني مستقبل الأمة فيأتي التخطيط أبترًا قليل الخير والبركة.

ثانيًا: إيصال هذا العلم للعاملين في حقل المنظمات الخيرية التي تسعى لمساعدة الناس من الناحية المادية في الغالب والمعنوية أحيانًا، لأنهم لا يقلون عن سابقيهم في إهمال هذا العلم وطلبه والعمل به، مع ما له من الدور الخطير في سير أعمالهم خصوصًا إذا علمنا أن بعض تلك الجمعيات والمنظمات تعمل على غير فقه شرعي، فمن باب أولى ألا يكون عملها على منهج سنني، وتلك مشكلة في التدين ومعضلة في النهوض الحضاري، لأن المال عصب الحياة وحسن استخدامه وعدم إهداره مطلوب حضاريًّا.

ثالثًا: إيصال هذا العلم إلى كل من له علاقة بالمؤسسات والوزارات التعليمية سواءً كانت حكومية أو أهلية؛ وإلى جميع المراحل التعليمية بما فيها الجامعية وطلاب الدراسات العليا: ذلك لأن من المعلوم أن علم السنن الإلهية ليس له ذكر في مناهجنا التعليمية إلا ما يذكر عرضًا في تفسير آية أو شرح حديث، دون التنبيه إلى خطورة ترك العمل بالسنن الإلهية، وإنْ وجد في الباحثين من كتب في العلم بالسنن الإلهية ـ رسائل ماجستير أو دكتوراة ـ إلا أنها تبقى بحوث فردية نوقشت في وقتها ثم نسيت، وانتشار هذا العلم في مؤسساتنا التعليمية مهم جدًّا لأنه يصل أكثر الطلاب الذين سيكون لهم دور مستقبلي في بناء الأمة فالأحرى بهم أن يسيروا على هدىً وبينة من ربهم في السنن الاجتماعية، إن كان دورهم المستقبلي تربويًّا أو تعليميًّا، وعلى هدىً من ربهم بالسنن

الكونية إذا كان دورهم في المستقبل له علاقة بالعلوم التجريبية أو البحوث العلمية أو العمل في تدريس مواد ذات صلة بهذا كله.

رابعًا: إيصال هذا العلم إلى قادة السياسة والفكر والوزراء والسفراء والمديرين في مختلف تلك الوزارات والإدارات أو الأعمال السياسية: لأنه قد سبق أن هناك إهمالًا عامًّا بهذا العلم، ومن ثَمَّ فهؤلاء في أمس الحاجة إلى هذا العلم نظريًّا وتطبيقيًّا لما لهم من الدور الكبير في البناء النهضوي المنشود للأمة الإسلامية، هذا من ناحية إجمالية، وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فإننا نقول، إن هؤلاء أكثر الناس تصويرًا للإسلام وإيصاله إلى الآخر لما لهم من التعامل معهم عن قرب، فهم إما أن يعطوا الصورة الحقيقية عن الإسلام وإما أن يشوهوا صورته بسبب جهلهم وبعدهم عن حقائقه ومقاصده ومن أهمها السنن الإلهية الاجتماعية خاصة والكونية عامة.

خامسًا: إنشاء دور أو مؤسسات أو مراكز خاصة بتعليم السنن الإلهية وفقه المقاصد وفقه الحكم التشريعية من الأحكام الإسلامية، ولعلي أن أقول أن هذه الثلاثة علوم المشار إليها عم إهمالها، أوساط الخاصة من المسلمين، فضلا عن العامة، وهي تعتبر أساس كل عمل نهضوي الأمة في حاجة إليها، وذلك كان من الضروري بمكان إنشاء مراكز تعليمية خاصة بهذه العلوم لإقامة الورش التعليمية أو الدورات على حسب الطبقة التي تختار لتعلم السنن الإلهية، سبقت الإشارة إليه من علوم.

إذ يختلف الأسلوب الذي يوصَّل به العلم ما بين طبقة وأخرى.

وهذا البند يعتبر تطبيقًا عمليًّا للبنود السابقة لأن إيصال العلم إلى كل الطبقات آنفة الذكر يحتاج إلى آلية معينة لتقوم بهذا الدور وهذه الآلية تحتاج إلى أن يجمع لها أهل الفكر والنظر من العلماء لوضع المناهج الواضحة لها كما تحتاج إلى أهل الغيرة على الإسلام من الأثرياء لتمويل جميع المشاريع التي تصب في هذه القضية التي تهم كل مسلم، ولا يفوتني

أن أقول: إن العامة من المسلمين أيضًا هم في حاجة إلى أن يطلعوا على هذا العلم لأنه يبين لهم أن الالتزام بشرع الله تعالى سببٌ من أسباب الحياة الآمنة بل الحياة الطيبة التي نحن جميعًا في أمس الحاجة إليها.

سادسًا: ترجمة السنن الإلهية إلى لغات العالم الحية: وذلك ليتم توزيعه على كافة المسلمين في شتى أنحاء العالم، لأن كل مسلم في حاجة إلى المشاركة في المشروع النهضوي، وقد يصل هذا العلم إلى من له فكر ثاقب ونظر سديد فيعجل بالنهوض بهذه الأمة أو على الأقل في بعض دولها وشعوبها، وهذا المشروع كسابقه يحتاج إلى تمويل.

سابعًا: تحويل بعض المشاريع المقترحة أو الأفكار الجيدة التي تساهم في البناء الحضاري إلى واقع عملي وذلك بعد التثبت من أهميته حسب السنن الإلهية: وأعني بذلك أن هناك عددًا كبيرًا من المشاريع النهضوية المقترحة ولكن ليس كلها يصلح للتنفيذ ولذا علينا انتقاء ما يخدم الأمة الإسلامية وفق السنن الإلهية ومن المشاريع العامة في نظري مشروعان:

أحدهما: مشروع تطهير الوزارات والمؤسسات من الفساد الإداري وذلك بأن تقوم بعض الجهات التي لها صوت مسموع بإصلاح ذلك الفساد حتى تؤدي الوزارات دورها المنشود في الأمة، وكذلك يجب تطهيرها من الظلم المالي والإداري الذي يقع على بعض الموظفين بسبب وجود المحسوبيات والواسطة التي ترفع غير المؤهلين وتحرم غيرهم، بل أحيانًا يوظف غير المؤهل ويمنع المؤهل من الوظيفة بسبب ذلك الفساد أو تلك الواسطة، وهذا الخلل أشار إليه الحديث النبوي: «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1]، وكون أنه يُنتظر الساعة بعده دليل على عِظم ذلك الفساد الذي يؤدي إلى خراب الكون لأن قيام الساعة إنما هو دمار الكون.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٩١٣).

وهذا المشروع لا يحتاج إلى دعم مادي بل حاجته العظمى إلى دعم معنوي وإلى دعاة يخلصون لله تعالى في تطبيقه.

الآخر: إصلاح القدوات في الأمة وذلك بأن يكونوا على وعي تام بما يجب أن يكونوا عليه من الخلق الكريم والدعوة إلى الله تعالى وفق ما جاء في كتاب الله وسيرة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك ما ورد من سير الصحابة وكبار المصلحين في هذه الأمة المباركة، وقد يقول قائل كيف يكون هذا المشروع له علاقة بالنهضة الحضارية المرجوة أقول: كلنا يعلم عبر التاريخ أن هناك شعوبًا بأكملها دخلت في الإسلام بسبب مكارم الأخلاق التي تمثلها أولئك الدعاة من المسلمين، والذي نشاهده اليوم هناك من الدعاة مَنْ هو غير مقبول وسط مجتمعه فضلًا عن أن يقبله غير المسلمين.

وهذا المشروع في الحقيقة هو ضخم جدًّا ويحتاج إلى جهات عديدة حتى يتم إكماله وجعله واقعًا معاشًا، ولعل طريقة معالجته لا تخفى على الكثيرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ظهر يوم
الخميس ١٢ رجب ١٤٣١
الموافق /٢١/٦/٢٠١٠م

المراجع

القسم الأول:

١- القاموس المحيط ـ لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ توزيع مكتبة النوري ـ دمشق. بدون تاريخ.

٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ـ لإسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.

٣- لسان العرب لابن منظور ـ تحقيق: أمين محمد عبدالوهاب، مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٩م.

٤- الأساس في البلاغة ـ لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ـ دار المعرفة ـ بيروت. بدون تاريخ

٥- معالم الشريعة الإسلامية ـ الدكتور صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٣ / ١٩٨٠م.

٦- معجم مقاييس اللغة ـ لابن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار الجبل.

٧- صحيح مسلم لأبي الحجاج مسلم بن الحسين القشيري ـ دار الأفكار الدولية ـ الرياض / ٢٠٠٨م.

٨- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

٩- تفسير المراغي ـ لأحمد مصطفى المراغي. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٧٤م.

١٠- تأملات في الواقع الإسلامي ـ لعمر عبيد حسنة ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ ط١/ ١٩٩١م.

١١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ـ للدكتور وهبة الزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

١٢- سنة الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة رسالة دكتوراة للدكتور ـ حسين شرفه ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٨م

١٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ وضعه محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الحديث القاهرة ـ ١٩٩٤م.

١٤- ديوان لبيد ابن ربيعه العامري ـ دار صحارى ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

١٥- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ـ لابن قيم الجوزية ـ شرح ومراجعة سعيد اللحام ـ دار الفكر اللبناني ـ بيروت. ط١ ـ بدون تاريخ.

١٦- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ـ مكتبة المعارف ـ الرباط ـ بدون تاريخ.

١٧- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ـ للدكتور عبدالكريم زيدان ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٣م.

١٨- سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم ـ للدكتور صديق عبدالعظيم ـ مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ الكويت ـ العدد (٣١).

١٩- مدخل لدراسة السنة النبوية ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م.

٢٠- قصة الحضارة ت رول ديورانت ـ ترجمة زكي نجيب محمود ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.

٢١- في ظلال القرآن ـ لسيد قطب ـ دار الشروق ـ القاهـــرة ـ ط١١ ـ ١٩٨٢م.

٢٢- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ ٢٠٠٣م.

٢٣- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ـ للدكتور أحمد محمد كنعان سلسلة كتاب الأمة العدد ٢٦ ـ إصدار رئاسة المحاكم الشرعية ـ دولة قطر ـ ١٤١١هـ.

٢٤- مراجعات في الفكر والدعوة ـ لعمر عبيد حسنة ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ الجزائر ـ بدون تاريخ.
٢٥- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية رسالة دكتوراة ـ للدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط١ـ٢٠٠٤م.
٢٦- مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣م.
٢٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ للإمام شهاب الدين محمود الألوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٥م.
٢٨- نظرات في القرآن ـ للشيخ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ط٥ صـ١١٦ ـ بدون تاريخ.
٢٩- إحياء علوم الدين ـ لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الثانية ـ١٤١٣هـ.
٣٠- صحيح البخاري ـ للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ـ دار الأفكار الدولية ـ الرباط ـ ٢٠٠٨م.
٣١- في فقه التدين فهمًا وتنـزيلًا ـ للدكتور عبد المجيد النجار ـ سلسلة كتاب الأمة عدد (٢٤) من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ بدولة قطر.
٣٢- مختصر تفسير الطبري ـ لمحمد المعلم ـ مطبوع بهامش مصحف دار الشروق ـ دار الشروق القاهرة ـ بدون تاريخ.
٣٣- زاد المعاد في هدي خير العباد ـ لابن قيم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٤/ ١٩٨٦م.
٣٤- الأدب المفرد ـ للإمام محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط٣/ ١٩٨٩م.

٣٥- كيف نتعامل مع القرآن ـ للشيخ محمد الغزالي مدارسة أجراها معه عمر عبيد حسنة.

٣٦- تفسير التاريخ علم إسلامي ت للدكتور عبدالحليم عويس ـ دار الصحوة ـ القاهرة صـ (١٠٤) ـ بدون تاريخ.

٣٧- السنن الإلهية في الأمم والأفراد ـ للدكتور مجدي محمد عاشور ـ رسالة دكتوراة ـ دار السلام ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٦م.

٣٨- فقه التاريخ ـ للدكتور عبدالحليم عويس ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م.

٣٩- تاج العروس ـ للسيد محمد مرتضى الزبيدي ـ دار صادر بيروت ـ بدون تاريخ.

٤٠- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ت دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ ٢٠٠٣ صـ (٢٤، ٢٥)بتصرف.

٤١- كتاب الجمل في النحو ـ للخليل بن احمد الفراهيدي ـ تحقيق عبدالله درويش ـ مطبعة بغداد / ١٩٧٠م.

٤٢- من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي ـ لعمر عبيد حسنة ـ المكتب الإسلامي ت بيروت ـ ط١ / ١٩٩٦م.

٤٣- الإسلام حضارة الغد ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط٤ / ١٩٩٥م.

٤٤- أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ـ للعلامة عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ـ دار القلم ـ دمشق ـ ١٩٨٠م.

٤٥- الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ للراغب الأصفهاني ـ تحقيق ـ أبي زيد العجمي ـ دار الصحوة ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.

٤٦- عوائق النهضة الإسلامية ـ للرئيس الأسبق علي عزت بيغوفيتش ـ منشورات جمعية قطر الخيرية ـ دولة قطر ـ ط١ ـ ١٩٩٧م.

٤٧- في فلسفة الحضارة الإسلامية ـ لعفت الشرقاوي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ط٣، ١٩٨١.

٤٨- حول التفسير الإسلامي للتاريخ ـ للأستاذ محمد قطب ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ط١/ ٢٠٠٦م.

٤٩- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ـ للإمام احمد بن محمد الفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٥٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٥١- العمل الإسلامي فريضة وضرورة ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة / ١٩٧٧م.

٥٢- تفسير الشعراوي ـ للشيخ محمد متولي الشعراوي ـ دار أخبار اليوم ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

٥٣- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم ـ لمحمد الصادق عرجون ـ الدار السعودية ـ الرياض ـ ط٣ / ١٩٨٤م.

٥٤- التكريم الإلهي للإنسان ـ الدكتور محمد الزحيلي ـ دار العلم ـ دمشق ـ ط١ / ١٩٩٥م.

٥٥- في النهوض الحضاري بصائر وبشائر ـ لعمر عبيد حسنة ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٩٦م.

٥٦- الحضارة فريضة إسلامية ـ للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق ـ مكتبة الشروق ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.

٥٧- ترتيب القاموس المحيط ـ الطاهر أحمد الراوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.

٥٨- العرب في الإسلام ـ الشيخ محمد الخضر حسين ـ المطبعة التونسية ـ ط١ ١٩٠٩م.
٥٩- الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد ـ نخبة من الباحثين ـ من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.
٦٠- حق الحرية في العالم ـ الدكتور وهبة الزحيلي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٤٢٣هـ.
٦١- الموسوعة الإسلامية الميسرة ـ لمجموعة من الباحثين ـ دار صحارى ـ حلب ـ١٩٩٧م.
٦٢- حرية التعبير بين المفهوم الشرعي والمفاهيم المعاصرة ـ الدكتور محمد الفرعان ـ مجلة الدراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت.
٦٣- قضية الحرية وقضايا أخرى ـ الدكتور عبد الغني عبود ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٩م.
٦٤- المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٦٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ العلامة ابن القيم الجوزية ـ تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٧٣م.
٦٦- حرية الراي في الإسلام مقارنة في التصور والمنهجية ـ للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب ـ كتاب الأمة ـ العدد (٢٢) ذو القعدة ١٤٢٨هـ وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بدولة قطر.
٦٧- حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي ـ للدكتور عاصم احمد عجيلة ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ط٢ - ١٩٩٠م.
٦٨- أصول الفقه ـ للشيخ محمد الخضري بك ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ط٦ ـ١٩٦٩م.

٦٩- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٧٠- المستدرك على الصحيحين ـ لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ـ ١٩٩٠م.

٧١- سنن أبي داود ـ لأبي داود سليمان بن الشعث السجستاني ت تحقيق سعيد اللحام ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.

٧٢- سنن ابن ماجه ـ لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٧٣- الجامع لأحكام القرآن ـ لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م.

٧٤- البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١/ ١٩٩٤.

٧٥- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ للدكتور علي محمد محمد الصلابي ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية ـ ط١ ـ ٢٠٠٢م.

٧٦- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١١ / ١٩٩٦م.

٧٧- شرح المحلى على جمع الجوامع للسبكي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

٧٨- من أعلام السلف ـ لأحمد فريد ـ الدار السلفية ـ ط٢ ـ ٢٠٠٠م.

٧٩- تفسير القاسمي المسمى بمحاسن التأويل ـ لمؤلفه محمد جمال الدين القاسمي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٩م.

٨٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والبداية من علم التفسير ـ للعلامة محمد بن علي الشوكاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢ / ١٩٨٠م.

٨١- السيرة النبوية لابن هشام ـ تحقيق الشيخ محمد علي قطب والشيخ الدالي ـ المكتبة المصرية ـ بيروت ـ ٢٠٠٢م.

٨٢- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والأخلاقية الراشدة ـ لمحمد حميد الله ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٩٥م.

٨٣- وثيقة المدينة المضمون والدلالة ـ لأحمد قائد الشعيبي ـ من سلسلة كتاب الأمة من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ بدولة قطر ـ العدد ١١٠ ـ ١٤٢٦هـ.

٨٤- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ـ للدكتور محمد محمد شهبة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٦ـ ٢٠٠٢ ـ ط٦.

٨٥- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ـ للدكتور علي محمد الصلابي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ٢٠٠٦ ـ طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ص٣٣).

٨٦- تريخ الأمم والملوك ـ لأبي جعفر الطبري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ـ١٩٨٧.

٨٧- الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ للدكتور علي محمد الصلابي ـ مؤسسة اقرأ ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ ـ صـ (٥٤،٥٥).

٨٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٦٩م.

٨٩- موقع الإسلام اليوم ـ مقال للدكتور نصر محمد الكيلاني ـ بعنوان الحرية الدينية في الإسلام بين الشريعة والعقيدة بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٠٨م.

٩٠- التكريم الإلهي للإنسان ـ للدكتور محمد الزحيلي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

٩١- الله أم الإنسان أيهما أقدر على رعاية حقوق الإنسان ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ٢٠٠١م.

٩٣- معنى اللبيب عند كتب الأعاجيب ـ لجمال الدين هشام الأنصاري ـ تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٩٤- النبوات ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٦.
٩٥- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ـ لمحمد الغزالي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ٢٠٠١م.
٩٦- رسالة القرآن ـ أعداد نخبة من الباحثين ـ بحث بعنوان نحو قراءة كونية للكتاب ـ الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند ـ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ بدولة قطر ـ إعداد إدارة البحوث والدراسات الإسلامية ـ ط١ ـ ٢٠١٠.
٩٧- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ـ لأبي البغاء أيوب بن موسى اللغوي ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٧٨م.
٩٨- القضاء والقدر ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمعه من كلامه الدكتور احمد السايح والدكتور السيد الجميلي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ٢٠٠١م. ـ المقدمة (ص٩).
٩٩- غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم ـ لخالد عبدالصمد العك ـ دار الألباب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م.
١٠٠- المنحة الإلهية في تهذيب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ـ تهذيب عبد الآخر حماد الغنيمي ـ دار الصحابة ـ بيروت ـ ط٢ـ١٩٩٦.
١٠١- الإيمان بالقدر ـ للدكتور يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط١ـ ٢٠٠٠م.

١٠٢- الإعجاز العلمي في الإسلام (القرآن الكريم) لمحمد كامل عبد الصمد ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

١٠٣- الإيمان بالقضاء والقدر ـ لمحمد بن إبراهيم الحمد ـ دار ابن خزيمة ـ الرياض. ط٣.

١٠٤- السماء في القرآن ـ للدكتور زغلول راغب النجار ـ طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ت قطر ت ٢٠٠٧.

١٠٥- الفيزياء ووجود الخالق ـ للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس ـ كتاب المنتدى ـ الرباط ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.

١٠٦- تفسير القرآن المسمى بالسراج المنير ـ للخطيب الشربيني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

١٠٧- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والقمة والتعليل لابن القيم الجوزية ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة.

القسم الثاني من المراجع:

المجلات والدوريات ومواقع الشبكة العنكبوتية (الإنترنت):

١- مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الكويت العدد (٣١).

٢- مجلة الرياض ـ العدد (١٣٦).

٣- أبحاث الندوة العالمية للشباب المسلم ـ المنعقد في الرياض ٢٠ـ ٢٧ ربيع الثاني لعام ١٣٩٩ ـ الموافق ١٨ ـ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٩م.

٤- مجلة الهداية ـ تصدرها وزارة العدل بدولة البحرين العدد (١١١) العام ١٩٨٧.

٥- موقع البلاغ ـ مقال الدكتور ـ محمد ظفر الله خان بعنوان الحضارة الإسلامية بين الحضارات.

٦- موقع الموقع العربي العملاق، مقال للدكتور محمد عمارة بعنوان أسباب التخلف وسبيل النهوض.
٧- مجلة عالم الفكر ـ الكويت ـ العدد الرابع لعام ١٩٧١م ـ بحث بعنوان: الإسلام وحقوق الإنسان. للباحث محمد زكريا يسري.
٨- موقع الإسلام اليوم ـ مقال للدكتور نصره حمد الكيلاني بعنوان: الحرية الدينية في الإسلام بين العقيدة والشريعة ـ تاريخ ١١/ ٢٠٠٨م.
٩- موقع جي جي.
١٠- منتدى الحوار الإسلامي ـ مقال بعنوان التعدد والاختلاف للشيخ محمد الغزالي ـ تاريخ ٤/ ٢/ ٢٠٠٣.
١١- موقع إسلام أون لاين ـ مقال للباحث أحمد القطب ـ صفحة ثقافة وفن.
١٢- موقع المسلم مقال للأستاذ حسن الأشرف بعنوان عاقبة الدين وعِلل التدين إشراف الأستاذ الدكتور ناصر سليمان العمر.
١٣- موقع الجزيرة نت برنامج الشريعة والحياة لقاء مع الدكتور يوسف القرضاوي ـ بعنوان التدين المغشوش ـ تاريخ ١٨/ ٤/ ٢٠٠٧م.
١٤- موقع القرضاوي ـ لقاء بعنوان التدين المغشوش لقناة الجزيرة.

الفهرس

المقدمة.....٥

تمهيد: في التعريف بالسنن الإلهية وعلاقتها بالتكليف الشرعي للإنسان واستخلافه في الأرض.....١٣

المحور الأول: معنى السنة في اللغة والاصطلاح الشرعي.....١٥

المحور الثاني: مفهوم السنن الإلهية في القرآن الكريم.....١٩

المحور الثالث: علاقة السنن الإلهية بالتكليف الشرعي وإعمار الكون.....٢٤

الفصل الأول: دور القرآن في بناء الوعي بالسنن الإلهية.....٢٩

المبحث الأول: تقصير المسلمين في تدوين علم السنن الإلهية.....٣١

المبحث الثاني: دور القرآن في التوعية بالسنن الاجتماعية.....٣٤

المبحث الثالث: دور القرآن في التوعية بالسنن الكونية.....٤٠

الفصل الثاني: بيان بعض المفاهيم التي غابت أو انحرفت في حياة الأمة بسبب غياب الوعي بالسنن الإلهية.....٤٥

المبحث الأول: مفهوم حرية الرأي والتعبير عنه وعلاقته بالسنن الإلهية.....٤٧

المبحث الثاني: مفهوم حرية العقيدة وعلاقته بالسنن الإلهية.....٦٢

المبحث الثالث: مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر وعلاقته بالسنن بالإلهية.....٧٥
المبحث الرابع: بين التدين الحقيقي والتدين المغشوش وعلاقته بالسنن الإلهية.....٩١
الفصل الثالث: السنن الإلهية في الأنفس.....١٠٣
المبحث الأول: سنة الله تعالى في الابتلاء.....١٠٥
المبحث الثاني: سنة الله تعالى في الجزاء من جنس العمل.....١١٥
المبحث الثالث: سنة الله تعالى في التغيير الاجتماعي.....١٢٢
المبحث الرابع: السنن الإلهية الفاعلة في تغيير الأمة الإسلامية.....١٣١
الفصل الرابع: السنن الإلهية في الكون وتسخيرها لانتفاع الإنسان.....١٤١
المبحث الأول: خصائص السنن الإلهية.....١٤٣
المبحث الثاني: نماذج من السنن الإلهية الكونية ومنافعها الدينية والدنيوية.....١٤٩
المبحث الثالث: الكشف العلمي مفهومه ومقوماته ونماذج منه في العصر الحديث...١٦١
المبحث الرابع: علاقة الكشوف العلمية بالتكاليف الشرعية.....١٧٥
الفصل الخامس: بين الحضارة الإسلامية والسنن الإلهية.....١٨١
المبحث الأول: مفهوم الحضارة الإسلامية وأسسها.....١٨٣
المبحث الثاني: مظاهر الحضارة الإسلامية في التاريخ.....١٩٢
المبحث الثالث: أسباب التخلف الحضاري للأمة في عصرنا ومحاولة تلافيها.....١٩٨
الفصل السادس: تسخير السنن الإلهية في البناء الحضاري.....٢١٥
المبحث الأول: ضرورة توعية الأمة بالسنن الإلهية.....٢١٧

المبحث الثاني: خلق الله الكون وسخره للإنسان.....٢٢٢
المبحث الثالث: النظرة الإسلامية كتسخير الكون للإنسان.....٢٣٠
المبحث الرابع: دور السنن الإلهية الاجتماعية والكونية في بناء الحضارة المعاصرة....٢٤٢
الخاتمة.....٢٤٩
المصادر والمراجع.....٢٥٧
الفهرس.....٢٦٩

~